

مقارنة الأديان (١)

هاداه
قتيبة
هاداه
للطباعة والنشر والتوزيع

الجزء الأول

القرآن والتوراة

أين يتفقان

و

أين يفترقان..؟

حسن الباش

القرآن والتوراة

أين يتفقان
و
أين يفترقان؟

الجزء الأول

حسن الباش

دار قتيبة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الإهداء

إلى ولدي قاسم
مِنْحَةً مِنَ اللَّهِ وَبِرَكَتِهِ
إلى كلِّ محبٍّ لعقيدته ومدافعٍ عنها

حسن

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

مقدمة الجزء الأول

منذ فجر التاريخ يتصارع أصحاب العقائد لاعتقاد كل طرف منهم أن عقيدته هي الأصح. وهي التي يجب أن تسود وتستعلي. ومع بروز الديانات الكبرى في الشرق بشكل عام احتد الصراع بين أصحاب العقائد حتى أخذ شكلاً دموياً في كثير من الأحيان. وامتدت آثاره حتى يومنا هذا ونحن على أبواب قرن جديد.

فاليهودية أنكرت المسيحية كما تحللت المسيحية من التعاليم المسلكية اليهودية وإن ظلت تعتبر التوراة مصدراً أساسياً، من مصادرها. والديانات الوثنية التي انتشرت في الهند وآسيا الجنوبية والصين واليابان راحت تنقض بعضها بعضاً وترفض الحديثة منها القديمة. فالهندوسية تحارب البوذية وتحاول أن تمتصها وكذلك العكس.

وهذه الصراعات التي لم تتوقف جرت بسبب التعصب الديني أو المذهبي ورفض الانفتاح الديني بين الشعوب.

وهذه هي الحال حتى جاء الإسلام فاختلفت نظرة الناس إلى الآخرين من أصحاب العقائد الأخرى فالقرآن الكريم تحدث عن التوراة والإنجيل وعن اليهودية والنصرانية وحتى أصحاب العقائد الوثنية وحث على المجادلة والحوار العقلي والحكمة والمنطق.

وقد صرح القرآن الكريم كثيرا بأن بين العقائد أو الرسائل السماوية نظرة مشتركة لوجود إله واحد لا تتم العبودية إلا له. وإيماننا برسول وأنبياء مهمتهم التبليغ وإيماننا بالحساب والعقاب وقد حث أصحاب هذه الرسائل على الرجوع إلى كلمة سواء بينها وهي ألا يشرك بعبادة الله الواحد شيء.

ومجرد الاعتراف القرآني بتلك الرسائل والعقائد يدفع المسلم وغير المسلم للاطلاع على الشرائع والمعتقدات الدينية إطلاعاً منفتحاً. يبعد عن التعصب والتحجر بسبب هوى شخصي أو جماعي وقد تصدى المسلمون الأوائل من مهتمين بالعقائد والديانات ومن علماء لدراستها دراسة حقيقية موسعة تستند إلى فهم واسع واتساع أفق.

وبدافع التوضيح قدّم هؤلاء العلماء في كتبهم ما غاب عن عقول الناس ونفوسهم أو اشتبه عليها فرأينا على سبيل المثال كتاب الملل والنحل للشهرستاني وكتاب الفصل بين الملل والأهواء والنحل للفيلسوف الإسلامي ابن حزم الظاهري الأندلسي. وكتاب الفرق بين الفرق لعبد القاهر البغدادي.

إضافة لذلك فقد حفلت كتب القدماء من علماء الإسلام بمواضيع قيمة ترتبط بتعريف الدين والفرق بينه وبين الفلسفة. فكان للإمام الغزالي رأيه وكذلك ابن خلدون. والإمام الشوكاني حيث تعرض لمقاصد القرآن والكتب المنزلة السابقة عليه.

إضافة لذلك فقد تصدى المعتزلة أمثال العلاف والنظام وواصل بين عطاء وغيرهم لأصحاب الزندقة من المجوس وحاوروا زعماء العقائد الأخرى. ويعود

الفضل في ذلك إلى عصر المأمون في الدولة العباسية الذي بلغ علم الكلام ذروته فيه .

وقد هضم علماء الأمة الإسلامية وفلاسفتها فلسفات الأمم الأخرى المرتبطة بالعقائد كالفلسفة الهندية واليونانية وغيرهما . واستطاعوا مناقشتها ونقضها والإتيان بإضافات مهمة عليها . وبمعرفة خصائص كل عقيدة نشأت ملامح علم يمكن أن نطلق عليه علم مقارنة الأديان بحيث أصبح من مهمة الباحث أو المطلع على العقائد وخصائصها أن يقارن بينها في مسائل كثيرة كالألوهية ومنشأ الخلق . والموت والبعث والحساب والعقاب إلى آخر ما هنالك من قضايا العقائد ومحتوياتها .

وقد يعتقد بعضنا أن هذا العلم يدرس التأثير بين العقائد تماماً كما هو الحال في الأدب المقارن حيث يدرس بروز التأثيرات المتبادلة في كل أدب ومدى ما أثر فيه الأدب الآخر مثلما نرى من تأثير المعراج لابن عربي في الكوميديا الإلهية للشاعر الإيطالي دانتي . ومثلما نرى من تأثير شعري عربي في الشعراء الجوالين (التروبادور) .

بينما يرى بعضنا الآخر أن مقارنة الأديان ليس من شأنها دراسة التأثير والتأثير إنما غايتها دراسة القضايا البشرية الكبرى المرتبطة بالإيمان والتشريعات والعبادات . والتصورات حول الخالق والمخلوق والخير والشر وما إلى ذلك .

وإذا وصلنا العصر الحديث وجدنا آراء بعض علمائنا في قضايا الدين فوجدنا رأي المفكر الإسلامي الفيلسوف محمد إقبال الذي يرى ويسلم بوجود أديان وصور فنية تحقق للإنسان رغبة الفرار المستخذي من حقائق الحياة ولكنه يفكر أن يشمل ذلك سائر الأديان . فالعقائد والآراء الدينية لها من غير شك أمانة ميتافيزيقية . وكذلك وجدنا المجدد جمال الأفغاني يدلوه في جانب آخر أن

الدين أمر واجب للمجتمع .

لكن علم مقارنة الأديان أصبح من العلوم المعترف بها في الغرب، له خصائصه وميزاته وتداخلاته مع علم الأساطير (الميثولوجيا) ومع علم الإنسان (الأنثروبولوجيا) وعلم الاجتماع وغيرها من العلوم.

وقد قدمت في الغرب دراسات في بداية هذا القرن تقارن العهد القديم - التوراة - بالقرآن حتى ذهب بعضهم إلى القول إن القرآن نسخة مهذبة من التوراة.

وقد لجأ الباحثون العرب الحديثون والمعاصرون إلى مقارنة الأديان. ولكن هذا العلم على الرغم من قدم ملامحه وحتى علمائه فإن قلة من الباحثين المعاصرين العرب تصدوا له بمنهج علمي.

ومن أشهر من كتب في ذلك المفكر العربي عباس محمود العقاد في كتابين له. الله وإبليس، وقد درس كل منهما كافة الاتجاهات العقيدية لدى الشعوب القديمة ولدى أصحاب الرسائل الكبرى. وممن كتب في مقارنة الأديان الدكتور أحمد الشلبي حيث قسم بحثه في أربعة كتب. درس في الأول اليهودية وفي الثاني المسيحية وفي الثالث ديانات الهند الكبرى وفي الرابع الإسلام.

ويرى الدكتور الشلبي أن الطريقة التي سار عليها العقاد فيها من العثرات الكثير. وعليها ملاحظات مما جعل الباحثين يعزفون عنها.

ويرى الشلبي أن مباحث الأديان غير مشابهة. فتاريخ اليهودية له أثر كبير في عقيدتهم. لكن التاريخ الإسلامي ليس ذا أثر في العقيدة الإسلامية. وبوذا لم يتكلم عن الإله. ولكن محمدا صلى الله عليه وسلم تكلم عنه وأفاض. وفي أديان الهند موضوع التناسخ وليست كذلك الأديان السماوية وقد لجأ الدكتور الشلبي إلى طريقة أخرى حيث خصص كتابا لكل عقيدة تدرس فيه مباحثه

العقيدة والتشريعات المختلفة مشفوعة بالمقارنة كلما وجد لها مجال.

ويرى الدكتور الشلبي أن هذا الطريق في البحث هو الذي يسير عليه أغلب الكتاب. وقد قدم الدكتور موريس بوكاي كتاباً في المقارنة بين التوراة والإنجيل والقرآن. لكن الجانب الذي درسه جانب التوافق وعدم التوافق بين القرآن والتوراة والإنجيل والعلم الحديث فقارن بين معطيات علم الفلك والطب والجيولوجيا والقرآن الكريم، والتوراة والإنجيل الحاليين.

ومن الباحثين الذين تناولوا الأديان بالمقارنة. الدكتور محمد كمال جعفر حيث قدم ثلاثة كتب تكمل بعضها. وقد درس في الأول الإنسان والأديان واستعرض كثيراً من المباحث التي تعتبر تمهيداً للمقارنة بين العقائد والأديان.

وقد ترجم الدكتور إمام عبد الفتاح إمام كتاب المعتقدات الدينية لدى الشعوب دون أن يكون الهدف مقارنة المعتقدات إنما طغى على المنهج الجمع الموسوعي والكتاب من تأليف وإشراف جفري بارندر. ويساهم في إضافة بعض جوانب الفكر الديني القديم كتاب آخر لـ جون كولر الذي ترجمه كامل يوسف حسين وراجعته الدكتور إمام إمام.

ومن الكتب أيضاً كتاب الأديان المعاصرة وهو لـ راشد عبد الله الفرحان لم يتوسع في المقارنة وغلب عليه الاستعراض والإنجاز.

وبعض الكتب ساهمت أيضاً في إضاءة بعض الجوانب الدينية لدى الشعوب ككتاب الموت في الديانات الشرقية لحسين العودات.

ومن الكتب التي درست المعتقدات الدينية مرتبطة بالأساطير كتاب مغامرة العقل الأولى لفراس السواح ويغلب عليه جمع النصوص الأسطورية الدينية دون أي محاولة لمقارنة. وعلى الرغم من قلة الدراسات في مقارنة الأديان فإن الجهود تبدو حديثة في هذا المجال مما يبشر بفهم أوسع ونتائج متنوعة متميز

في هذا العلم الحديث.

أما بالنسبة للأسلوب فإننا نلاحظ ونحن نقدم هذه الدراسة المقارنة بين التوراة والقرآن أنه يمكن اللجوء إلى طريق ثالث في المقارنة. وهذا الطريق يدرس القضايا الكبرى التي يركز عليها القرآن وتركز عليها التوراة.

وهذه القضايا هي:

1 - الله والخلق الإلهي وأصل الأشياء.

2 - التاريخ البشري من خلال التصريح والتلميح والرمز وبعض القرائن المساعدة والدالة.

3 - الأنبياء والشخصيات الدينية وغير الدينية كما وردت في القرآن الكريم والتوراة.

ومن الطبيعي أن دراسة هذه القضايا الكبرى تسقط من حسابها بعض الأمور الجانبية. وذلك بسبب الغاية التي نرجوها من هذه الدراسة. وهي إيضاح ما يتوافق مع العقل والمنطق والوجدان في كلا الكتابين والرسالتين وتبيان استفادة العقيدة التوراتية من أساطير الشعوب الأخرى والتحقيق فيما كتب في التوراة ودون وإيضاح ذلك على ضوء ما صرح به القرآن الكريم حولها.

لقد أوضح الدكتور محمد كمال جعفر في كتابه الإنسان والأديان أن هناك طرقاً عدة لمقارنة الأديان. فقسمها إلى: 1 - الطريقة النفسية وبين فيها خصائصها وأعلامها أمثال وليم جيمس وعلق على بعض الخصائص وأوضح بعض الملاحظات. 2 - الطريقة التاريخية الاجتماعية، وقدم فيها نماذج من الديانات المصرية واليونانية وأوضح بعض النقاط التي يجب التوقف عندها في المقارنة واستكمالا للدراسة فقد لجأنا إلى بعض الكتب القديمة والحديثة التي تناولت أنبياء إسرائيل ككتاب قصص الأنبياء لابن كثير. وكتاب مجلس

العرائس للثعلبي النيسابوري. وكتاب قصص الأنبياء لعبد الوهاب النجار. وهذا الأخير ذاع صيته بين القارئين في العالم العربي والإسلامي لما فيه من لغة سهلة وتحقيق جيد. ومع ذلك فإن بعض الملاحظات تؤخذ عليه وستعرض لها في حينها ولا سيما عند دراستنا لشخصيات الأنبياء.

وباعتبار أن التوراة التي بين أيدينا كتبت في عصور مختلفة وقديمة سبقت بعثة المسيح (ع) فإن ما يزيد في كشف الأمور التاريخية والعقيدية أساطير شعوب المنطقة وعقائدها ومدى تأثير كتاب التوراة بها.

وحسب معطيات التوراة فإن تاريخ العبرانيين أو التوراتيين من حيث وجودهم يبدأ منذ النبي موسى عليه السلام. فالأمور في ذلك واضحة لا يكتنفها غموض. ونستطيع أن نقارن هذا التاريخ بتسلسل قصة موسى (ع) كما وردت في القرآن الكريم.

إننا نعترف أن القرآن الكريم ليس كتاباً تاريخياً أو هو للتاريخ. غير أن الخطوط العامة فيه تردنا إلى معطيات تاريخية نستطيع أن تعتمد عليها كلياً في معرفة مفاتيح الأحداث ونتائجها. وإن كانت على مستوى الإنسان أو على مستوى الأحداث الكبيرة والصغيرة التي حدثت لبعض البشر أفراداً وجماعات.

لقد اعتمد بعض الباحثين الغربيين مقولة إن تاريخ العبرانيين يبدأ منذ النبي إبراهيم (ع) باعتباره الجد الأول لهم وللعرب. ويؤكدون ذلك من خلال دراسة السلسلة البشرية التي بدأت منذ إبراهيم عليه السلام حتى تصل إلى كافة الأنبياء لدى بني إسرائيل وبعض الأمم الأخرى كالعرب.

ويظل تاريخ إبراهيم (ع) غامضاً في كثير من خطوطه باعتبار أن تدوين التوراة جاء متأخراً جداً عن زمن إبراهيم. بيد أننا نستطيع أن نلمح بعض الخطوط الأخرى التاريخية والجغرافية والعقيدية التي أحيطت بإبراهيم كرجل عادي ثم كنبئ مرسل.

ولعل ظهور دعوته إلى التوحيد في عصر وثني يعطينا مؤشرات كثيرة ترشدنا إلى منهجه الديني الذي يختلف عما جاءت به التوراة. ومن هنا فإن المقارنة بين معطيات التوراة التاريخية ومعطيات المفاتيح القرآنية التاريخية تدلنا بشكل أو بآخر على المنطق التاريخي الصحيح والمسار التاريخي البعيد عن التخمينات والظنون.

وعندما نقول معطيات القرآن التي هي مفاتيح كبرى للتاريخ نؤكد مقولة المنطق والواقع بأن القرآن ليس كتاباً تاريخياً إنما هو كتاب الله ودستوره لبني الإسلام وللبشرية جمعاء. فيه إشارات ورموز وتلميحات وخطوط عامة ترشد الباحث إلى دراسة التاريخ بشكل مطمئن ومنطقي متوافق مع معطيات العلم والمنهج العلمي للدراسات. وسنرى ذلك في صفحات قادمة.

قد يخطر سؤال لأي منا ونحن نقدم منذ البداية افتراضات من المفترض أن تكون نتائج وليست مسلمات وبدهيات. هذا السؤال يقول إذا افترضتم أن التوراة قد دونت على مراحل استغرقت مئات السنين فكيف نقارنها بالقرآن الكريم وما بين الاثنين اختلاف جوهري في الأساس.

وبمعنى آخر إذا افترضتم أن التوراة التي بين أيدينا موضوعة وليست هي التي أنزلت على النبي موسى عليه السلام فكيف نقارنها بما أنزل على الرسول محمد صلى الله عليه وسلم ومن قرآن حفظ في زمنه وتكفل الله بحفظه. ثم ما المبرر لمقارنة ذلك بذلك؟

للسائل أن يفترض هذا السؤال.

ولكن للحقيقة والموضوعية نجد أن في التوراة كثيراً مما في القرآن في خطوطه العامة والقرآن الكريم يتحدث وفي أكثر من موضع أن التوراة حُرِّفت. ولم تشر آية واحدة إلى أن التوراة كلها قد حُرِّفت.

فقد نجد تشابهاً في الأسماء وفي كثير من القضايا المرتبطة بالألوهية وأصل الخلق وكذلك قد نجد تشابهاً في الأسماء والأحداث التي جرت مع الأنبياء. ومثال ذلك ما نجده من تشابه في قصة يوسف أو بعض الأحداث التي جرت في الأسفار الخمسة الأولى من التوراة، ولهذا السبب نقول: إن التوراة التي بين أيدينا تحوي قدراً معيناً مما أنزل على موسى عليه السلام، لكن المسألة تعود إلى ما زيد على ما أنزل أو نقص. وهذه الزيادة قد تخالف المنظور الديني والعقلي وقد تخالف أبسط قواعد العرف البشري. ولهذا تأتي المقارنة بين القرآن الكريم والتوراة لتكشف تلك الزيادات الخطيرة وذلك النقصان الذي يقلب أحياناً الأمور رأساً على عقب.

إن التشابه في كثير من القضايا والقصص والشخصيات في القرآن الكريم والتوراة تؤكد أن مصدر القرآن ومصدر التوراة الأصلية التي أنزلت على موسى هو مصدر واحد. مصدر سماوي إلهي. وهذا يقودنا إلى النصوص القرآنية التي تصرح بأن الرسائل السماوية سلسلة في حلقات. كل رسالة تأتي لتستكمل ما نقص في الرسالة السابقة، وهذا يعود إلى حكمة الله في مساندة عقل الإنسان وتفكيره الديني وتطوره. وقد جاء القرآن الكريم ليختم تلك الرسائل، ولتتكمّل الدائرة اكتمالاً واضحاً لتكون لكافة الناس منهجاً ودستوراً حياتياً وأخروياً.

ومع المقارنة نرى أن القرآن الكريم يصحح ما وقع فيه التوراتيون من تزيف وتحريف ونرى أن آيات القرآن الكريم التي تحدثت عن التوراة وعن أنبياء بني إسرائيل جاءت في أقوى صورة من الدعم ومقارعة الحجة بالحجة الدامغة. ثم جاءت لتتوافق كل التوافق مع معطيات الدراسات التاريخية والعلمية المنصفة والموضوعية.

وعندما ندخل المقارنة بعمق ونتفحص شخصيات الأنبياء وندرسها جيداً نرى أن القرآن الكريم أنصفهم بما تستحقون. وهذا ما يجعل أحد أهداف هذه

الدراسة الدفاع عن هؤلاء الأنبياء والرسل، ودفع الشبهات عنهم، والتي نرى أن التوراة نفسها تدسها عليهم. ولذلك نرى أننا كمسلمين أحق الناس بالقرب من هؤلاء الأنبياء. فهم أولى بنا ونحن أولى بهم من اليهود أو من أي كان.

لقد وقع بعض الباحثين العلمانيين من عرب وغير عرب في مطب خطير حين قالوا عن موسى عليه السلام أنه قائد عسكري مجرم غاز إلى آخر ما هنالك من أوصاف لا تليق بنبي، وهذا الذي وقعوا فيه لا يستند إلا لمقولات التوراة التي صورت الأنبياء بصور لا تليق بهم.

وأعتقد أن هذا المطب الذي وقعوا فيه يصبح حجة لدى اليهود أنفسهم حتى يقولوا إن الآخرين ينكرون الأنبياء الذين اعترف القرآن بهم وبرسالاتهم.

ولهذا لا بد من الانتباه لمرامي اليهود وأهدافهم، ولا سيما حينما يثيرون لدى الدارسين الشهية في البحث عن المثالب التي ألصقوها بالأنبياء والرسل.

ومقارنة التوراة بالقرآن توضح لنا كيف أخفى كتبة التوراة كثيراً من القضايا وكثيراً من صفات الأنبياء، والعديد من الشخصيات، وكيف أن القرآن الكريم أتى عليها إن كان تصريحاً أو تلميحاً. مع العلم أن هذه القضايا خاصة بالعقيدة اليهودية وأن هذه الشخصيات عايشت أنبياءهم وتقابلت معهم. وسنبين في حينه الأهداف التي يرمون إليها من وراء ذلك التنكر والاختفاء. لقد كان لقصة النبي موسى عليه السلام ولقائه بالخضر أو الرجل الصالح في القرآن الكريم شأن مهم في سورة الكهف. وقد أنكرت التوراة هذه القصة وهذا اللقاء وأنكرت أيضاً الرجل الصالح ووجوده.

ولفقت على إسحق ويعقوب وشوهدت شخصية هاجر أم النبي إسماعيل (ع) كما أنكرت نهائياً توجه النبي إبراهيم عليه السلام إلى مكة وبناءه الكعبة. كل ذلك لتضييق المجال التاريخي وتحصره فيما يخص العبرانيين واليهود. وتنكر على الشعب العربي والأمة الإسلامية أية صلة بهؤلاء الأنبياء والرسل ومن

ثم لتجردهم تماما من أية خاصة دينية لهم.

وفي المقارنة أيضا سنرى مدى التشويه التوراتي لحقائق التاريخ وحقائق العقائد الدينية، وسنرى أن آيات القرآن الكريم تدحض ادعاءاتهم وتكشف تزييفهم للحقائق. وتدافع عن الأنبياء وتنفي عنهم الشبهات التي دسها أصحاب التوراة عليهم.

وإذا كان الغرب يدعي انتسابه للمسيحية ولاسيما البروتستانتية منه ويدعي أن التوراة أو العهد القديم هو الكتاب المقدس المعول عليه في تفسير الماضي والمستقبل فإن المقارنة بين التوراة والقرآن الكريم تزيل الغشاوة عن أعينهم، وتبين أن هذا الكتاب الذي اعتمده أساسا دينيا لرؤيتهم العقيدية ما هو إلا كتاب غير مقدس يعج بالأسطورة والوثنية والترهات والسحر والشعوذات بل هو يعج بالانتهاكات الأخلاقية السافلة.

أما إذا كان بعض العلمانيين يرون أن القرآن الكريم نسخة عن التوراة أو أن القرآن استقى كثيرا من الأفكار من المانوية الفارسية كما يدعون فإن المقارنة توضح بالدليل القاطع أن القرآن الكريم كتاب سماوي معجز، فيه ما لم تأت به التوراة ولا غيرها من الكتب. واستشرف المستقبل لبني الإنسان وللكون حتى نهاية الحياة على وجه الأرض.

ولعل من أكثر الأمور التي شغلت التفكير الديني وخاصة اليهودي والغربي المنتصر ما جاءت به التوراة عن وعد إلهي لبني إسرائيل باحتلال وامتلاك أرض فلسطين وطرد سكانها منها وهذا الوعد المزعوم أصبح لدى الكثيرين من الباحثين والمهتمين بالدراسات الشرقية سندا يعودون إليه لتفسير الصراع بين قوى العالمين الغربي والإسلامي. حتى إن بعضهم يجعل التوراة المقياس الأول في دراسة آثار فلسطين وتاريخها ولاسيما القدس.

وقد تأثر بهذه المقولة كثير من العرب والمسلمين. وبالمقارنة يتبين كذب

التوراتيين حول هذا الوعد. فهناك من الآيات القرآنية ما تستلزم التوقف طويلاً لفهم دلالاتها اللغوية المتعلقة بأرض فلسطين التي خصها الله بالباركة أكثر من مرة ووضح فيها أن أرضها سيرثها العباد المخلصون من أمة الإسلام فهي أرضهم ووعد لهم وحق.

لقد تحدثت التوراة عن تاريخ العبرانيين بما فيه من تناقضات كبرى في المجرى التاريخي، وبما فيه من تناقض في المفاهيم والقيم. فنزل القرآن الكريم على النبي صلى الله عليه وسلم ليبين ما التبس على الناس من حكايات التوراة المتعلقة بالله وبالأنبياء والتاريخ. لقد كانت التوراة التي بين أيدي اليهود سبباً للتماهي النفسي عندهم، وباباً للكبر والاستعلاء على الأمم ولما لم يكن بين العرب من يعرف خفايا التحريف اليهودي للتوراة فقد سقطت عقولهم في متهاتات الادعاءات اليهودية والتأليف الذي تطاول على كل مفاهيم الدين والعقائد.

وما إن أنزل القرآن الكريم على قلب محمد صلى الله عليه وسلم حتى أخذت الحقائق تظهر تباعاً فجن جنون اليهود لأنهم أدركوا أن هذا الكتاب هو من عند الله وليس من صنع البشر. وأنه فضح أكاذيبهم وتاريخهم وصحح ما ران على العقول والنفوس من مغالطاتهم، حاربوا النبي محمد صلى الله عليه وسلم وحاولوا قتله لأنهم أدركوا أن رسالته سماوية وأن ما أخفوه من تعاليم النبي موسى عليه السلام لن يبقى مخفياً، وإن ما جاء في القرآن الكريم وما جاء في التوراة التي أنزلت على موسى عليه السلام لا يتعارضان ولا يتناقضان. ولما كانت مصلحة أحبارهم وزعمائهم تقتضي الحفاظ على أسرارهم لئلا تتهدد مصالحهم حاربوا الإسلام بشتى السبل.

لقد جادلهم القرآن الكريم وجادلهم النبي محمد صلى الله عليه وسلم وبين لهم ما أخفوه فارتدوا خائبين موقنين أن النبي الذي يختم الأنبياء لن يكون منهم. وسقطت كل أفكارهم وحججهم أمام القرآن الكريم الذي تعهد الله بحفظه من الدس والتحريف.

تمهيد

من أين نبدأ وأين ننتهي؟ وموضوعنا شائك السبل معقد الطرق، هل نبدأ بالسؤال عن التوراة؟ كيف أنزلت أم كيف دونت؟ أين يقع التحريف وأين تقع الحقيقة؟ ما هي أوجه الخلاف بين التوراة وبين القرآن الكريم؟

أم نأخذ بما هو موجود في التوراة على شكله الذي وصلنا ونقارن بينه وبين القرآن؟ حقيقة الأمر محير إلى حد بعيد. فالطرح السابق على الآخر أيا كان منهما تحفه المخاطر والتساؤلات ولا بد من تجاوز المخاطر والإجابة عن التساؤلات.

ماذا نقدم وماذا نؤخر؟ هل نبدأ بقصة الخلق وهي التي عجزت أمامها العقول وحارت بشأنها الألباب؟ هل نتجاوز هذه المسألة ورموزها موجودة في التوراة كما هي موجودة في القرآن؟ أم نبدأ بالحديث عن آدم باعتباره أول مخلوق وأسهمت التوراة في الحديث عنه كما تحدث عنه القرآن وأسهب؟

ولنعد أدراجنا إلى الوراء ونبحث عن الأسباب الدافعة للخوض في بحث كهذا ثم نبحث عن الغاية من ذلك.

يقول بعض الغربيين لاسيما الوجوديون: إن القرآن نسخة مهذبة عن التوراة.

ويقول آخرون: القرآن أملي على محمد صلى الله عليه وسلم ولم ينزل من السماء.

ويقول آخرون: كتب القرآن ليلخص تجارب الشعوب الدينية ومعتقداتها.

ولا يزال اليهود لا يعترفون برسالة السماء لمحمد صلى الله عليه وسلم. وينكرون على أمه القرآن الكريم إسلامها وعقيدتها.

فلنجادل بالتي أحسن من أحب الجدل. والإقناع والقناعة والاعتناع. حوار مع العقل، والقرآن يحاور العقل. ليس فيه قمع ولا إكراه ولا إجبار على اعتناق المبادئ ولا قسر ما يوافق العقل والمنطق فلتأخذ به البشرية وما يخالف العقل والمنطق فليرفضه العاقلون ويسخر منه ذوو الأبواب، وليعترف الإنسان أي إنسان بأن التجرد عن الهوى والتعصب والاقتراب من الموضوعية هما السبيل لإحقاق الحق ودحض الباطل.

هذه هي التوراة بين أيدينا نقرأها سطرًا سطرًا وإصحاحًا إصحاحًا وسفرًا سفرًا. وهذا هو القرآن الكريم بين أيدينا فلنقرأه آية آية وسورة سورة. ولنضع موازين العقل لمن أحب أن يزن بميزان العقل البشري الواعي الناضج.

فالتوراة مجموعة أسفار تصل تسعة وثلاثين سفرًا. منها أسفار خمسة أولى تقول بعض الفئات اليهودية: إنها هي التوراة وما عداها لا نعترف عليه. إنها حسب عقيدة اليهود السامريين أسفار موسى التي أنزلت من السماء وما عداها كتابات كتبها أحبار وحاخامات على مدى تجاوز السبع مئة سنة.

والتوراة مجموعة كتابات لاهوتية وتاريخية دونت لشريعة أتباعها وتاريخهم، والكلمة بحد ذاتها تعني الشريعة أو التعاليم الدينية. وأسفارها كما قلنا غير متفق عليها، فبعض أحبار اليهود يضيفون أسفارًا لا يقبلها أحبار

آخرون. والمسيحيون المؤمنون بالتوراة يزيد الكاثوليك منهم سبعة أسفار مما يعتقد به البروتستانت وقد درج الكاثوليك على تقسيم التوراة تقسيماً آخر فهم يقسمونها إلى ستة وأربعين سفاً تدرج تحت خمسة أقسام هي:

أ - أسفار موسى الخمسة التي تتضمن شريعته.

ب - أسفار تاريخية وعددها 16 وهي: يشوع - القضاة - راعوث - الملوك الأول والثاني والثالث والرابع - أخبار الأيام الأول - أخبار الأيام الثاني - عزرا - نحميا - طوبيا - أستير - يهوديت - المكابيون الأول والثاني.

ج - أسفار شعرية وعددها ستة وهي: أيوب - المزمير - أسفار سليمان الثلاثة الأمثال والجامعة ونشيد الأناشيد - مراثي إرميا.

د - أسفار نبوية وعددها 17 وهي: أشعيا - أرميا - باروخ - حزقيال - دانيال - هوشع - يوثيل - عاموس - عوبيديا - يونس - ميخا - ناحوم - حبقوق - صفنيا - حجى - زكريا - ملاخي.

هـ - أسفار تعليمية وعددها إثنان هما سفر الحكمة ويشوع بن سيراخ.

والعهد القديم على العموم سجل فيه شعر ونثر وحكم وأمثال وقصص وأساطير وفلسفة وتشريع وغزل ورثاء مع بلاغة أسلوب وفصاحة عبارات في كثير من الحالات⁽¹⁾.

والقرآن الكريم كتاب الله الذي أنزله على قلب محمد صلى الله عليه وسلم عن طريق الوحي وفيه 114 سورة. وقد اختلف المسلمون في تعريفه ولاسيما ما يتعلق بالكلام الذي فيه والمأثور عن أئمة الحديث والسنة قولهم إنه تعالى لم يزل متكلاً إذ شاء ومتى شاء وكيف شاء. وهو يتكلم به بصوت يسمع وأن نوع

(1) د. أحمد شلبي. مقارنة الأديان. اليهودية ص232.

الكلام قديم وإن لم يكن للصوت المعين قديماً⁽¹⁾.

وقد ظهرت تسعة تعريفات للقرآن الكريم وكل تعريف نابع من موقف أصحابه كالمعتزلة الذين قالوا إن القرآن مخلوق، وكالصابئة والفلاسفة الذين قالوا إن كلام الله فيض يفيض على النفوس من معان.

ومن المعاصرين من قال إن القرآن كلام الله حروفه ومعانيه وهو ليس بمخلوق بل تنزيل من حكيم وهذا معتقد أهل السنة والجماعة قديماً وحديثاً⁽²⁾.

والقرآن الكريم تنزيل من الله معجز، الإعجاز فيه يتحدى العرب بلغتهم ومعارفهم وتفكيرهم وهو المعجزة الأبدية إلى يوم القيامة تعهد الله بحفظه من التحريف والتشويه والاندثار (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون). سورة الحجر الآية 9.

وتحدى ربنا الإنس والجن على أن يأتوا بسورة من مثله ولكنهم يعجزون أمام هذا التحدي لأن القرآن كلام الله عز وجل وليس من صنع بشر. وما كان من الله سبحانه فهو معجز للعقول مهما بلغ ذكاؤها ومعجز للألباب مهما بلغت حيلها وأساليب إبداعها.

وقد دون القرآن الكريم في عهد النبي صلى الله عليه وسلم. فكلما نزلت آية كان يشير صلى الله عليه وسلم على أصحابه أن يضعوها في المكان كذا والمكان كذا من السورة. وما إن رحل إلى الرفيق الأعلى حتى كان القرآن الكريم قد دون متكاملًا إضافة لحفظه من قبل المسلمين وخاصة صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

إنه أمر الله وإرادته أن يحفظ القرآن في الصدور وفي السطور، لا يزداد عليه

(1) د. كامل موسى. د: علي دحروج. كيف نفهم القرآن. ص 19.

(2) المرجع السابق صفحة 20.

ولا ينقص منه ليظل دستور المسلمين والبشرية لا ينقضي بوفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا يتغير بتغير الأجيال.

واعتمد التوراتيون في شرح نصوص التوراة على ما أورده أحبارهم من تفصيلات في المشنا والجمارا وفيهما أحاديث مطولة عن طبيعة الشريعة التوراتية وما يرتبط بها من توصيات عقيدية وحياتية تخص العبادات والمعاملات اليهودية.

وبسبب من التغييرات التاريخية والاجتماعية التي طرأت على اليهود ولاسيما بعد السبي وما تبعه من تشريد أخذ علماء اليهود وأحبارهم بكتابة التلمود الذي يوضح رأي الكهنة اليهودي في العلاقة بين اليهودي وغيره من أبناء الأمم والشعوب. ولا يستطيع الباحث أن يصل إلى حقيقة العقيدة اليهودية دون الاطلاع على تعاليم التلمود.

وقد كتب هذا التلمود في زمن السبي البابلي للعبرانيين، ويبدو أن الأهداف السياسية والعرقية لعبت الدور الأول في تدوينه. وكان اليهود آنذاك أشد حاجة لجمع النصوص اللاهوتية الداعية للحفاظ على تعاليمهم وذلك خوفا من الاندماج والاندثار. لاسيما أنهم تعرضوا لأكثر من سبي وأكثر من تشريد.

وفي المحصلة فإن ما ورد في التلمود من تشريعات وتصورات للعقيدة اليهودية لا ينفصل عما جاء في التوراة وهما مصدران أساسيان من مصادر هذه العقيدة.

ولاشك أن في القرآن الكريم ما يفسر بعضه بعضا، غير أن السنة النبوية الشريفة وما جاء على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعتبر المصدر الثاني من مصادر العقيدة الإسلامية بعد القرآن. وكثيرة هي الأمور التي لا يمكن فهمها دون الرجوع إلى أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا يجوز لمسلم أن يتجرأ على تفسير بعض القضايا باجتهاداته الشخصية دون الرجوع إلى القرآن

الكريم والسنة النبوية الشريفة.

إن القرآن الكريم معجز في ألفاظه ومعجز في معانيه ، وفي الوقت نفسه معجز لعقل الإنسان مهما بلغ من التبصر. فكان لابد من العودة إلى أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يتضح ما أشكل على العقول ويفهم ما قد التبس على أبناء الأمة الإسلامية.

إن قضايا كثيرة منها ما يخص الأنبياء ومنها ما يخص الحوادث جاءت في القرآن الكريم بشكل موجز جدا وبعضها الآخر أشار لها القرآن إشارة أو رمز لها رمزا. ولو بقيت دون إيضاح من رسول الله صلى الله عليه وسلم لما عرف المسلمون إلا النزر عنها أو أنهم سيقفون عاجزين أمام تفسيرها أو فهمها أو وعي ما ترمي إليه.

وقد أدخل التوراتيون كثيرا من الدس على الدين الإسلامي لاسيما فيما يتعلق بأمور الخلق وتاريخ البشرية. وخلطوا بين الأساطير والحقائق. وقد تنبه المسلمون لهذا الدس وحذروا منه. لكن كثيرا منه اختلط على بعض الرواة والمفسرين والمؤرخين المسلمين فأتوا به في سياق رواياتهم مما أوحى بالتالي للأجيال المتعاقبة أن هذه الأخبار أو هذه الأساطير جاءت في جوهر العقيدة. وهذا ما أثر سلبا على طريقة فهم الإسلام لاسيما لدى الدارسين والباحثين الغربيين واليهود.

ولهذا كانت العودة إلى أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم والتحقق مما ورد على لسانه عن طريق التبصر بعلم الحديث واجبة حتى يظهر الحق من الباطل والحقيقة من الخيال.

الفصل الأول

التكوين التوراتي والحقائق القرآنية

التكوين التوراتي والحقائق القرآنية

التكوين التوراتي يجمع بشكل مختصر جداً قصة خلق الله للسموات والأرض والحيوانات ومن ثم الإنسان (آدم ع في إصحاح واحد فقط وهو الإصحاح الأول من سفر التكوين. وفي الإصحاح الثاني يبدأ الحديث عن آدم باعتباره أول مخلوق خلقه الله من تراب، وتحدث التوراة في هذا الإصحاح عن الجنة وكيفية حياة آدم فيها. ثم تحدث بشكل سريع عن خلق الله سبحانه لحواء. وتنتقل إلى الحديث عن الحية وإغواء آدم وزوجه، والخطيئة والهبوط من جنة الخلد إلى الأرض. ويتحدث الكتاب في الإصحاح الرابع عن ولدي آدم قابيل وهابيل وكيف قتل الأول الثاني. وبسرعة هائلة ينتقل إلى الحديث عن ولدهم قايين وشيث. وقد ركزت التوراة على ذكر أبناء شيث ومنهم أخنوخ حتى يصل الحديث عن نوح وأولاده سام وحام ويافث وعمله في السفينة حتى قيام الطوفان).

وفي الإصحاح الثامن تذكر التوراة مسير سفينة نوح (ع) في البحر ثم هدوء الطوفان واستقرار الفلك على جبال أراراط. ثم تحدث عن استقرار نوح وأبنائه في الأرض وعملهم فيها. وينتقل للحديث عن أبناء نوح وشعوبهم وتوزعهم في الأرض. وبدأ من الإصحاح الثاني عشر يأخذ الحديث مجرى آخر حيث يتحدث عن إبراهيم ورحلته وأبنائه ويذكر موت إبراهيم في الإصحاح الخامس

والعشرين من سفر التكوين. ويتتبع الحديث عن أبناء إبراهيم إسماعيل وإسحق ويعقوب وعيسو ومن ثم يوسف والأسباط في السفر الخمسين.

هذا ملخص سفر التكوين الذي يمكن للمرء أن يصل له دون الخوض في التفصيلات. والواضح أن التوراتيين أرادوا من هذا السفر إيضاح سلسلة أنساب بشرية تبدأ من آدم وتنتهي مؤقتاً عند يوسف، باعتبار أن هذه السلسلة هي التي تمخض عنها أبناء إسرائيل عن طريق الانتخاب والانتقاء.

وإذا نظرنا إلى التكوين الغيبي للسماء والأرض وخلق الجبال والحيوانات وجدنا أنه لا يستغرق في هذا السفر سوى صفحة واحدة، أو إصحاح واحد حيث يبدأ الحديث عن آدم وعن السلسلة البشرية إلى النبي يوسف.

يبدأ الإصحاح الأول في القول: (في البدء خلق الله السموات والأرض وكانت الأرض خربة وخالية وعلى وجه الغمر ظلمة وروح الله يرف على وجه المياه وقال الله ليكن نور فكان نور. ورأى الله النور أنه حسن، وفصل الله بين النور والظلمة. ودعا الله النور نهائياً والظلمة دعاها ليلاً. وكان مساء وكان صباح يوماً واحداً.

وقال الله ليكن جلد في وسط المياه وليكن فاصلاً بين مياه ومياه. فعمل الله الجلد وفصل بين المياه التي تحت الجلد والمياه التي فوق الجلد وكان كذلك. ودعا الله الجلد سماء وكان مساء وكان صباح يوماً ثانياً.

وقال الله لتجتمع المياه تحت السماء إلى مكان واحد ولتظهر اليابسة وكان كذلك. ودعا الله اليابسة أرضاً. ومجتمع المياه دعاها بحاراً. ورأى الله ذلك أنه حسن. وقال الله لتنبث الأرض عشباً وبقلاً يبزر بزرّاً وشجراً ذا ثمر يعمل ثمرّاً كجنسه بزره فيه على الأرض، وكان كذلك فأخرجت الأرض عشباً وبقلاً يبزر بزرّاً كجنسه وشجراً يعمل ثمرّاً بزره فيه كجنسه. ورأى الله ذلك أنه حسن وكان مساء وكان صباح يوماً ثالثاً.

وقال الله لتكن أنوار في جلد السماء لتفصل بين النهار والليل وتكون
آيات وأوقات وأيام وسنين. وتكون أنواراً في جلد السماء لتنير على الأرض
وكان كذلك. فعمل الله النورين العظيمين النور الأكبر لحكم النهار والنور الأصغر
لحكم الليل. والنجوم. وجعلها الله في جلد السماء لتنير ولتحكم على الليل
والنهار وتفصل بين النور والظلمة، ورأى الله ذلك أنه حسن وكان مساء وكان
صباح يوماً رابعاً.

وقال الله لتفض المياه زحافات ذات نفس حية وليطر طير فوق الأرض
على وجه جلد السماء فخلق الله التنانين العظام وكل ذوات الأنفس الحية
الدبابة التي فاضت بها المياه كأجناسها وكل طائر ذي جناح كجنسه ورأى الله
ذلك أنه حسن وباركها الله قائلاً أثمري واكثري واملأي المياه في البحار وليكثر
الطير على الأرض وكان مساء وكان صباح يوماً خامساً.

وقال الله لتخرج الأرض ذوات أنفس حية كجنسها بهائم ودبابات
ووحوش أرض كأجناسها وكان كذلك. فعمل الله وحوش الأرض كأجناسها
والبهائم كأجناسها وجميع دبابات الأرض كأجناسها ورأى الله ذلك أنه حسن
وقال الله نعمل الإنسان على صورتنا كشبهنا فيتسلطون على سمك البحر وعاشي
طير السماء وعلى البهائم وعلى كل الأرض وعلى جميع الدبابات التي تدب
على الأرض. فخلق الله الإنسان على صورته. وعلى صورة الله خلقه ذكراً وأنثى
خلقهم وباركهم الله وقال لهم أثمروا واملأوا الأرض وأخضعوها وتسلطوا على
سمك البحر وعلى طير السماء وعلى كل حيوان يدب على الأرض. ورأى الله
كل ما عمله فإذا هو حسن جداً وكان مساء وكان صباح يوماً سادساً.

فأكملت السموات والأرض وكل جندها وفرغ الله في اليوم السابع من عمله
الذي عمل، فاستراح في اليوم السابع من جميع عمله الذي عمل وبارك الله
اليوم السابع وقدمه لأنه فيه استراح من جميع عمله الذي عمل الله خالقاً.

«هذه مبادئ السموات والأرض حين خلقت يوم عمل الرب الإله الأرض والسموات، كل شجر البرية لم يكن بعد في الأرض وكل عشب البرية لم ينبت بعد لأن الرب الإله لم يكن قد أمطر على الأرض ولا كان إنسان ليعمل الأرض. ثم كان ضباب يطلع من الأرض ويسقي كل وجه الأرض، وجبل الرب الإله آدم تراباً من الأرض. ونفخ في أنفه نسمة حياة. فصار آدم نفساً حية. وغرس الرب الإله جنة في عدن شرقاً. ووضع هناك آدم الذي جبله. وأنبت الرب الإله من الأرض كل شجرة شهية للنظر وجيدة للأكل. وشجرة الحياة في وسط الجنة وشجرة معرفة الخير والشر وكان نهر يخرج من عدن ليسقي الجنة. ومن هناك ينقسم فيصير أربعة رؤوس اسم الواحد فيثون وهو المحيط بجميع أرض الحويلة حيث الذهب. وذهب تلك الأرض جيد هناك المقل وحجر الجزع، واسم النهر الثاني جيحون وهو المحيط بجميع أرض كوش، واسم النهر الثالث حدآقل وهو الجاري شرقي آشور والنهر الرابع الفرات».

هذا ما جاء في الإصحاح الأول من سفر التكوين عن مسائل خلق الله للسموات والأرض والليل والنهار والمياه واليابسة والحيوانات والنباتات والإنسان.

ويبدو أن ما جاء في هذا الإصحاح يصدر من مصدرين. والفقرات التي وضعناها بين قوسين تنفصل عما قبلها في الأخبار من ناحية وفي الصيغة من ناحية أخرى، وفي الاختصار من ناحية ثالثة. وسنعود لمناقشة ذلك بعد أن نورد الآيات القرآنية التي تحدثت عن الخلق.

يقول تعالى في سورة البقرة الآية 29: (هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات وهو بكل شيء عليم).

ويقول تعالى في سورة الحديد الآية 4: (هو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش).

ويقول تعالى في سورة الملك الآية 3: (الذي خلق سبع سموات طباقاً ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطون).

يقول تعالى في سورة الأعراف الآية 54: (إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام)، ويقول تعالى في سورة فصلت من الآية 1 - 12: (قل أنتم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أنداداً ذلك رب العالمين. وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض أئتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين. فقضاهن سبع سموات في يومين وأوحى في كل سماء أمرها وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظاً ذلك تقدير العزيز العليم).

ويقول تعالى في سورة النازعات من الآية 27 إلى الآية 33: (أنتم أشد خلقاً أم السماء بناها رفع سمكها فسواها، وأغطش ليلها وأخرج ضحاها والأرض بعد ذلك دحائها أخرج منها ماءها ومرعاها والجبال أرساها متاعاً لكم ولأنعامكم). ويقول تعالى في سورة الأنبياء الآية 130: (أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقاً ففلقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون).

ويقول تعالى في سورة المؤمنون الآية 17: (ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق وما كنا عن الخلق غافلين).

ويقول تعالى في سورة نوح الآيتين 15 - 16: (ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقاً. وجعل القمر فيهن نوراً وجعل الشمس سراجاً).

ويقول تعالى في سورة النبأ الآيتان 12 و 13: (وبنينا فوقكم سبْعاً شداداً وجعلنا سراجاً وهاجاً).

ويقول تعالى في سورة الفرقان الآية 59: (الذي خلق السموات والأرض وما

بينهما في ستة أيام).

ويقول تعالى في سورة ق الآية 38: (ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام وما مسنا من لغوب).

ففيما ورد في التوراة وما ورد في القرآن الكريم نرى أن عدة أيام الخلق ستة أيام وقد صرح بكلمة (ستة) القرآن الكريم في كثير من المواضع. كما أن التوراة صرحت بأن الرب أنهى عمله في ستة أيام ثم استراح في اليوم السابع.

غير أن التوراة يصرح بأن الله خلق السموات والأرض، وكانت الأرض خربة وخالية وعلى وجه الغمر ظلمة. أما كيف خلق السموات والأرض فهذا لم تصرح به التوراة. ولأي من البشر أن يتساءل عن الأصل الذي كانت عليه السموات والأرض أو أن يسلم تسليمًا نهائيًا بأن السموات والأرض خلقتا هكذا وهذا ما قاله الرب وكفى.

وحينما ننظر ملياً في آيات القرآن الكريم نرى أن عملية الخلق الكوني لم تصبح واقعاً إلا بعد أن تمت عملية فصل كبيرة بين الأجرام السماوية.

ففي سورة الأنبياء يقول تعالى: (أولم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما).

وعملية الفتق هذه تمت قبل أن تخلق السماء وقبل أن تخلق الأرض. فالأرض والسموات كانتا كتلة واحدة ثم انفصلت فصارت هنا أرض وصارت هناك سموات وإذا عدنا إلى نظريات العلم الحديث التي تناولت كيفية تشكل الأرض والكواكب والشمس نجد أنها تتوافق مع ما نص عليه القرآن على الرغم من أن هذه النظريات تبقى في باب التوقعات القريبة من الصحة لأنها استندت على دراسات واسعة تناولت طبيعة الأرض وجيولوجيتها وكذلك الكواكب والشمس وبقية الأجرام السماوية.

لقد أشار القرآن إلى عملية الفتق بين شيئين ملتحمين.

وحين ننظر إلى قوله تعالى (ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً...) فالدراسات الجيولوجية ترى أن عملية الانفجار الكبرى التي نتج عنها تكوّن الأرض وبقية الأجرام السماوية شكلت كتلة غازية هائلة. وهذا أمر طبيعي يتوافق مع أبسط قواعد العقل والمنطق. فالبركان الذي ينفجر يخلف كتلة غازية هائلة تنتشر على مساحات شاسعة من الفضاء وهي عبارة عن ذرات قد تكون فيها مواد.

فقوله تعالى استوى إلى السماء وهي دخان إشارة واضحة إلى وجود كتلة غازية ذات جزئيات. والدخان نفسه يتكون من قوام غازي حيث تعلق به بشكل أكثر أو أقل ثبوتاً جزئيات دقيقة قد تنتمي إلى حالات المواد الصلبة أو حتى السائلة مع درجة في الحرارة قد تقل أو تكثر⁽¹⁾.

وعندما نعود إلى قوله تعالى كانتا رتقاً ففتقناهما نرى أن تتمة الآية تقول: (وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون).

وهذا الإرداف لم يأت عبثاً فالفتق الذي تم بين السموات والأرض وما لحقه من تشكل كتلة غازية وانفجارات في الأرض لا بد أن تتبعه عملية تبريد ولن يتم ذلك إلا بالماء.

فهناك غازات - دخان ولا شك أن تشكل المطر يتم بوجود الغيوم التي هي عبارة عن غازات وبخار. وإذا تخيلنا الكتلة الغازية بحجمها الذي نتج عن انفجار الفتق بين السموات والأرض لأدركنا أن الأرض وبعض الكواكب ما كانت لتتبرد لولا هطول الأمطار الغزيرة الواسعة النطاق والتي شملت الأرض كلها وقوله تعالى (كل شيء حي) يشمل الحيوان والنبات وكل ما هو مخلوق محتاج للحياة.

(1) موريس بوكاي. القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم ص: 163.

فبدء الخلق ابتداءً بفصل الأرض عن الأجرام السماوية، ثم تبريد القشرة الأرضية بواسطة الماء ثم خلق كل شيء حي على وجه الأرض بسبب وجود الماء.

وطبيعي أن الآية هنا (أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانت رتقاً ففتقناها وجعلنا من الماء كل شيء حي)، توجز عدة عمليات كونية لا يقدر إنسان أن يقدر زمنها بدقة لأنها ليست من اختصاص من لم يكن شاهداً عليها، إن ما جاء به العلماء فرضيات قد تكون صحيحة أو لا تكون.

بعد ذلك يستطيع المرء متابعة عملية الخلق كما وردت في التوراة وكما وردت في القرآن الكريم ليرى مدى الاتفاق ومدى الاختلاف.

(وفي اليوم الأول خلق الله السموات والأرض وحسب قول التوراة (والأرض خربة وروح الله يرف على وجه الماء).

(وقال الله ليكن نور. ثم فصل بين النور والظلمة ودعا الله النور نهاراً والظلمة دعاها ليلاً.

وفي اليوم الثاني هناك جلد في وسط المياه. ثم فصل بين الجلد الذي تحت الماء والجلد الذي فوقه ودعا الله الجلد سماء. وفي اليوم الثالث تجتمع المياه تحت السماء وتظهر اليابسة ودعا الله اليابسة أرضاً. ثم خلق الله النباتات.

وفي اليوم الرابع خلق الله الأنوار في السماء لتفصل بين الليل والنهار.

وفي اليوم الخامس يخلق الله الحيوانات والطيور من زحافات وتنانين كبار.

وفي اليوم السادس يخلق البهائم وجميع دبابات الأرض والإنسان).

فمن خلال ما ورد نرى أن الله خلق في اليوم الأول أرضاً خربة وخلق

النهار من ظلمة نور.

ثم في اليوم الثاني استكمل الله بناء السماء ودعاها سماء وظهرت اليابسة.

ثم مرة أخرى في اليوم الثالث تجتمع المياه بينما كانت روح الله ترف على الماء في اليوم الأول.

ومرة أخرى في اليوم الرابع يخلق الله الأنوار في السماء بينما خلق الله النور وسماه نهراً منذ اليوم الأول.

وفي اليوم الخامس تخلق الحيوانات والطيور وفي اليوم السادس أيضاً تخلق حيوانات وطيور، فالواضح أن خلطاً يقع بين ما يخلقه الله في اليوم الأول واليوم الرابع وبين اليوم الخامس واليوم السادس بينما يظل الحديث غامضاً في اليوم الثاني، واليوم الثالث.

يقول موريس بوكاي. إن الضوء الذي يقطع الكون هو نتيجة ردود أفعال معقدة تحدث في النجوم، ولكن النجوم حسب قول التوراة لم تكن قد تشكلت بعد في هذه المرحلة حيث أن أنوار السموات لا تذكر في سفر التكوين إلا في الآية 14 باعتبارها ما خلق الله في اليوم الرابع ليفصل بين النهار والليل ولينير الأرض. ولكن من غير المنطقي أن تذكر النتيجة الفعلية أي النور في اليوم الأول على حين تذكر وسيلة إنتاج هذا النور في اليوم الرابع⁽¹⁾.

ويرى المرء أن خلق الشمس تم في اليوم الرابع بينما خلقت النباتات في اليوم الثالث. فكيف يمكن أن نرى عالم نباتات تحيا وتتناسل قبل أن تكون الشمس؟ وهي العنصر الأهم في وجود النباتات واستمرار حياتها؟.

ولنعد إلى آيات القرآن الكريم وكيف تحدثت عن الأيام الستة وما تم فيها من خلق السماوات والأرض وما بينهما.

(1) موريس بوكاي. القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم ص: 41.

في الآيات تارة يتقدم خلق السماوات على خلق الأرض وتارة أخرى يتقدم خلق الأرض على خلق السماء فهل خلقت السماء قبل خلق الأرض أم أن الأرض خلقت قبل السماء؟.

ظاهر الآيات يشير إلى تقدم خلق واحدة على الأخرى. فالآيات التي تشير إلى خلق الأرض أولاً قليلة. وهي في سورة البقرة الآية 29 وسورة طه الآية 4 وسورة فصلت الآيات من 9 - 12. ويوجد عدد كبير من الآيات يشير إلى خلق السموات أولاً كما في سورة الأعراف الآية 54 وسورة يونس الآية 3 وسورة هود الآية 7 وسورة الفرقان الآية 59 وسورة السجدة الآية 4 وسورة ق الآية 38 وسورة الحديد الآية 4 وسورة النازعات الآيات من 27 إلى 33. وسورة الشمس الآيات من 5 - 10.

وعندما نعود إلى قوله تعالى: (أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما)، نجد أن عملية خلق السموات والأرض تمت في آن واحد. والفتق الذي أجراه الله فصل الأرض عن السموات في لحظة واحدة أي في وقت واحد. ووجود آيات تتحدث عن خلق السموات قبل الأرض وآيات تتحدث عن خلق السموات بعد خلق الأرض دليل على تداخل عملية الخلق. ولم تحدد آية واحدة خلق إحداهما على الأخرى بوجود قرينة لفظية كقولنا مثلاً: خلقنا السماء قبل أو بعد وواو العطف التي تعطف الأرض على السماء أو تعطف السماء على الأرض لا تعني سوى الملاصقة فهي لا تدل على استغراق في الوقت.

أما قوله تعالى في سورة فصلت من 1 - 12: (قل أنتمكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أنداداً ذلك رب العالمين. وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض أنئتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين. فقضاهن سبع سموات في يومين وأوحى في كل سماء أمرها وزينا السماء الدنيا

بمصاييح وحفظاً ذلك تقدير العزيز والعليم).

فظاهر الآية يدل على أن عملية الخلق تمت في ثمانية أيام. يومين لخلق الأرض وأربعة أيام لخلق الجبال والأقوات ويومين لخلق السموات السبع. ومن ناحية ثانية يدل ظاهرها على أن الأرض خلقت قبل السموات ولكن المدقق في الآيات يرى ما يلي:

خلق الله الأرض في يومين واستوى إلى السماء، إذأ فالسمااء كانت موجودة قبل الاستواء وهذا يعود بنا إلى أصل الفتق الذي تم في آن واحد لتشكّل الأرض وتشكّل السماء، لكن الذي يفهم من الآيات إعجاز الله لعقل الإنسان. فالآية تستنكر موقف الكفار الذين كفروا بالله وهو الذي خلق الأرض في يومين. فليس المقصود تحديد ما خلق الله أولاً وإنما المقصود إظهار معجزة الله في خلق الأرض، في يومين.

وعملية الخلق تمت في ستة أيام وليس في ثمانية. إذ أن خلق الجبال والأقوات تم في أربعة أيام بدءاً من اليوم الأول الذي تم فيه خلق الأرض. أي أن خلق الجبال والأقوات استغرق أربعة أيام من ضمنها اليومان اللذان بدأ الله فيهما خلق الأرض ولا تبدأ الأيام الأربعة بعد انتهاء اليومين اللذين خلقت فيهما الأرض.

فالأرض موجودة والسماء موجودة كما أشرنا في آن واحد أما قوله تعالى استوى إلى السماء وهي دخان فالسبب في ذلك كما هو واضح في الآيات استكمال عملية الخلق. ففي يومين خلق الله سبع سماوات وأوحى في كل سماء أمرها وزين السماء الدنيا بالنجوم لتضيء ما بين السماء والأرض أما طبيعة زمن هذه الأيام فنرى صورتين متناقضتان بين القرآن والتوراة.

فالتوراة تحدد اليوم بقولها وكان صباح وكان مساء أي أن اليوم هو يوم

محدد ببدء الصباح وانتهاء المساء وهذا ما يوافق أيماننا التي نحياها إلى اليوم.

أما في القرآن الكريم فالיום لم يحدد بدؤه ولا انتهائه. وقد اختلف علماء المسلمين في تحديد هذه الأيام هل هي أيام كأيماننا هذه أم هي أيام زمنها يعود لتقدير الله سبحانه.

وقد وردت آيتان الأولى في سورة السجدة الآية 5 وفي سورة المعراج الآية 4 تشيران إلى أن اليوم قد يكون ألف سنة مما تعدون. وقد تكون خمسين ألف سنة.

يقول تعالى في سورة السجدة الآيتان 4 - 5: (الله الذي خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش ما لكم من دونه من ولي ولا شفيع أفلا تتذكرون يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه في يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون).

ويقول تعالى في سورة المعراج الآية 4: (تعرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة).

ونأتي إلى اليوم السابع الذي تحدثت عنه التوراة في تكوينها حيث قالت: (وفرغ الله في اليوم السابع من عمله الذي عمل. فاستراح في اليوم السابع من جميع عمله الذي عمل وبارك الله اليوم السابع وقدهس لأنه فيه استراح من جميع عمله الذي عمل الله خالقاً).

فالتوراة تفترض أن الرب استراح من عناء العمل الذي استغرق ستة أيام. والمقياس هنا مقياس بشري ذي نواميس دنيوية وليس ذا نواميس إلهية خاصة بالله.

أما القرآن الكريم فيجيب على هذا الافتراض بأن الله خلق السموات والأرض وما بينهما ولم يمسه تعب فهو الله الخالق القادر على كل شيء.

يقول تعالى في سورة ق الآية 138: (ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام وما مسنا من لغوب).

ويقول تعالى في سورة الأحقاف الآية 33: (أو لم يروا أن الله الذي خلق السموات والأرض ولم يعي بخلقهن). ففي الآيتين السابقتين يتضح لنا أن القرآن يرد قول الذين افتروا على الله وقالوا إنه استراح بعد خلقه للسموات والأرض. فالله منزّه عن التعب والراحة لأنهما من صفات المخلوق المحدود وليست من صفات الله الخالق.

ونحن ندرك جميعاً أن اليوم السابع من الأسبوع هو يوم السبت لدى اليهود وهو اليوم الذي يستريحون فيه لا يعملون عملاً لا في المنزل ولا في خارجه. وقد ربطوا ذلك باستراحة الرب حسب ما يقولون. وقد أوردت التوراة أن الله بارك اليوم السابع أي بارك يوم السبت يوم راحة اليهود. ولا يخفى على المرء معنى هذا الربط وهذا التقديس وهذه المباركة، فالعقيدة اليهودية تربط كل الأمور بما يخص أتباعها حتى تلك التي تتعلق بعملية خلق الله للسموات والأرض واستراحته في اليوم السابع كما يقولون، وسنرى التركيز التوراتي على اليوم السابع يتكرر في التوراة بشكل كبير لاسيما في سفر التثنية وسفر العدد وسفر اللاويين، أي في الأسفار التي يقول اليهود إنها أسفار موسى الأساسية والتي وضع فيها الله الشريعة اليهودية.

التكوين التوراتي والخلفية الأسطورية:

لاشك أن الحديث عن خلق السموات والأرض في سفر التكوين ليس هو وحده الحديث المرتبط بمسألة الخلق. ولو بقي هذا الحديث عند الحدود التي رأيناها لما أثارنا سوى بعض الإشكالات وإن كان بعضها ينجرف إلى هاوية الكفر المبين كاستراحة الرب في اليوم السابع غير أن مسألة الخلق جاءت

متناثرة أحياناً في بعض الأسفار بصيغة أسطورية يتضح فيها مدى استفادة مدوّني التوراة من أساطير الشعوب وتراثها الديني مناقضين فيها كثيراً مما أوردوا في سفر التكوين أو غيره من الأسفار.

نرى مثلاً في المزمور 13/74 أن المياه التي كانت موجودة على الأرض بعد خلق السموات والأرض كان يسيطر عليها تنينٌ ذو رؤوس سبعة. ولم يستطع الرب إحكام قبضته على المياه إلا بعد صراع مع التنين كانت نتيجته قتله وسيطرة الرب على الكون يقول (أنت شققت البحر بقوتك كسرت رؤوس التنانين على المياه. أنت رضضت رؤوس لويathan).

فبعض العلماء والباحثين يرى أن هذه الأسطورة، إما مأخوذة من التراث الأسطوري البابلي حيث يقتل الإله مردوخ (تعامت) الآلهة المسيطرة على المياه ومن هؤلاء صموئيل هنري هوك، أو أنها مأخوذة من التراث الأسطوري الكنعاني حيث يقتل الإله بعل إله البحار والأنهار المدعو (يم نهان) وفي كلا الحالتين نرى أن كتبة التوراة هضموا أساطير الشعوب في المنطقة وتأثروا بها كثيراً وظهرت بشكل أو بآخر في كتاباتهم التوراتية⁽¹⁾.

وقد نقلت بعض الأساطير إلى التراث الإسلامي رغم مخالفتها لمنطق القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة. وقد كان لبعض اليهود الذين أسلموا دور بارز في نقل كثير من الأساطير التوراتية المستقاة من أساطير الشعوب في المنطقة. ومن هؤلاء وهب بن منبه وكعب الأحبار وقد تنبه المفسرون والعلماء لتسرب الإسرائيليات في العقيدة الإسلامية غير أن بعضهم لم يعرّها اهتمامه واستند على أخبارها في ما رآه من حديث عن خلق الأرض والسموات وآدم وما رافق ذلك من تصورات حول مسألة الخلق بشكل عام.

(1) إرجع إلى كتاب نصوص من أوغاريت، أو كتاب اللآلئ، لمفيد عرنوق، إصدار دار النهار بيروت، أو كتاب الميثولوجيا الكنعانية والاختصاص التوراتي لحسن الباش، إصدار دار الجليل دمشق 1988.

فأبو إسحاق النيسابوري المعروف بالثعلبي وقع في مثل هذه المطبات الإسرائيلية فإذا نظرنا جيداً في كتابه قصص الأنبياء المسمى عرائس المجالس وجدنا منها، ما لا يعتمد الحديث الصحيح ليدعم ما نقله، ويفسر الآيات القرآنية على ضوء ما نقله عن الرواة اليهود والرواة المسلمين الذين لا يعتد بهم ولا بأقوالهم.

نورد مثلاً قوله التالي: أهبط الله تعالى من أعلى الفردوس ثوراً له سبعون ألف قرن وأربعون ألف قائمة وجعل قرار قدمي الملك على سنامه فلم تستقر قدماه فأحدر الله ياقوته خضراء من أعلى درجة من الفردوس غلظها مسيرة خمس مائة سنة فوضعها بين سنام الثور إلى أذنه فاستقرت عليها قدماه وقرون ذلك الثور خارجة من أقطار الأرض وهي كالحسكة تحت العرش ومنخر ذلك الثور في البحر فهو يتنفس كل يوم نفساً فإذا تنفس مدّ البحر وإذا رد نفسه جزر، ثم يقول (فخلق الله نونا وهو الحوت الكبير اسمه لويتا وكنيته بلهوت ولقبه بهموت فوضع الصخرة على ظهره وسائر جسده خال)⁽¹⁾.

ويتضح من خلال ما ورد أن الثعلبي استفاد من أساطير التوراة استفادة كبيرة حتى أن اسم الحوت (لويتا) مأخوذ من اسم التنين (لويثان) الذي صرعه الرب قبل سيطرته على المياه وتدبير الكون حسب زعم التوراة.

ويورد الثعلبي قوله: وقال كعب الأحبار: إن إبليس تغلغل إلى الحوت الذي على ظهره الأرض فوسوس إليه وقال له: أتدري ما على ظهرك يا لويتا من الأمم والدواب والشجر والجبال وغيرها؟ لو نفضتها أو ألقيتها عن ظهرك أجمع لكان ذلك أريح لك قال: فهم لويتا أن يفعل ذلك فبعث الله تعالى إليه دابة فدخلت في منخره فوصلت إلى دماغه ففج الحوت إلى الله تعالى منها فأذن الله لها فخرجت. قال كعب الأحبار فوالذي نفسي بيده إنه لينظر إليها وتنظر

(1) قصص الأنبياء للثعلبي النيسابوري ص 6، دار الكتب العلمية بيروت 1985، الطبعة الرابعة.

إليه إن هم بشيء من ذلك عادت كما كانت.

ويستند الثعلبي في كتابه على ما أورده وهب بن منبه أيضاً. وهذه الأخبار ومثيلها ليست من واقع العقيدة الإسلامية في شيء. لأن القرآن الكريم صرح وبمنتهى الوضوح عن سير الأرض والشمس والقمر والكواكب وأصل هذه الأشياء. وجميع ما قاله القرآن يتوافق مع منطق العلم ولا يتوافق مع منطق الأساطير والخرافات.

ولعل من اللطائف التي وردت في آيات القرآن الكريم التي تتحدث عن خلق السموات والأرض ما يدل على أن المسألة في جوهرها تبيان معجزة الخالق في هذا الخلق.

وفي سورة البقرة يردف الحديث بقوله تعالى: (وهو بكل شيء عليم).

وفي سورة الحديد يردفه بقوله تعالى: (والله بما تعملون بصير).

وفي سورة الملك يقول تعالى: (فارجع البصر هل ترى من فطون).

وفي سورة الأحقاف يقول تعالى: (إنه على كل شيء قدير).

وفي سورة الزمر يقول تعالى: (ألا وهو العزيز الغفار).

وفي سورة فصلت يقول تعالى: (ذلك تقدير العزيز العليم).

فالهدف من تبيان قدرة الله الخالق وتبيان الإنسان أمام قدرة الله وعلمه، فالتقدير والعزة والعلم كلها من صفات الله سبحانه، تأتي مع آيات الخلق لتؤكد قدرته تعالى وعزته وعلمه، وصغر الإنسان واضمحلاله أمام تقدير الله وقدرته وعلمه، والمسألة فيها من التعليم وفيها من التحدي وفيها من الدروس مالا يستطيع الإنسان الإلمام بها جميعاً.

(إن ما يقصد من الشرائع إن كانت إسلامية أو غيرها بيان ما يرشد

الخلق إلى معرفة الله تعالى، وإلى الأحكام التي توصل العباد إلى انتظام المعاش، وأما تعريفهم بمباحث العلوم الكونية من كيفية خلق العالم والنواميس القائمة فيه فإنه ليس من مقاصد الشرائع بل تلك معارف يتوصلون إليها بعقولهم⁽¹⁾.

لاشك أن القرآن الكريم والتوراة يتوافقان في الحديث بأن الله سبحانه خلق النباتات والحيوانات قبل أن يخلق آدم. فالتوراة تقول في سفر التكوين: (وخلق من كل مخلوقات الأرض ذكراً وأنثى وخلق الإنسان ذكراً وأنثى في اليوم السادس).

ويقول تعالى في القرآن الكريم في سورة فصلت: (وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام).

ويقول في سورة النازعات: (والأرض بعد ذلك دحاها وأخرج منها ماءها ومرعاها والجبال أرساها متاعاً لكم ولأنعامكم).

فالأرض بعد أن أنزل الله عليها الماء أنبت الزرع وخلق فيها الحيوانات تمهيداً لیسكنها الإنسان ونسله.

لقد خلق الله السماوات والأرض والنبات والحيوان والإنسان وهو يعرف بعلمه الأزلي أن الإنسان الذي خلقه ووضع في جنة عدن سيؤول إلى الأرض لتتم عملية الامتحان الدنيوية.

وقد يقول قائل: لو أن آدم لم يخطئ في الجنة أبقى فيها مع حواء وينجبان ويتكاثران؟.

حقيقة الأمر أن المرء لا يفترض افتراضاً يعارض مسار علم الله الأولي. فقولنا (لو) هو افتراض نقيسه على مقاييسنا الدنيوية المحدودة بنواميس مادية ملموسة محسوسة تتوافق مع حدود عقلنا.

(1) نديم الجسر، قصة الإيمان ص210.

والواضح أن الله سبحانه خلق الأرض وأقواتها ونباتاتها وحيواناتها بمعنى أنه أحيأ فيها الأسباب التي من شأنها أن تمهد لآدم أو للإنسان أن يسكنها ويستخلفها. وما خلق آدم في الجنة إلا مرحلة أولى من مراحل حياته. وإلا لو بقي في الجنة لما كان هناك امتحان ولما كان هناك جزاء وحساب. وقد خلق آدم من عناصر كثيرة. العاطفة والعقل والجسد والإحساس والنفس وهي جميعاً قابلة للتحويل من آن إلى آن ومن حالة إلى حالة. وقد نسي آدم وصية ربه في ألا يطيع الشيطان فكان نسيانه من طبيعته الإنسانية البشرية. فما قام به آدم من عمل هو أول درس لبني البشر قبل أن يتواجدوا على وجه الأرض. فحتى لا يظلموا بين الله سبحانه أسباب الخطأ ونتائجها سلفاً قبل أن يخلقوا ويقعوا في ما لا تحمد عقباه.

أما في ما يتعلق بخلق الملائكة والجن. فإن آيات القرآن الكريم توضح وبشكل قاطع أن الله خلق الملائكة والجن قبل أن يخلق آدم والجنس البشري.

يقول الله تعالى في سورة البقرة الآية 30: (وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إني أعلم ما لا تعلمون).

ويقول تعالى في سورة الكهف الآية 50: (وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلاً).

فالأيتان تدلان بشكل قطعي أن الله سبحانه خلق الملائكة والجن قبل أن يخلق الإنسان.

الملائكة والجن في التوراة والقرآن:

تصرح آيات القرآن الكريم بوجود الملائكة والجن قبل خلق الإنسان آدم. وقد ورد ذكر الملائكة في التوراة. ويختلط على المرء وجود اسمين لمخلوق واحد في التوراة فتارة تصرح بلفظة ملاك الرب وتارة أخرى تصرح بلفظ الكروبيم جمع كروب، وقد فسر قاموس الكتاب المقدس كلمة كروب وكروبيم على أنها قوى سماوية خلقها الله لتسبح له وتنفيذ أوامره، وقد ورد في سفر التكوين (فأخرجه الرب الإله من جنة عدن ليعمل الأرض التي أخذ منها فطرده الإنسان وأقام شرقي جنة عدن الكروبيم ولهيب سيف متقلب لحراسة طريق شجرة الحياة) 3 : 23 - 24.

ويعني هذا الكلام الذي ورد في سفر التكوين أن الله وضع حراساً من الكروبيم - الملائكة على طريق شجرة الحياة الموجودة في الجنة.

ووردت بعض النصوص الأخرى في التوراة تشير إلى هذا الكروبيم حيث يفهم أنهم الملائكة ففي المزمور الثامن عشر تقول التوراة على لسان داود (في ضيقي دعوت الرب وإلى إلهي صرخت فسمع من هيكله صوتي، وصراخي قدامه دخل أذنيه، صعد دخان من أنفه ونار من فمه أكلت، جمر اشتعلت منه طأطأ السموات ونزل وضباب تحت رجليه ركب على (كروب) وطار وهف على أجنحة الرياح).

فحسب تصور التوراة أن الرب ركب على ظهر الملاك وطار بعد أن نزل من عليائه وهو يرغي ويزبد ويتصعد من أنفه دخان وتخرج من فمه نار.

وقد صرحت التوراة أحياناً بلفظ الملاك. ففي سفر التكوين: 7 : 16

يرد: (فوجدتها ملاك الرب على عين الماء في البرية فقال لها ملاك الرب ارجعي إلى مولاتك. وقال لها ملاك الرب تكثيراً أكثر نسلك).

وفي سفر التكوين الإصحاح 19: (فجاء الملاكان إلى سدوم) وفي الإصحاح 19: (ولما طلع الفجر كان الملاكان يعجلان لوطاً) وفي الإصحاح 21: (فسمع الله صوت الغلام ونادى ملاك الله هاجر من السماء).

ولم يتضح عمل الملائكة ومهامهم في التوراة. وتنكر العقيدة اليهودية على جبريل عليه السلام مهمته بإنزال الكتب السماوية على الأنبياء، ويرون أنه ملاك التدمير والهلاك وقد نزلت في القرآن الكريم آية توضح أن من كان عدواً لجبريل هو عدو لله. وقد نزلت الآية بحق اليهود الذي يُعادون الملاك جبريل.

يقول تعالى في سورة البقرة الآية 98 (قل من كان عدواً لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله مصداقاً لما بين يديه وهدى وبشرى للمؤمنين، من كان عدواً لله وملائكته ورسوله وجبريل وميكايل فإن الله عدو للكافرين).

وذكرت سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم أن اليهود سألوا نبينا صلى الله عليه وسلم عن ينزل الرسالات إلى الأنبياء فقال لهم إنه جبريل فأنكروا ذلك فنزلت الآية الكريمة بحقهم. حيث تدحض ما زعموا وما كذبوا.

ويرى اليهود أن جبريل عليه السلام هو ملاك التدمير الذي دمر سدوم وعمورة حيث كان فيهما قوم لوط وليس هو منزل الرسالات من قبل الله رب العالمين. وقد ذكرت التوراة قصة التدمير في الإصحاح 19 من سفر التكوين.

ويرد في التوراة أن موسى عندما ذهب إلى جبل حوريب ظهر له ملاك الرب تقول التوراة (وظهر له ملاك الرب بلهيب نار من وسط عليقة)⁽¹⁾.

تقول التوراة (فلما رأى الرب أنه موسى مال لينظر ناداه الله من وسط العليقة)⁽²⁾.

(1) الكتاب المقدس/خروج 3:3.

(2) الكتاب المقدس/ خروج 3:5.

ففي هذا النص يظهر ملاك الرب ولا ندري ما هو ولماذا جاء وما هي مهمته ثم يظهر لنا الرب ليكلم موسى من قلب العليقة المحروقة.

حتى عندما تتحدث التوراة عن الألواح التي كتبت فيها الشريعة اليهودية لم تنزل تعاليمها على موسى بواسطة ملاك تقول التوراة (فانصرف موسى ونزل الجبل ولوحا الشهادة في يده لوحان مكتوبان على جانبيهما، من هنا ومن هنا كانا مكتوبين واللوحان هما صنعة الله والكتابة كتابة الله منقوشة على اللوحين)⁽¹⁾.

ولا يظهر في التوراة مهمة الملائكة ولا خصائصهم فهم يظهرون بشكل غامض في ظروف خاصة.

وإذا أردنا نحن أن نستخلص مهمات الملائكة من خلال نصوص التوراة نجد أنهم ينزلون من السماء لتدمير بعض المدن ومقابلة بعض الشخصيات التي تركز عليها التوراة كهاجر أم إسماعيل ولوط وإبراهيم عليهما السلام.

ولم يرد أن الأنبياء كإبراهيم أو موسى أو داود قد تلقوا رسالات السماء بواسطة الملائكة (جبريل عليه السلام).

أما القرآن فقد أوضحت آياته في كثير منها عمل الملائكة إن كان ذلك بصيغة الجمع أو بصيغة المفرد. وقد ورد ذكر الملك والملائكة في القرآن الكريم 88 مرة ولعل إيمان المسلم لا يكون صحيحاً إلا إذا آمن بالملائكة. ونعلم جميعاً أن أركان الإيمان هي الإيمان بالله وحده لا شريك له والإيمان بملائكته والإيمان برسله والإيمان بكتبه والإيمان باليوم الآخر والإيمان بالقدر خيره وشره.

فمن آمن بالله دون الإيمان بالملائكة ليس بمؤمن وكذلك ما ينطبق على الملائكة ينطبق على كافة أنواع الإيمان.

(1) سفر الخروج الإصحاح 15/32 و17/16.

والملائكة خلق من خلق الله تعالى لا نعلم حقيقتهم ولم نرهم واعتقاد وجودهم واجب وهي من الأمور السمعية التي لا يوجبها عقل ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبر بوجودهم وجاء في القرآن الكريم والكتب السماوية أسماء بعضهم فوجب اعتقادنا بوجودهم لأنهم ذكروا بنص قاطع الثبوت والدلالة^(١).

أما مهماتهم فقد أوضحت آيات القرآن الكريم أن الملائكة خلقوا ليسبحوا الله ويقدموه (فهم عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون ولا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يُؤمرون) سورة الأنبياء الآية 26.

ويقول الله تعالى في سورة البقرة الآية 30: (قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك). فواضح أن الملائكة بشكل عام خلقوا ليسبحوا الله ويتعبدوا له ، ولبعضهم مهمات. فمهمة جبريل عليه السلام تبليغ الرسالات للأنبياء.

وقد ورد اسمه جبريل صراحة وورد باسم الروح الأمين وقد أطلق الله سبحانه وتعالى عليه الأمين في كثير من الآيات.

يقول تعالى في سورة القدر (تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر سلام هي حتى مطلع الفجر).

وقد أنزل القرآن الكريم على قلب سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم بواسطة جبريل كما أن جبريل أسرى برسول الله صلى الله عليه وسلم وعرج به إلى السماء في معجزة إلهية ليس لها نظير.

ومعروف لدى العقيدة الإسلامية والعقائد السماوية الأخرى أن الله سخر ملاكاً لقبض الأرواح وهو عزرائيل عليه السلام.

(١) عبد الوهاب النجار، قصص الأنبياء ص 46.

ويعرف المسلمون أن الله سبحانه خلق ملائكة آخرين لهم مهمات أخرى. إسرافيل ينفخ في الصور يوم القيامة. والملاك رضوان خازن الجنة والملاك مالك خازن النار. ورقيب وعتيد ملكان مكلفان بكتابة حسنات المرء وسيئاته، يقول تعالى في سورة الانفطار (إن عليكم لحافظين كراماً كاتبين يعلمون ما تفعلون) 10 - 11 - 12.

وخلق الله ملكين يستقبلان العبد الميت في قبره فيسألانه عن ربه ونبيه ودينه. وعلى النار ملائكة غلاظ شداد لا يعصون أمر الله.

ويتضح من خلال القرآن الكريم أن للملائكة عوالم خاصة بها ومهمات خاصة بها أيضاً لأنها تختلف في طبيعة خلق الله لها. وعوالم المخلوقات كما نراه في قرآننا يتشعب وينقسم إلى أقسام كثيرة فالإنسان والجن والملائكة مخلوقات عاقلة تفكر وتتحدث وإن اختلفت في طبيعة حياتها ومهماتها التي كلفها الله بها.

ولحكمة إلهية فقد خلق الله الإنسان، وخلق الجن من نار والملائكة من نور وركب في الإنسان الجسد والروح والعقل والنفس. وخلق فيه نوازع الخير والشر ليتمتحنه بينما خلق الملائكة لتسبحه وتحمده ولا تخضع لمقاييس النزعات المختلفة التي خلق الإنسان لي تجربها ويحاسب عليها.

وضع الله في الإنسان الشهوة ونزعها من الملائكة وركب في الإنسان ما لم يركبه في الجن غير أن الإنسان والجن مخلوقان ليعبدا الله ويخضعاً لمقاييس الإيمان والكفر بينما خلق الله الملائكة لتسبح له وتعبد له ولا تخضع لأي امتحان دنيوي.

أما الجن فقد أوردت آيات القرآن الكريم كثيراً عنهم كما ورد ذكرهم في التوراة.

تقول التوراة في سفر اللاويين ص 19:31 (لا تلتفتوا إلى الجان ولا تطلبوا التواب ففتنجا بهم أنا الرب إلهكم). ويرد أيضاً في سفر صموئيل الأول أن شاول طلب من جنده أن يفتشوا له عن امرأة تحضر الجن. فأحضرها له وتدعي أنها أخرجت النبي صموئيل من موته أو أحضرت روحه لشاول ليسأله ماذا يفعل بعدما ضاقت عليه السبل.

والجن خلقٌ من خلق الله لا نعلم حقيقتهم ولم نرهم قال تعالى (إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم) والاعتقاد بهم واجب، وهو من الأمور السمعية التي أخبر بها رسول الله صلى الله عليه وسلم بنص قاطع الثبوت والدلالة ولولا أن الله ذكرهم في القرآن ما علمنا بوجودهم وهم يتوالدون ويتناسلون لقوله تعالى في سورة الكهف الآية 50: (أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو) ومنهم البار والفاجر لقوله تعالى في سورة الجن الآية 4: (وأنا منا المسلمون ومنا الفاسقون) ولم يقل أحد أنهم أفضل من البشر.

وقد ذكر لفظ الجن والجان والجنة 32 مرة في إحدى وثلاثين آية من القرآن الكريم.

وليس للجن سلطان على الإنسان، ومن يستعن بالجن فإنه استعان بغير الله وهذا إشراك بالخالق رب العالمين. وقد فصلت سورة الجن طبيعته وعمله وحدود معرفته.

وسنتعرض لدراسة الجن والملائكة في الجزء الثاني من هذا الكتاب كونه يتعرض للعقيدة والإيمان بالله والملائكة والكتب السماوية وبالיום الآخر وبالقدر خيره وشره.

وقد اكتفينا هنا بهذه الإشارات التي تتعرض لمسألة خلق الملائكة والجن فحسب.

الفصل الثاني

من آدم (ع) إلى انتهاء الطوفان

آدم الإنسان الأول

تحدثت التوراة عن آدم باعتباره أول مخلوق خلقه الله على الشكل الذي نعرفه وقد ذكرته في الإصحاحين الثاني والثالث في سفر التكوين. ماذا قالت التوراة عن آدم؟.

(وقال الله نعمل الإنسان على صورتنا كشبهنا، فخلق الله الإنسان على صورته على صورة الله خلقه ذكر وأنثى خلقهم) التكوين: 1 : 26 - 27.

ثم يرد في التكوين 7/2 - 8: (وجبل الرب الإله آدم من الأرض ونفخ في أنفه نسمة حياة فصار آدم نفساً حية. وغرس الرب الإله آدم ووضع هناك آدم الذي جبله).

ويرد في السفر نفسه 2: 15 - 25: (وأخذ الرب الإله آدم ووضع في جنة عدن ليعملها ويحفظها وأوصى الرب الإله آدم قائلاً من جميع شجر الجنة تأكل أكلاً أما شجرة معرفة الخير والشر فلا تأكل منها لأنك يوم تأكل منها موتاً تموت، وقال الرب الإله ليس جيداً أن يكون آدم وحده فأصنع له معيناً نظيره. وجبل الرب الإله من الأرض كل حيوانات البرية وكل طيور السماء فأحضرها إلى آدم ليرى ماذا يدعوها وكل ما دعا به آدم ذات نفس حية فهو اسمها فدعا آدم بأسماء جميع البهائم وطيور السماء وجميع حيوانات البرية وأما لنفسه فلم يجد معيناً نظيره، فأوقع الرب عليه سباتاً فأخذ واحدة من

أضلاعه وملاً مكانها لحما وبنى الإله الرب الضلع التي أخذها من آدم امرأة، وأحضرها إلى آدم فقال آدم هذه عظم من عظمي ولحم من لحمي. وكانا كلاهما عريانين آدم وامرأته وهما لا يخرجان).

وفي الإصحاح 3: 4 - 24: (فقال الرب للمرأة لن تموتا بل الله عالم أنه يوم تأكلان منه تنفتح أعينكم وتكونان كالله عارفين الخير والشر. فأخذت من ثمرها وأكلت وأعطت زوجها أيضا فانفتحت أعينهما وعلمتا أنهما عريانان فحاطا أوراق تين وصنعا لأنفسهما مآزر).

(وسمعا صوت الرب الإله ماشيا في الجنة عند هبوب ريح النهار فاختربا آدم وامرأته من وجه الرب الإله في وسط شجر الجنة، فنادى الرب الإله وقال أين أنت فقال سمعت صوتك في الجنة فخشيت لأنني عريان فاخترت فقال من أعلمك أنك عريان، هل أكلت من الشجرة التي أوصيتك أن لا تأكل منها).

(فأخرجه الرب الإله من جنة عدن ليعمل في الأرض التي أخذ منها فطرده الإنسان وأقام شرقي جنة عدن الكروبيم ولهيب سيف متقلب لحراسة طريق شجرة الحياة).

إلى هنا تتوقف التوراة عند قصة خلق آدم بهبوطه إلى الأرض ليبدأ الإصحاح الرابع حيث يعرف آدم حواء فتحبل.. الخ.

أما في القرآن فقد ذكر اسم آدم خمسا وعشرين مرة في خمس وعشرين آية.

يقول تعالى في سورة البقرة الآية 30: (وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إني أعلم ما لا تعلمون).

ويقول تعالى في سورة الأعراف الآية 11: (ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس لم يكن الساجدين).

ويقول تعالى في سورة الحجر 26 - 27 - 28 - 29 - 30 - 31 : (ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمأ مسنون. والجان خلقناه من قبل من نار السموم، وإذ قال ربك للملائكة إني خالق بشراً من صلصال من حمأ مسنون، فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين فسجد الملائكة كلهم أجمعون، إلا إبليس أبى أن يكون من الساجدين).

ويقول تعالى في سورة ص 17 - 74 : (وإذ قال ربك للملائكة إني خالق بشراً من طين، فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين، فسجد الملائكة كلهم أجمعون إلا إبليس استكبر وكان من الكافرين).

ويقول تعالى في سورة البقرة الآية 34 : (وإذا قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين).

ويقول تعالى في سورة الكهف الآية 50 : (وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلاً).

ويقول تعالى في سورة الإسراء من 61 - 65 : (إذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس قال أسجد لمن خلقت طيناً. قال أأرأيتك هذا الذي كرمت علي لئن آخرتن إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته إلا قليلاً. قال اذهب فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم جزاءً موفوراً، واستفز من استطعت منهم بصوتك وأجلب عليهم بخيلك ورجلك وشاركهم في الأموال والأولاد وعدهم وما يعدهم الشيطان إلا غروراً. إن عبادي ليس لك عليهم سلطان وكفى بربك وكيلًا).

ويقول تعالى في سورة الأعراف من 12 حتى 18 : (قال ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك. قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين. قال فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها فاخرج إنك من الصاغرين. قال أنظرنني إلى يوم يبعثون. قال إنك من المنظرين قال فيما أغويتني لأقعدن لهم صراتك المستقيم ثم

لأتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وشمالهم ولا تجد أكثرهم شاكرين. قال اخرج منها مزموا مدحوراً لمن تبعك منهم لأملأن جهنم منكم أجمعين).

ويقول تعالى في سورة الحجر من 31 حتى 43: (قال يا إبليس مالك ألا تكون مع الساجدين قال لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمأ مسنون. قال فاخرج منها فإنك رجيم. وإن عليك اللعنة إلى يوم الدين. قال رب فأنظرنني إلى يوم يبعثون. قال فإنك من المنظرين. إلى يوم الوقت المعلوم. قال رب بما أغويتني لأزينن لهم في الأرض ولأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين. قال هذا صراط علي مستقيم إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين. وإن جهنم لموعدهم أجمعين).

وقال تعالى في سورة ص من 75 - 76: (قال يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي استكبرت أم كنت من العالين. قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين).

وقال تعالى: (وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين. قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم. قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبذرون وما كنتم تكتمون) البقرة - 31 - 33.

ويقول تعالى في سورة البقرة 35 - 38: (وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغدا حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين. فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين. فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم. قلنا اهبطوا منها جميعا فإما يأتينكم مني هدى فمن تبع

هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون).

وقال تعالى: (ويا آدم اسكن أنت زوجك الجنة فكلا من حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين. فوسوس لهما الشيطان ليبيدي لهما ما ووري عنهما من سوءاتهما وقال ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين. وقاسمهما إني لكما من الناصحين فدلها بغيرور فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين. قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين. قال اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين قال فيهما تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون). الأعراف - 19 - 25.

وقال تعالى: (ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسى ولم نجد له عزماً. وإذا قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى فقلنا يا آدم إن هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى. فوسوس إليه الشيطان قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى فأكلا منها فبدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة وعصى آدم ربه فغوى ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى. قال اهبطا منها جميعاً بعضكم لبعض عدو فأما يأتينكم مني هدى فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى). طه 115 - 123.

فمن خلال ما ورد في سفر التكوين التوراتي وما ورد في القرآن الكريم نستطيع أن نقارن مسألة بمسألة ونقف عند كل محطتين متشابهتين لنذكر الفروق بين حقيقة الواقع القرآني وبين ما جاءت بها التوراة.

1 - المسألة الأولى: سبب خلق آدم، وتتضمن فكرة خلقه من قبل رب العالمين.

2 - المسألة الثانية: طبيعة خلق آدم وتركيبته ونفخ الله نسمة الحياة.

- 3 - المسألة الثالثة: أمر الله للملائكة بالسجود لآدم ورفض إبليس أمر الله.
- 4 - المسألة الرابعة: نهي الله لآدم بالأ يتبع الشيطان وألا يأكل من الشجرة المحرمة.
- 5 - المسألة الخامسة: الجنة وسكن آدم وحواء فيها.
- 6 - المسألة السادسة: مخالفة آدم أمر ربه وقصة الخطيئة والهبوط إلى الأرض واستغفاره.
- 7 - المسألة السابعة: ما يتعلق بتعليم آدم الأسماء وبعض القضايا الجانبية.
- 8 - المسألة الثامنة: لماذا آدم نبي؟ وليس إنساناً عادياً؟.

المسألة الأولى: فكرة خلق آدم. سبب خلقه.

بالمقارنة بين ما ورد في التوراة وما في القرآن الكريم نجد أن الرب حسب النص التوراتي يخلق سلسلة من الأشياء في أيام ستة وفي اليوم السادس ذاته يخلق آدم. أما لماذا خلقه فيتضح أن خلق الكون من سموات وأرض ونبات وحيوان ومن ثم خلق آدم تسير جميعها ضمن سلم المخلوقات التي صنعها الله. وآدم خلق ليثمر ويكثر ويملاً الأرض ويخضع حيواناتها وطيورها وبحرها لإرادته.

أما في القرآن الكريم فهناك مخلوقات أخرى، هناك ملائكة وهناك جن خلقهم الله قبل خلق آدم. الملائكة مخلوقات نورانية والجن مخلوقات نارية وإرادة الله اقتضت أن يخلق العنصر الثالث (وهو الإنسان) من تراب.

في النص التوراتي ندرك أن خلق الإنسان من قبل ربه تم بإرادة غامضة دون أن يظهر المغزى أو العبرة من هذا الخلق.

وإذا راجعنا الحوار الذي جرى بين الله سبحانه وبين ملائكته وإبليس في

القرآن الكريم نجد أن هناك غاية من خلق آدم. قال تعالى (إني جاعل في الأرض خليفة) فالأرض التي مهدها الله وأحيا فيها كل ما يجعل الإنسان يعيش فيها أو يحيا أصبحت جاهزة ليوكل الله تعميرها لمخلوق ركبه من الخير والشر.

قالت الملائكة: (أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إني أعلم ما لاتعلمون).

فهذا الحوار شاهد للإنسان العاقل، المقصود منه تبصير بني البشر بأن ما يعلمه رب العالمين لا يعلمه أحد. فخلقه للإنسان ليس بلا غاية وبلا هدف بل هو لهدف ولغاية يقصر علم الملائكة وغيرهم عن إدراك قصد الله.

وفي الحوار الذي يدور بين الله سبحانه وإبليس يوضح أيضاً مسألة هامة وهي أن الله سبحانه وتعالى خلق مخلوقاته لتحاو وتختار. وبعد أن يوضح الله سبحانه طريق الصواب وجزاءه وطريق الخطأ وجزاءه يرفض إبليس إطاعة أمر ربه، والله قادر على أن يجعل إبليس ينفذ أوامره لكن العبرة من اتخاذ الشيطان طريق الرفض والعناد هو منح الإنسان فرصة للتفكير في عاقبة رفض أوامر الله. ثم إن العبرة أيضاً تكمن في تعريف الله لبني البشر أن الشر والخير نقيضان متناقضان خلقهما الله تعالى متمثلين بإبليس رأس الشر وبالملائكة رأس الخير وسيبقى الصراع بينهما طالما هناك بشر على وجه الأرض ولو أن الشر غير موجود لما وجد الامتحان. ووجود الإنسان على ظهر الأرض وجود خاضع للامتحان إلى يوم القيامة.

وقد بين الله سبحانه في الكثير من الآيات أن هذه الدنيا دار فناء وامتحان والآخرة دار بقاء وخلود.

إذاً الفرق واضح بين غاية الله في خلقه للإنسان في التوراة وفي القرآن. فهناك غايته تعمير الأرض وإخضاع الحيوان والنبات لرغباته. بينما في القرآن الكريم فالغاية تعمير الأرض أولاً. ثم محاربة طاغوت الشيطان ثانياً والاستعداد

للانتقال إلى يوم آخر هو يوم الحساب.

فأين الشيطان في التوراة، أين الغاية من استعداد الإنسان ليستقبل يوم الآخرة؟ أين الصراع بين الخير والشر أين الامتحان؟ فالشيطان متمثل في الحياة فحسب، وهي رمزه وعلامته.

ولو اقتصر هدف الله في خلق آدم تعمير الأرض دون أي هدف آخر لانتفى الامتحان ولانتفت القيامة والجزاء والعقاب.

وتعمير الأرض لا يتم إلا بمشقة وعناء وصراع. فهناك من يريد خراب الأرض ولا تعميرها والتعمير ليس تعميراً مادياً فحسب إنما هناك تعمير معنوي عقلي نفسي وسلوكي. والشيطان الذي يمثل رأس الشر سيكون ضد تعمير الأرض، بمعنى أنه سيحاول منع التعمير المعنوي والنفسي والسلوكي لأن أي انحراف سلوكي هو تخريب وليس تعميراً وعندما يقول تعالى (إني جاعل في الأرض خليفة) فالمقصود أن يكون الإنسان خليفة الله في الأرض يسعى لتعميرها مادياً ومعنوياً حسب ما يرضى الله وحسب ما يكره الشيطان.

وكم من الآيات حثت الإنسان على ألا يعيث فساداً في الأرض، فلو عمر الإنسان هذه الأرض بكافة المعالم الحضارية المادية دون أن يقيم صرح التعمير المعنوي فإنه يعيث فساداً. والبناء بناء النفوس والأرواح والعقول وليس بناء الحجارة والصروح المادية فحسب.

يقول تعالى في سورة البقرة الآية 36: (وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين).

ويقول تعالى: (وهو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور) الملك: 15.

ويقول تعالى في سورة الأعراف الآية 56: (ولا تفسدوا في الأرض بعد

إصلاحها وادعوه خوفاً وطمعا إن رحمة الله قريب من المحسنين).

المسألة الثانية: خلق آدم من تراب:

أوردت التوراة في النص الإلهيمي أي في الرواية الثانية لخلق الكون قولها: (وجبل الرب الإله آدم تراباً من الأرض ونفخ في أنفه نسمة حياة فصار آدم نفساً حية)، بينما يخلو النص الأول من قصة خلق آدم من تراب.

ويرد في القرآن الكريم قوله تعالى: (ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمأ مسنون).

وقوله تعالى: (إذ قال ربك للملائكة إني خالق بشراً من طين) سورة ص الآية: 71.

وقوله تعالى في سورة الرحمن الآية 14 والآية 15: (خلق الإنسان من صلصال كالفخار وخلق الجن من مارج من نار).

فنرى أن أصل مادة خلق الله الأولى هي التراب في التوراة والقرآن غير أن القرآن الكريم يورد مادة خلق آدم في سياق النص الذي يقارن خلقه بخلق الجن من مارج من نار. والشيطان باعتباره من الجن كما نص عليه القرآن الكريم في سورة الكهف وباعتباره الطرف الآخر النقيض للإنسان أوردته الآيات القرآنية لتصل إلى المقصد من خلق الله الإنسان من طين أو من صلصال.

وفي القرآن تفصيل لطبيعة هذا التراب وهذا التفصيل ليس موجوداً في التوراة فالله سبحانه (سوى آدم من طين من حمأ مسنون - فتغير حتى إذا صار ذلك الطين صلصالاً كالفخار نفخ فيه من روحه فإذا هو إنسان حي من لحم ودم

وعظم وعصب يتحرك بإرادته ويدرك⁽¹⁾ وقد احتج الشيطان على أمر الله له بالسجود لأنه اعتقد أن طبيعة خلقه من نار هي خير من طبيعة خلق آدم.

وعندما تركز بعض الآيات القرآنية على خلق آدم من صلصال كالفخار وعلى خلق الجان من مارح من نار فإن ذلك لم يكن عبثاً. لأن هذا التركيز يفتح أمام الإنسان باب التساؤل هل النار أفضل من الطين حتى يظن إبليس أنه أفضل من آدم؟ ثم لماذا خلق الله الإنسان من تراب ولم يخلقه من شيء آخر؟.

فما نفتقده في التوراة نجده في القرآن الكريم. ليس هناك مقارنة بين الطين والنار لأنه ليس هناك مقارنة بين الشيطان و آدم، أي بين تمام الشر وبين نقيضه.

والشيطان الذي احتج على الله لا يعرف أن هذا المخلوق من طين قد أودعه الله من الأسرار ما يعجز عنه إبليس نفسه. (عناية الله إذا وجهت إلى الشيء الحقيق خلعت عليه حلل البهاء والجلال وصار عظيماً كما توجهت عنايته تعالى إلى التراب الذي جبل منه آدم فصيرته بشراً سوياً وجعلته مظهراً لأسرار قدرته وحكمته وعلمه الواسع فأفاض عليه من العلم والمعرفة ما أقر الملائكة بالعجز عن إدراكه)⁽²⁾.

لقد خلق الله سبحانه الجان من نار وخلق الملائكة من نور وخلق الإنسان من تراب وعلى مستوى العقل البشري فإن النور والنار أقوى مزية وأفضل من التراب. لكن الله سبحانه نفخ في هذا التراب من روحه فإذا هو إنسان فيه عقل وفيه وجدان وإحساس وضمير وعاطفة وإيمان وكفر وهذه التي تمتع بها الإنسان لم يتمتع بها الملائكة ولا تمتع بها إبليس، فالتراب الذي هو أدنى مزية من النار أو النور يصبح الأفضل إذا نفخ فيه الله من روحه ومنحه العقل والتفكير.

(1) عبد الوهاب النجار، قصص الأنبياء ص 26.

(2) عبد الوهاب النجار، قصص الأنبياء ص 26.

لقد تنزه الملائكة عن الشر لما جبلهم الله عليه من تسبيحه وإبداء الحمد والشكر له. وابتعد الشيطان عن الخير فأصبح شرا بذاته غير أن الإنسان حوى بقدرة الخالق خير الملائكة إن هو اتبع طريق الله وحوى شر الشيطان إن هو اتبع طريق الضلال.

لا الملائكة خلقوا ليحملوا النقيضين - الشر والخير - ولا الشيطان بقادر ليحمل إلى جانب الشر خيرا يناقض به ذاته. ومقياس شرية الشيطان لا تنطبق على جميع الجن، إنما تنطبق على صنف إبليس وحده.

وهذا التراب الذي صيره الله إنسانا عاقلا خلق من مادة قابلة لعطاء النور وقابلة أيضا لحمل الشر وهنا تكمن معجزة الله. الإنسان بتقواه وتقربه الخالص إلى الله سيجعله يتفوق على الملائكة وبكفره وفساده سيكون أحط من الشيطان الذي هو شر خالص، وعندما يقول تعالى ونفخنا فيه من روحنا فإن ذلك يعني أن هذا الإنسان المخلوق من تراب حمل في ذاته نفحة ربانية تتمثل إذا تمكنت من الجسد بالقرب من الخالق وتطويع المادة الترابية لانبعاث النور وطرده الشر.

والمسألة الثالثة هي أمر الله ملائكته وإبليس بالسجود لآدم. لقد قال تعالى فإذا نفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين، فالأمر بالسجود لآدم سبق خلق آدم نفسه أما السجود كواقعة فقد حدثت بعدما أتم الله خلق آدم إنسانا فيه روح. والسجود هنا كما أشار العلماء ليس سجود عبادة إنما سجود تكريم لأن الله لا يأمر أحدا أن يتوجه بالعبادة إلى سواه⁽¹⁾.

أما التوراة فإنها تخلو من قصة السجود مطلقا لأنه لا وجود لإبليس. ولا وجود للملائكة عندهم في هذه الحادثة.

أما قوله تعالى: (أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح

(1) عبد الوهاب النجار، قصص الأنبياء ص 26.

بحمدك ونقدس لك قال إني أعلم ما لا تعلمون).

فيشير إلى تساؤل الملائكة كيف يا رب تخلق في الأرض من يسفك الدماء ويفسد. فما الذي عرف الملائكة أن الذي سيخلقه الله ويجعله في الأرض سيكون سافك دماء ومفسدا فيها؟.

قال العلماء والمؤرخون العرب في ذلك عدة أقوال:

فقد ورد في كتاب في التاريخ لابن الأثير قوله: (روي عن ابن عباس وابن مسعود أن إبليس كان له ملك سماء الدنيا وكان من قبيلة يقال لهم الجن وإنما سموا الجن لأنهم خزان الجنة وكان إبليس مع ملكه خازنا، قال ابن عباس ثم إنه عصى الله تعالى فمسخه شيطانا رجيمًا فأول من سكن في الأرض الجن فاقتتلوا فيها وسفكوا الدماء وقتل بعضهم بعضا قال فبعث الله تعالى إليهم إبليس في جند من الملائكة وهم هذا الحي الذي يقال لهم الجن فقاتلهم إبليس ومن معه حتى ألحقهم بجزائر البحور وأطراف الجبال فلما فعل ذلك اغتر في نفسه وقال قد صنعت ما لم يصنعه أحد فاطلع الله تعالى على ذلك من قلبه ولم يطلع عليه أحد من الملائكة الذين معه. وقال شهر بن حوشب إن إبليس كان من الجن الذين سكنوا الأرض وطردتهم الملائكة. وأسره بعض الملائكة فذهب به إلى السماء⁽¹⁾. هناك احتمال أن تكون الملائكة عرفت إمكانية إفساد الإنسان من خلال لفظة خليفة. ومن معانيها الحاكم الذي يحكم بين الناس. وما دام هناك حكم وحاكم فهناك ظالم ومظلوم.

وروي عن ابن عباس أن الملائكة قالت ذلك للذي كانوا عهدوا من أمره أتجعل فيها من يكون مثل الجن الذين كانوا يسفكون الدماء فيها ويفسدون ويعصونك ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك⁽²⁾ وترى التوراة أن الحية هي التي

(1) ابن الأثير الكامل في التاريخ ص 25 - 26.

(2) ابن الأثير الكامل في التاريخ ص 27.

أغوت حواء لتأكل من شجرة الجنة المحرمة. ولا تورث أي ذكر لإبليس.

تقول التوراة: وكانت الحية أحيى جميع حيوانات البرية التي عملها الرب الإله فقالت للمرأة أحقا قال الله لا تأكلا من كل شجر الجنة فقالت المرأة للحية من ثمر الجنة نأكل وأما ثمر الشجرة التي في وسط الجنة فقال الله لا تأكلا منه ولا تمسأه لئلا تموتا فقالت الحية للمرأة لن تموتا بل الله عالم أنه يوم تأكلان منه تنفتح أعينكما وتكونان كالله عارفين للخير والشر⁽¹⁾ وهنا يجدر بالمرء أن يسأل مجموعة من الأسئلة حول ما قالته التوراة.

أولا: الحية أحيى جميع حيوانات البرية، فهل في الجنة برية وفيها حيوانات أخرى؟ وهل عمل الإله الرب الحيوانات في الجنة أم في الأرض؟.

ثانيا: لو افترضنا أن الجنة حوت حيوانات كثيرة ومنها الحية فهل الحيوانات تنطق أو تعقل.

ثالثا: هل الحية تعلم غيب الله الذي خبأه عن آدم وكيف؟

رابعا: لو كانت الحية تعلم حقا أن الأكل من الثمرة المحرمة يجعل آكلها عارفا للخير والشر فلماذا لا تأكل الحية نفسها حتى تصبح كالله عارفة الخير والشر؟

هذه المسائل تجعلنا نرفض مقولة التوراة لأن ذلك مخالف للمنطق وللعقل ولا يرتبط لا من بعيد ولا من قريب بمسألة الصراع بين الخير والشر اللذين يمثل أحد طرفيهما الشيطان.

أما في القرآن الكريم فتقول الآيات الكريمة:

(إلا إبليس أبى أن يكون من الساجدين) الحجر 31، (إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين) البقرة 34.

(1) التوراة سفر التكوين الإصحاح الثالث من 1 - 6.

وفي الكهف: (فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه).

وفي الأعراف: (إلا إبليس لم يكن من الساجدين).

وفي سورة الأعراف قال: (فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها فاخرج إنك من الصاغرين قال أنظرنني إلى يوم يبعثون قال إنك من المنظرين).

ففي الآيات الكريمة عدة تنبيهاً نتوقف عندها.

أولها: أن إبليس لم يسجد ورفض أمر الله سبحانه فلعنه وأمره بالخروج من الجنة.

ثانيها: أن إبليس طلب من الله أن ينظره فأنظره إلى يوم يبعث البشر بعد موتهم.

ثالثها: إذا كان الله قد طرد إبليس من الجنة فكيف رجع إليها ووسوس لآدم وزوجته وأغواهما وأضلهما؟

وقد حذر الله آدم وزوجته من الشيطان وصرحت الآيات الكريمة أن الشيطان عدو لكما فلا تتبعاه.

ذكر ابن الأثير في كتابه الكامل (فلما أسكن الله آدم وزوجته الجنة أطلق لهما أن يأكلا كل ما أرادا من كل ثمارها غير ثمرة شجرة واحدة ابتلاء منه لهما وليمضي قضاؤه فيهما وفي ذريتهما فوسوس لهما الشيطان وكان سبب وصوله إليهما أنه أراد دخول الجنة فمنعته الخزنة (الملائكة) فأتى كل دابة من دواب الأرض وعرض نفسه عليها أن تحمله حتى يدخل الجنة ليكلم آدم وزوجته فكل الدواب أوى عليه حتى أتى الحية وقال لها أمنعك من ابن آدم فأنت في ذمتي إن أنت أدخلتني فجعلته بين نابيين من أنيابها ثم دخلت به وكانت ماشية على أربع قوائم من أحسن دابة خلقها الله فأعراها الله وجعلها تمشي على بطنها.. فلما دخلت الحية الجنة خرج إبليس من فيها، ففاح عليهما

نياحة أحزنتهما حين سماعها فقالا له ما يبكيك قال أبكى عليكما تموتان فتفارقان ما أنتما فيه من النعمة والكرامة فوقع ذلك في نفسيهما ثم أتاهما فوسوس لهما وقال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى... الخ⁽¹⁾.

فابن الأثير وضع الخبر دون إرجاعه إلى سند يثبت هذا الكلام. فلو كان الكلام مسندا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لسلمنا به لكنه لم يسنده فهو خبر قابل للتصديق وغير خال من الشك أو التكذيب.

والذي نفهمه من سياق الآيات الكريمة أن إبليس قد طرد من الجنة وأن الله حذر آدم وحواء منه، لكنه وسوس لهما. والوسواس هو الحديث المخفي الأشبه بالهمس داخل النفس فليس شرطا أن يكون إبليس قد دخل الجنة بهيئته من خلال الحية إنما الذي تقترب منه أنه وسوس في نفس حواء وآدم وسواسا من بعيد. ولا يصح أصلا أن يدخل إبليس الجنة وقد غضب الله عليه وأخرجه منها. ولا يتجرأ إبليس أن يخالف أمر ربه مرة أخرى لأنه يعرف عقاب من يخالف أمر الخالق. وتحذير الله لآدم وحواء من إبليس هو تحذير من وسوسته وإغوائه. وطالما أن إبليس مخلوق من نار وقد منحه الله ما طلب من حيث إفساده في الأرض وبين الناس، فكان أول عمل قام به إفساد عقل آدم وحواء وإغواءهما، وبذلك اعتبر آدم أول ضحية من ضحايا إبليس.

غير أنه لا يغيب عن ذهننا أن الله سبحانه جعل هبوط آدم من الجنة لأسباب توجب ذلك وكفي يتم امتحان آدم وزوجته وهبوطهما إلى الأرض واستخلاف الإنسان فيها كما أراد الله بعلمه السابق جاءت قصة الخلق ثم سجود الملائكة لآدم ورفض إبليس ثم استطاعه إبليس على إغواء آدم وزوجته وهبوطهما إلى الأرض بسبب عصيانهما لأمر الله سبحانه وتعالى.

وحتى يكون الدرس واضحا لبني البشر فقد تسلسلت الأحداث

(1) ابن الأثير الكامل في التاريخ صفحة 33.

والحوارات تسلسلا منطقيًا يستوعبه العقل ولا يخالفه.

قد يقول قائل إذا كان الله سبحانه قد خلق آدم وحواء في الجنة ليعيشا فيها بأمان فلماذا غضب عليهما ثم أنزلهما من الجنة إلى الأرض؟ أليس في ذلك ظلم لبني البشر؟.

وللرد نقول إن الله سبحانه قال: (إني جاعل في الأرض خليفة). فالله خلق الإنسان ليكون في الأرض يعمرها ويستخلفه فيها أما مسألة وجوده في الجنة ثم عصيانه لأمر ربه وهبوطه إلى الأرض فهذه كلها تشكل الدرس الأول لبني البشر حيث تعلمهم أن أي إنسان سيتعرض للامتحان والصراع مع الشيطان. فإن تغلب عليه كان الرابع في دنياه وآخرته وإن غلبه الشيطان فإن مصيره سيكون مصير من غضب الله عليه وهذا الدرس ليس القصد منه ظلم بني البشر. لقد ركب الله الإنسان تركيبًا عجيبيًا حيث وضع فيه العقل الذي يميز وعلمه ما هو الخير وما هو الشر وحذره من الشيطان وعاقبة من يتبعه، فالإنسان الأول - آدم - اختار بملء إرادته طريقه، ولو أن الله سبحانه أراد له أن يكون صالحًا دون التعرض للصراع مع الشر لما كان هناك سبب لخلقه وامتحانه ومحاسبته حسب أعماله.

أما الشجرة المحرمة فقد ذكرتها التوراة بالنص التالي (فرأت المرأة أن الشجرة جيدة للأكل وأنها بهجة للعيون وأن الشجرة شهية للنظر فأخذت من ثمرها وأكلت وأعطت زوجها أيضًا معها فأكل فانفتحت أعينهما وعلمتا أنهما عريانان).

وقال الرب الإله هو ذا الإنسان قد صار كواحد منا عارفاً الخير والشر والآن لعله يمد يده ويأخذ من شجرة الحياة أيضًا ويأكل ويحيا إلى الأبد فأخرجه الرب الإله من جنة عدن ليعمل الأرض التي أخذ منها.

فواضح من النصوص التوراتية أن في الجنة شجرتين. شجرة معرفة الخير

والشر وشجرة الخلود، والسياق التوراتي يدل بشكل أو بآخر على أن الله حينما يقول لعله يمد يده.. فإنه يدل على أن الله يخمن أو يظن وهذه ليست من صفات الله الذي يعلم ما يخفى وما يسر في النفوس.

لقد غاب عن التوراة تماما أن الله خلق الإنسان ليكون في الأرض يعيش ثم يموت ثم يبعث يوم الحساب.

يقول تعالى: (ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين).

وقال تعالى: (فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوءاتهما...).

واضح من خلال النصوص القرآنية أن هناك شجرة واحدة في الجنة هي شجرة المعرفة حيث أن آدم وامرأته لما أكلا منها عرفا أنهما عريانان.

أما أن هناك شجرة الخلد فهذا ما قاله الشيطان في وسوسته لآدم. هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى. ولو أنها فعلا شجرة الخلد لعاش آدم وخلد هو وزوجته لأنه أكل منها. إنما أراد الشيطان أن يزين لآدم قيمة هذه الشجرة ومكانتها ليغريه بها ويطمع بما ليس له به علم.

وفي هذا السياق نود أن نشير إلى أن التوراة جعلت الحية تفتن حواء وحواء تفتن زوجها آدم، بمعنى أن حواء هي التي أغوت آدم ولذلك حملتها التوراة الخطيئة الأولى، وقد قالت التوراة بصدد ذلك:

(فقال من أعلمك أنك عريان: هل أكلت من الشجرة التي أوصيتك أن لا تأكل منها. فقال آدم المرأة التي جعلتها معي هي أعطتني من الشجرة فأكلت. فقال الرب الإله للمرأة ما هذا الذي فعلت فقالت المرأة الحية غرتني فأكلت فقال الرب الإله للحية لأنك فعلت هذا ملعونة أنت من جميع البهائم ومن جميع وحوش البرية، على بطنك تسعين وترابا تأكلين كل أيام حياتك... وقال للمرأة تكثيرا أكثر أتعاب حبلك وبالوجع تلدين أولادك.. وقال لآدم لأنك

سمعت لقول امرأتك وأكلت من الشجرة التي أوصيتك... ملعونة الأرض بسببك، بالتعب تأكل منها كل أيام حياتك).

بينما لو توقعنا مع آيات الكتاب الكريم نرى أن لا وجود لتحمل امرأة آدم وزر الخطيئة.

يقول تعالى في سورة طه الآية 120: (فوسوس إليه الشيطان قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى).

وقال تعالى في سورة الأعراف الآية 20 - 21: (فوسوس لهما الشيطان ليبيدي لهما ما ووري من سوءاتهما فقال ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين).

فمن خلال ما تقدم نرى أن الشيطان وسوس لآدم فأزله وأزل زوجته ولم يرد أن المرأة هي التي أغوت آدم بعد أن أغوتها الحية كما قالت التوراة.

ونعود لدراسة نتائج هذه الخطيئة التي ارتكبها آدم وزوجته لنرى ما قالته التوراة وما يقوله القرآن الكريم.

1 - في التوراة لعن الرب الإله الحية من بين جميع البهائم ومن جميع وحوش البرية، وجعلها تحيا سعيا على بطنها دون أرجل وتأكل التراب طوال حياتها.

2 - كون المرأة لتتعب في حملها ولا تلد إلا بالوجع.

3 - أما آدم فقد لعن الرب الإله الأرض بسببه، وبالتعب يأكل كل أيام حياته.

أما في القرآن فليس هناك أي وجود للحية.

وليس هناك حديث عن زوجة آدم وكيف تحبل أو تلد.

وليس هناك لعنة من الله على الأرض بسبب خطيئة آدم.

(1) فلعنة الله التي لعن بها الحية غير مقبولة لأنها لو كانت فعلا ملعونة لما اختارها الله لتكون عصا موسى التي لقت كل مافعله السحرة، وكان الله قد اختار حيوانا آخر غيرها. ثم إن الله سبحانه حرم أكل لحم الخنزير بالنص الحرفي أفليس أولى أن تكون اللعنة عليه وليس على الحية، ثم إن الله سبحانه لم يلعن مخلوقا من مخلوقاته سوى الشيطان الذي رفض أمر ربه. ومعلوم أن الشيطان ليس حيوانا أو وحشا من وحوش البرية إنما هو مخلوق عاقل من نار يحاور ويفكر ويرفض.

(2) ثم إن الحية لايتوقف أكلها على التراب، فهي تسكن في الشتاء ويقال إنها تأكل التراب طوال فصل الشتاء لكنها في الربيع والصيف ومعظم الخريف تأكل فئران البرية والضفادع والحشرات الأخرى والعصافير الصغيرة وكثير من الشعوب يقصد الحية بل إن كثيرا من البشر يروضونها ويربونها لاسيما في تايلاند والهند وغيرهما وقد رأينا وسمعنا كيف أن بعض فرق السيرك تدرب الثعابين على فعل أشياء تدهش الإنسان، دون أن تؤذيه.

ثم إن هناك حيات تعيش في البحر وهي سامة وقاتلة لكنها تسبح في جوف الماء ولا تسعى على بطنها ولا تأكل التراب بل تسبح سباحة وتأكل صغار الأسماك وما شابهها.

ثم إن الحية ليست الوحيدة التي إذا لدغت الإنسان بسمها تؤذيه أو تقتله فهناك العقرب وهو أشد فتكا إذ سم الإنسان وهناك العنكبوت الأسود السام وغير ذلك من الحشرات والوحوش.

وينتهي الإصحاح الثالث في التوراة عند قولها: فطرد الإنسان وأقام شرقي جنة عدن الكروبيم ولهيب سيف متقلب... الخ.

وعند هذا الحد نرى أن آدم وحواء طردا من الجنة إلى الأرض وراحا يعملان فيها وينجبان الأولاد بينما في القرآن الكريم لا تتوقف الأمور عند هذا الحد. فآدم الذي اخطأ لم يقطع صلته بخالقه وعلى الرغم من طرده من الجنة فقد أدرك أن خطأه هو السبب في الخروج من دار النعيم إلى دار التعب، وعلى الرغم من ذلك أيضا أدرك أنه لو تخلى عن ربه فلن يكون خليفة الله في أرضه ولن يعمرها.

وحواء التي ظلمتها التوراة وجعلتها سبب الخطيئة نراها في القرآن الكريم تشارك آدم استغفار الله والاعتراف بالذنب.

يقول تعالى في سورة الأعراف الآية 23: (قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين).

ويقول تعالى في سورة البقرة الآية 37: (فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم).

ويقول تعالى في سورة طه الآية 122: (ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدي).

أما في قصة تعليم الله آدم الأسماء فلا نجد كثير خلاف بين ما ورد في التوراة وما ورد في القرآن الكريم. والخلاف المهم هنا هو أن الله سبحانه أراد أن يبرهن للملائكة أنهم عاجزون أمام آدم الذي خلقه والذي كان مثار تساؤل من قبل الملائكة عن كيفية خلق من سيفسد في الأرض ويسفك الدماء فيها.

ترى التوراة أن الله علم آدم أسماء الأشياء التي سيستعملها ويتعرف عليها لأنها ترتبط بشؤون حياته. بينما يرى القرآن أن السبب في ذلك هو إظهار الله لعجز الملائكة أمام ما خلق الله.

تقول التوراة: (وجبل الرب الإله من الأرض كل حيوانات البرية وكل طيور السماء فأحضرها إلى آدم ليرى ماذا يدعوها. وكل ما دعا به آدم ذات نفس

حية فهو اسمها فدعا آدم بأسماء جميع البهائم وطيور السماء وجميع حيوانات البرية وأما لنفسه فلم يجد معينا نظيره).

أما بالنسبة لما ورد في القرآن الكريم فقد اختلف العلماء في الأسماء فقال الضحاك عن ابن عباس، علمه الأسماء كلها التي تتعارف بها الناس: إنسان ودابة وأرض وسهل وجبل وفرس وحمار وأشباه ذلك.

وروي عن الحسن وقتاده أنهما قالا لما أعلم الله الملائكة بخلق آدم واستخلافه وقالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ثم قال: إني أعلم ما لا تعلمون قالوا فيما بينهم ليخلق ربنا ما يشاء فلن يخلق خلقا إلا كنا أكرم على الله وأعلم منه. فلما خلقه وأمرهم بالسجود له علموا أنه خير منهم وأكرم على الله منهم فقالوا إن يك خيرا منا وأكرم على الله منا فنحن أعلم منه، لما أعجبوا بعلمهم ابتلوا بأن علمه الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين. إني لا أخلق أكرم منكم ولا أعلم منكم ففزعوا إلى التوبة، وقالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم. قالا وعلمه اسم كل شيء من هذه: الخيل والبغال والإبل والجن والوحش وكل شيء. وقال الربيع علم أسماء الملائكة خاصة⁽¹⁾.

أما ما يتعلق بشأن الجنة التي أسكن آدم فيها فسرى اختلافاً جوهرياً بين ما قالته التوراة وما قال به القرآن الكريم.

ففي التوراة ورد: (وغرس الرب الإله جنة في عدن شرقاً ووضع هناك آدم الذي جبله، وكان نهر يخرج من عدن ليسقي الجنة ومن هناك ينقسم فيصير أربعة رؤوس اسم الواحد فيشون وهو المحيط بجميع أرض الحويلة حيث الذهب. وذهب تلك الأرض جيد هناك المقل وحجر الجزع. واسم النهر الثاني جيحون وهو المحيط بجميع أرض كوش واسم النهر الثالث حدافل وهو الجاري

(1) ابن الأثير الكامل في التاريخ ص 31 - 32.

شرقي آشور. والنهر الرابع الفرات). الإصحاح الثاني.

(فأخرجه الرب الإله من جنة عدن ليعمل الأرض التي أخذ منها. فطرد الإنسان وأقام شرقي جنة عدن الكروبيم ولهيب سيف متقلب لحراسة طريق شجرة الحياة).

أما في القرآن الكريم فيقول تعالى في سورة البقرة الآية 35: (وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغدا حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين).

وفي سورة الأعراف آية 19: (ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة فكلا من حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين).

أما بالنسبة لما ورد في التوراة فالجنة دنيوية وليست هي الجنة التي يدخلها الصالحون، والواضح أنها تقع شرقا عند منابع دجلة والفرات.

يقول ابن حزم الظاهري الأندلسي: في هذا الكلام من الكذب وجوه فاحشة قاطعة بأنها من توليد كذاب مستهزئ.

أول ذلك: إخباره أن هذه الأربعة تفتقر من النهر يخرج من جنات عدن التي أسكن الله فيها آدم: إذ خلقه فأخرجه منها إذ أكل من الشجرة التي نهاه الله تعالى عن أكلها وكل من له أدنى معرفة بالهيئة وبصفة الربع المعمور من الأرض الذي هو في شمال الأرض أو من مشى إلى مصر والشام والموصل يدري أن هذا كله كذب فاضح وأن مخرج النيل من عين الجنوب من خارج المعمور ومصبه قبالة تنيس وقبالة الإسكندرية في آخر أعمال مصر في البحر الشامي وأن مخرج الدجلة والفرات وجيحان من الشمال.

فأما جيحان فيخرج من بلاد الروم ويمر ما بين الحصيفة وربضها المسمى (كفر تيا حتى يصب في البحر الشامي على أربعة أميال من الحصيفة

وأما دجلة فمخرجها من أعين بقرب(خلاط) من عمل أرمنية بقرب آمد من ديار بكر وتصب مياهها في البطائح المشهورة بقرب البصرة في أرض العراق متاخمة أرض العرب. أما الفرات فمخرجه من بلاد الروم على يوم من قالي قلا قرب أرمنية ثم يخرج إلى ملطية ثم بأخذ على أعمال الرقة إلى العراق وينقسم إلى قسمين كلاهما يقع في دجلة⁽¹⁾.

أما بالنسبة للجنة التي كان فيها آدم وطرد منها (فإن العلماء اختلفوا أهي جنة المأوى التي وعد الله المتقين أن يدخلوها في الآخرة أم هي جنة من جنات الأرض). والجمهور على أنها جنة المأوى أخذًا بظواهر الآيات والأحاديث كقوله تعالى: (وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة) وحديث مسلم عن أبي هريرة: (يجمع الله الناس فيقوم المؤمنون حين تزلف لهم الجنة فيأتون آدم فيقولون يا أبانا استفتح لنا الجنة فيقول: وهل أخرجكم من الجنة إلا خطيئة أبيكم)⁽²⁾.

وقال فريق من العلماء إن الجنة التي سكنها آدم وحواء كانت من جنات الدنيا لأنه كلف فيها ألا يأكل من الشجرة ولأنه نام فيها وأخرج منها ودخل عليه إبليس فيها ووسوس إليه ولغا آدم وعصى ربه فيها وهذا ينافي أنها جنة المأوى.

وقد حكى هذا القول عن أبي بن كعب وعبد الله بن عباس ووهب بن منبه وسفيان بن عيينة واختاره القاضي منذر بن سعيد البلوطي قاضي الجماعة في تفسيره وأفرد له مؤلفا على حدة وحكاه عن أبي حنيفة الإمام وأصحابه رضي الله عنهم ونقله أبو عبد الله محمد بن عمر الرازي ابن خطيب الري في تفسيره عن أبي القاسم البلخي وأبي مسلم الأصفهاني ونقله القرطبي في تفسيره عن

(1) الفصل بين الملل والأهواء والنحل، ابن حزم الأندلسي الجزء I صفحة 203 - 204 دار الجيل بيروت دون تاريخ.

(2) أخرجه مسلم رقم 195، والبخاري رقم 4347 - وانظر البداية والنهاية 75/1. وقصص الأنبياء لابن كثير.

المعتزلة والقدرية وحاصل الخلاف فيها على أقوال:

- 1 - إنها جنة المأوى.
- 2 - إنها جنة سوى جنة المأوى اخترعها لآدم وحواء.
- 3 - إنها جنة من جنات الأرض.
- 4 - التوقف في أمرها.

يعترض القائلون بأن الجنة التي وجد آدم فيها كانت من جنات الدنيا فيقولون لو أن آدم كان في جنة الخلد فكيف يبحث عن شجرة الخلد ليأكل منها وما فائدة ذلك؟.

والآخرون يعارضون بالمثل قائلين إذا كان آدم في جنة من جنات الدنيا كما تقولون فكيف يبحث عن شجرة الخلد في دار لا خلود فيها.

وقال بعض المفسرين إن الجنة التي كان فيها آدم هي جنة اخترعها الله في السماء فليست دار الخلد ولا جنة من جنات الدنيا⁽¹⁾.

أما في ظاهر اللفظ فإن آدم وحواء قد أمرا أن يهبطا. والهبوط يكون من الفضاء. نقول هبطت الطائرة وهبط الطائر فلو كانت الجنة من جنات الأرض نقول نزلا على افتراض أنها في مكان مرتفع من الأرض. فالجنة في السماء غير أننا لا نجزم أهي جنة المأوى أم جنة خلقها الله لآدم وزوجته خصيصا حتى يتم أمره وامتحانه لآدم على الأرض.

وقد مر معنا كيف وصفت التوراة تلك الجنة والأنهر التي تغذيها وليس في التوراة وصف آخر لجنة الخلد التي أعدها الله للمتقين المؤمنين، بينما في القرآن الكريم وردت آيات كثيرة تتحدث عن الجنة ووصفتها وصفا تفصيليا.

ولنا هذه الوقفة مع تلك الآيات الكريمة التي تحدثت عن الجنة.

(1) عبد الوهاب النجار، قصص الأنبياء صفحة 35 - 36.

ففي سورة الفجر الآية 27 - 30: (يا أيتها النفس المطمئنة، ارجعي إلى ربك راضية مرضية، فادخلي في عبادي، وادخلي جنتي).

فالجنة هنا مكان عودة النفس المطمئنة المؤمنة.

وفي سورة البروج الآية 11: (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات تجري من تحتها الأنهار ذلك الفوز الكبير). فالجنة تجري من تحتها الأنهار وهي للذين آمنوا وعملوا الصالحات حصيلة وجزاء.

وفي سورة ق الآية 31 - 35: (وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد هذا ما توعدون، لكل أبواب حفيظ من خشى الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب. ادخلوها بسلام ذلك يوم الخلود لهم ما يشاءون فيها ولدينا مزيد).

فالجنة وقف على المتقين وهي وعد الرحمن الذي وعده لهم في الحياة الدنيا. إنها لكل عائد إلى ربه ودينه ولكل من خافه وجاءه بقلب نظيف. إنها دار الخلود وفيها ما يحلو للمؤمنين.

وفي سورة ص الآية 49 - 50: (وإن للمتقين لحسن مآب جنات عدن مفتحة لهم الأبواب).

فأبواب الجنة مفتوحة للمتقين مغلقة في وجه الكافرين.

وفي سورة مريم الآية 61 - 62: (جنات عدن التي وعد الرحمن عباده بالغيب... لا يسمعون فيها لغوا إلا سلاما).

فالجنة وعد الرحمن وهي المكان الذي لا لغو فيه بل حديث السلام والمحبة.

وفي سورة يونس الآية 26: (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ولا يرهق وجوههم فتر ولا ذلة أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون).

ففي الجنة لا فتور ولا ذل بل خلود دائم ونعيم.

وفي سورة الحجر الآية 45 - 46: (إن المتقين في جنات وعيون ادخلوها بسلام آمنين).

فدخل الجنة يتم بسلام وأمان فلا خوف ولا قلق ولا رعب.

وفي سورة الزمر الآية 73: (وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمرا...).

يدخل المؤمنون الجنة جماعات تحفهم الملائكة بسلام.

وفي سورة الزخرف الآية 70: (ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم تحبرون).

فالسعادة والحبور يعمان المؤمنين الذين يدخلون الجنة.

وفي سورة الذاريات الآية 15: (إن المتقين في جنات وعيون).

وفي سورة الكهف الآية 31: (لهم جنات عدن تجري من تحتهم الأنهار..).

وفي سورة النحل الآية 32: (ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون).

وفي سورة السجدة الآية 19: (أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم

جنات المأوى).

وفي سورة البقرة الآية 25: (وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم

جنات تجري من تحتها الأنهار كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا هذا الذي

رزقنا من قبل وأتوا به متشابهها ولهم فيها أزواج مطهرة وهم فيها خالدون).

إذا فالجنة دار المؤمنين، وهذه غاية الغايات في آيات القرآن الكريم. فيها

الراحة النفسية وفيها ما يشاء المؤمن من متع. ولم يرد في التوراة أنها هكذا.

وذلك يعود إلى عدم إيمان اليهود بيوم البعث والآخرة وهذا سنعود له في

صفحات قادمة. بعد ذلك كله نصل إلى سؤال لا بد أن يطرح.

هل كان آدم نبيا ورسولا أم أنه كان أول مخلوق بشري في هذه الأرض؟

لم يذكر القرآن الكريم لفظ النبوة بشأن آدم مثلما ذكرها بشأن الأنبياء كإبراهيم وموسى وعيسى وغيرهم. ولكن ذكر أنه خاطبه بلا واسطة وشرع له في ذلك الخطاب فأمره ونهاه وأحل له وحرّم عليه بدون أن يرسل إليه رسولا. فمن هذه الناحية نقول إنه نبي وأما رسالته فالأمر فيها مختلف فيه وشأننا أن نفوض علم ذلك إلى الله تعالى⁽¹⁾.

لكن بعض السائلين يسأل إذا كان آدم نبيا فكيف عصى والأنبياء معصومون من المعصية، والجواب منه حسب رأي عبد الوهاب النجار أن يكون ذلك منه على سبيل النسيان وإنما سمي ما أتاه خطيئة ومعصية. وخطيئته كانت قبل النبوة المستلزمة للعصمة من المعصية⁽²⁾.

والذي نميل إليه أن الله سبحانه عندما خلق آدم في الجنة لم يكن نبيا ولا حاجة لنبوته رغم وجود الأوامر والنواهي الربانية. إنما تبرز نبوته من خلال تفحصنا للآية الكريمة التي تقول. (ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى) طه 122.

والآية التي تقول: (فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم).

فخطيئة آدم في الجنة هي خطيئة إنسان أي إنسان. ولا حاجة لنبوة آدم في الجنة لأنه سيكون معصوما عن الخطأ وهذا سيخالف ما أراد الله من استخلاف آدم في الأرض، ثم عندما تقول الآية الكريمة فتلقى آدم من ربه كلمات، فإنه تلقاها في الأرض بعد أن أخرجه الله من الجنة وبعد أن استغفر آدم لذنبه وقبل الله سبحانه توبته فتاب عليه ثم اصطفاه - اجتباه - ومعنى

(1) عبد الوهاب النجار، قصص الأنبياء صفحة 38.

(2) عبد الوهاب النجار، قصص الأنبياء صفحة 39.

اجتباه أي اختاره لنفسه واختيار الله بعض البشر يبدأ بالأنبياء لأنهم المصطفون أولاً.

وإذا عدنا إلى قوله تعالى فتلقى آدم من ربه كلمات يوحى بأن التلقي لم يكن مباشرة من الله لآدم إنما كان عن طريق الوحي. قد تحدث الله سبحانه مع آدم في الجنة دون وحي لأنه لا حاجة للوحي هناك. بينما عندما هبط آدم في الأرض وبدأ حياته الأرضية كان لابد أن يتلقى بعض الكلمات الموجهة عن طريق جبريل، وباعتبار أن الله سبحانه سيستخلفه في الأرض كان لابد أن يبدأ سلسلة حياته على الأرض بالدعوة للخير وليس بالدعوة للشر ليكون الخير أسبق وهذه حكمة إلهية غير خافية. ولو أن الحياة البشرية بدأت بالشر لكان آدم أول شرير أو أول عاص على وجهها. فلذلك بدأ آدم حياته في الأرض بالنبوة. ورسالته هي تلك الكلمات التي تلقاها من الله ليبلغها لأولاده القادمين حتى لا يكونوا أشرا كافرين بالله.

إذا آدم نبي مرسل ورسالته الدعوة الأولى إلى التوحيد. لكن ذلك لا يمنع أن نقول إنه ليس من الأنبياء ذوي العزم. فقد قالت الآية الكريمة في سورة طه (ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسي ولم نجد له عزما). وخطيئة أنه نسي وهذا ما جعله نبيا ولكن من دون عزم.

صورة آدم في التوراة والقرآن:

تشير التوراة في أكثر من مكان إلى أن الله خلق آدم على صورته. وبعض المفسرين قالوا ليس في ذلك شيء من الغرابة إذ المعنى أن الله خلق آدم على صورة آدم نفسه الذي نراه ونعهده وليست الهاء تعود إلى الله بل تعود لآدم. وبعضهم قال إن الهاء عائدة لله وهذا من التجديف التوراتي الذي خلق مقولة شعب الله المختار وأن اليهودي مخلوق من روح الله المقدس ذاته يقول سفر التكوين (وقال الله نعمل الإنسان على صورتنا كشبهنا).

(فخلق الله الإنسان على صورته، على صورة الله خلقه ذكراً وأنثى

خلقهم) 26 - 27 - 28.

يقول ابن حزم: (ولو لم يقل إلا كصورتنا لكان له وجه حسن ومعنى صحيح وهو أن نضيف الصورة إلى الله تعالى إضافة الملك والخلق كما تقول هذا عمل الله وتقول للقرد والقبيح والحسن هذه صورة الله أي تصوير الله والصفة التي انفرد بملكها وخلقها. لكن قوله كشبهنا منع التأويلات وسد المخارج وقطع السبل وأوجب شبه آدم لله عز وجل.

وهذا يعلم بطلانه ببديهية العقل إذ الشبه والمثل معناهما واحد وحاشا لله أن يكون له مثل أو شبيه⁽¹⁾.

وكلام ابن حزم واضح في الرد على اليهود. إذ أنهم يرجون من ذلك أن يكون آدم ونسله من الذين انتقاهم الله حتى وصل انتقاؤه لأجداد العبرانيين أن يكونوا على صورة الله وشبهه إذ أنهم وحسب اعتقادهم خير من بقية بني البشر.

ولعل كلامهم هذا يقودنا إلى قول التوراة (هذا آدم قد صار كواحد منا عارفاً للخير والشر والآن لعله يمد يده ويأخذ من شجرة الحياة أيضاً ويأكل ويحيا إلى الأبد فأخرجه الرب الإله من جنة عدن ليعمل الأرض التي أخذ منها). التكوين الإصحاح 3: 22 - 23.

ف (حكايتهم عند الله تعالى أنه قال هذا آدم صار كواحد منا مصيبة من مصائب الدهر وموجب ضرورة أنهم آلهة أكثر من واحد. ولقد أدى هذا القول الخبيث المفترى كثيرا من خواص اليهود إلى الاعتقاد أن الذي خلق آدم لم يكن إلا خلقا خلقه الله تعالى قبل آدم وأكل من الشجرة التي أكل منها آدم فعرف

(1) الفصل بين الملل والأهواء والنحل. ابن حزم الأندلسي صفحة 202 المجلد الأول.

الخير والشر ثم أكل من شجرة الحياة فصار إلهاً من جملة الآلهة نعوذ بالله من هذا الكفر الأحمق⁽¹⁾.

أما في القرآن الكريم فتذكر الآيات الكريمة أن الله سبحانه خلق آدم من تراب لكن نسله خلق من ماء مهين.

ففي سورة السجدة الآية 7 - 8 - 9 يقول تعالى: (الذي أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين، ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين، ثم سواه ونفخ فيه من روحه...).

وفي سورة النور يقول تعالى: (والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشي على بطنه ومنهم من يمشي على رجلين ومنهم من يمشي على أربع يخلق الله ما يشاء إن الله على كل شيء قدير). الآية 45.

وفي سورة المؤمنون: (ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة في قرار مكين) الآيتان 12 - 13 (ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظماً فكسونا العظام لحماً ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين) الآية 14.

وصورة آدم حسب ما قالته التوراة جعلت كثيراً من الباحثين اليهود والغربيين يرفضون مقولات التوراة ويتهمونها بالتحريف تارة ومجافاة المنطق تارة أخرى.

فأقدم فلاسفة اليهود وهو فيلون الإسكندري لم يستطع أن يقبل الصفات والأنباء التي أسندت إلى الله في كتب اليهود بدلالاتها الحرفية ونصوصها الظاهرة. وكان مبدأ فيلون ومذهبه مبدأ ثورة دينية في بني إسرائيل فتابعه أناس في التأويل والتفسير وأحجم أناس عن كل تأويل وتفسير مشفقين على التراث

(1) الفصل بين الممل والأهواء والنحل. ابن حزم الأندلسي صفة 207 المجلد الأول.

ويقول القصاص اليهودي (شو لم آش Sho Lem Asch) في كتابه ما أعتقد، خلق الله الإنسان على صورته وعاد الإنسان فخلق الله على صورته وتمثله في طبعه ودرج من أقدم الأزمان أن يزدلف إلى الله ويصفه بما هو أجمل الصفات وأفضلها في نظره. وكل جيل من أجيال البشر يرفع إلى الله خلاصه ثمرات عصره. وكل جيل من أجيال البشر قد صور الله على الصورة المثلى التي يستمدها من خلائقه ومزاياه. ومن هنا أصبحت الربوبية أوجاً تلتقي فيه أفضل الفضائل التي تتخيلها الشعوب⁽²⁾.

ماذا يقول القرآن الكريم في خلق الإنسان؟

كثيرة هي الآيات الكريمة التي تشير صراحة إلى خلق آدم ومن ثم إلى خلق الإنسان بشكل عام وإذا تتبعنا التسلسل القرآني في هذا الخلق سنجد أن الله سبحانه خلق آدم أولاً ثم خلق زوجته ثانياً وبعد الهبوط إلى الأرض بدأ التناسل البشري حيث تبدأ سيرة أبناء آدم وهكذا حتى يومنا هذا.

فآدم خلقه الله من تراب كما نصت بذلك الآيات صراحة.

يقول تعالى في سورة الحجر الآية 26: (ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حماء مسنون).

وفي سورة ص الآية 71 يقول تعالى: (إذ قال ربك للملائكة إني خالق بشرا من طين).

وفي سورة الإسراء الآية 61 (فسجدوا إلا إبليس قال أسجد لمن خلقت طينا).

(1) عباس العقاد، الله، صفحة 165 - 166.

(2) عباس العقاد، الله، صفحة 170.

وفي سورة ص الآية 76: (قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين).

ويقول تعالى في سورة الحج آية 5: (يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإننا خلقناكم من تراب).

ويقول تعالى في سورة الروم آية 20 (ومن آياته أن خلقكم من تراب...).

فأصل الجسد البشري طين وجاءت هذه معجزة في حد ذاتها، ولم يترك الله سبحانه هذا الخلق لغزاً محيراً فالذي يشك فيه يعود إلى القرآن الكريم ليرى أن آياته حاججت العقل البشري بموضوعية وعلم ليدرك بنو البشر أن الجسد مخلوق من طين حقاً.

تجيبنا آيات الكتاب المبين أن آدم خلق من تراب وعندما ركب فيه الروح والنفس والعقل طور خلقه بحيث أصبح الإنسان نفسه وسيلة من وسائل خلق غيره. وبمعنى آخر إن خلق آدم لن يتكرر إلا لمعجزة وأصبح الرجل والأنثى سببين من أسباب الإنجاب وزيادة الخلق.

يقول تعالى في سورة السجدة الآية 7 - 8 (الذي أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين).

وتعني الآية ما قلناه قبلها. لقد كانت بداية الخلق من طين أما نسل آدم الذي يليه فقد خلقه الله من سلالة من ماء مهين وهذه السلالة توضحها آيات أخريات.

يقول تعالى في سورة المؤمنون الآيات 12 - 13 - 14 (ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظماً فكسونا العظام لحماً ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين).

فسلالة من طين هي التراب - الصلصال - الحمأ المسنون (الفخار).

وسلالة من ماء مهين هي نطفة - علقه مضغة (عظام).

والسلالتان تتطابقان من حيث الفاعلية.

التراب في السلسلة الأولى هو الأصل في عملية الخلق.

النطفة في السلسلة الثانية هي الأصل في عملية الخلق.

التراب يعجن فيصبح صلصالاً أي طيناً طرياً ثم يابساً كالفخار.

النطفة تلتقي بالبويضة فتصبح علقه أي دماً متجمداً.

الصلصال بعملية الحرق يصبح أسود اللون ومصوراً صورة إنسان أجوف.

والعلقة تنتقل بعملية الخلق إلى مضغة وهي قطعة أشبه باللحم وهي على قدر ما يمشغ، الفخار آخر عملية الخلق الأولى لآدم.

والعظام آخر عملية الخلق الثانية أي بعد آدم.

فإذا ما اكتستت العظام لحماً تكون خلق الجنين في رحم أمه.

وإذا ما نفخ الله الروح في الفخار صار إنساناً يتنفس ويحس ويشم. وقد

جاء في الآيات الكريمة قوله تعالى (فسويته) وهذا يعني أن لا خلق بدون تسوية ولا سجد من قبل الملائكة لآدم دون تسوية أي دون تشكيل لهذا الطين ووضع الروح فيه. وبدون تسوية يبقى الشكل لا ملامح له ولا سمات ولا وضوح ولا تقسيمات لليد والوجه وكل جزئيات الجسم.

وقد أكدت الآيات القرآنية الكريمة عمليتي الخلق الأولى والثانية في أكثر

من مكان وأكثر من سياق وفي مجملها كانت حجة على الإنسان، على تكبيره، على تفاخره وغروره. يقول تعالى في سورة الطلاق الآية 5 - 6 - 7: (فلينظر الإنسان مم خلق. خلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب) فهذا الخلق يعود إلى الأصل التناسلي وليس إلى أصل خلق آدم أول البش.

هل آدم هو أول البشر ولم يكن أحد قبله من جنسه؟

طرح هذا السؤال علماءنا وعلماء الغرب وخرجت بذلك نظريات متناقضة حول ذلك وأول ما طرح مشكلة حول هذا التساؤل التواريخ التوراتية التي وردت في سفر التكوين وهي بمجملها تناقض ما أتت به نظريات العلم الحديث ولاسيما النظريات الجيولوجية وعلم الآثار.

وخرجت لنا نظرية التطور والارتقاء التي أظهرها العالم اليهودي داروين وقد رأى بعض العلماء العرب رأيه وإن اختلفوا معه في بعض القضايا الهامة.

وقد أجمع جمهور من العلماء المسلمين على القول إن آدم هو أول مخلوق بشري، واستندوا بذلك على تفسير بعض الآيات القرآنية المشيرة لخلق آدم.

أما التوراة فإنها تبدأ سلسلة تاريخية وتحدها، وسفر التكوين يقدم في أنسابه بالإصحاحات 4 - 5 و 11 و 21 و 25 معطيات غاية في الدقة عن كل أسلاف إبراهيم من صلب مباشر منذ آدم. ولما كان سفر التكوين يعطي مدة حياة كل منهم وعمر الأب عند ميلاد الابن فإنه يسمح بيسر بتحديد تواريخ ميلاد ووفاة كل سلف بالنسبة لخلق آدم.. فتاريخ الوفاة بعد خلق آدم هي 930 أي أن عمره بالتمام 930 عاما والفارق بينه وبين إبراهيم هو 2123 عاما والفارق بين إبراهيم وعيسى عليهما السلام يتراوح بين 1950 عاما و 1800 عام فعام 1975م يتفق مع عام 5736 منذ خلق العالم. إذا فالإنسان الذي يجيء خلقه بعد خلق العالم بعدة أيام قديم نفس القدم الذي يحصيه التقويم اليهودي لخلق آدم⁽¹⁾.

ومعلوم أن الله خلق آدم في اليوم السادس بعد أن خلق السموات والأرض والحيوانات والأنوار. فهل حقا أن عمر العالم قبل خلق آدم بقليل. هل حقا أن عمر الأرض والسماء والشمس والقمر وما بينهما لا يتجاوز الستة آلاف سنة؟ إذا

(1) موريس بوكاي، القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم صفحة 47 - 48.

كان آدم خلق في 5755 حسب عام 1994 - وهذا هو التقويم العبري - فهل كان خلق الأكوان قبله بقليل على اعتبار أن آدم خلق في اليوم السادس من أيام الخلق الستة؟.

يقول موريس بوكاي (أما فيما يخص تاريخ ظهور الإنسان على الأرض فالمعطيات العلمية الحديثة تسمح بتعريفه بأبعد من حد دقيق فقط. نستطيع أن نقنع أن الإنسان كان يوجد على الأرض ولكن لا أحد يستطيع أن يحدد بشكل دقيق تاريخ ظهوره ومع ذلك فيمكن أن نؤكد اليوم وجود أطلال لإنسانية مفكرة وعاملة ويُحسب قدمها بوحدات تتكون من عشرات من ألوف السنين.

يعود هذا التاريخ التقريبي على نموذج إنسان ما قبل التاريخ الذي اعتبر أكثر النماذج قرباً للنموذج Neanthropiens (إنسان كرومانيون) ولا شك أن هناك اكتشافات أخرى لبقايا يبدو أنها إنسانية قد تمت في نقاط عديدة من الأرض وهي تخص أنماطاً أقل تطوراً. ويقدر حجم قدمها بوحدات من مئات ألوف السنين ولكن هل هم حقاً بشر حقيقيون وهذا ما يسمح بوضع أوائل البشر أبعد بكثير من العصر الذي يحدده سفر التكوين لآدم هناك إذاً استحالة اتفاق واضحة بين ما يمكن استنتاجه من المعطيات الحسابية لسفر التكوين الخاصة بظهور الإنسان على الأرض وبين أكثر المعارف تأسيساً في عصرنا⁽¹⁾.

أما نظرية التطور والارتقاء فملخصها أن أصل الإنسان قرد. وقد ظهر رأي أصحاب هذه النظرية في أوروبا وقد أشاعوا هذا الرأي ودافعوا عنه. وهذه النظرية لم تزل موضع بحث للأخذ والرد ولها أنصار مؤيدون كما أن لها خصوماً يبطلونها. والقرآن الكريم وضح بنصوصه الظاهرة على أن أصل الإنسان لم يكن قرداً تحول شيئاً فشيئاً، لكن نظرية داروين لم تبلغ من المتانة هذا الحد الذي يجعلها أمراً قطعياً لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، هل يتصور

(1) موريس بوكاي، القرآن الكريم والتوراة والإنجيل صفحة 51.

أن الغوريلا وسائر الفصيلة القرديّة تهب لعمران الأرض كما عمرها الإنسان فيما لو أمرت؟⁽¹⁾.

وقد تأثر بنظرية داروين كثير من العلماء والباحثين العرب أمثال الدكتور مصطفى محمود. غير أنهم استندوا في ذلك على تفسيرات لبعض آيات القرآن الكريم بشكل مغاير لما عهدته التفاسير، فهذا الفريق الذي يرجح أن آدم ليس أول جنسه يستأنسون لذلك بقول الملائكة (أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء). ويقول إن الملائكة لم يقولوا ذلك إلا لرؤيتهم من تقدموا آدم من الخلق الذين كانوا على صورته فقد فعلوا ذلك. وإنما آدم كان خليفة عن بشر كانوا من جنسه وبادوا. والبعض الآخر من هذا الفريق فسّر قوله تعالى: (وخلقنا الإنسان من سلاله من طين). أنها تعني أن آدم هو الشكل الأخير لمجموعة من المخلوقات التي سبقته.

وآخر من قال في هذا الشأن الباحث عبد الرحمن غنيم في كتابه مذكرة البحث عن آدم (فيرى أن الإنسان تطور من مضغة إلى عروس يحر بأشكال متعددة فإنسان يمشي على أربع فمعتدل القامة ثم جاء طور آدم الذي أنشئ من ذرية قوم آخرين).

ويقول (هناك إذن نظرية نشوء وتطور قرآنية هي غير نظرية النشوء والتطور الداروينية لكنها تلتقي معها في إطار عام. ومن بين الآيات المرجحة لسلامة ما ذهبنا إليه أن انفراز التويتات الأولى (العلق) في الطين لتتحول إلى أجنة (مضغات مخلقة وغير مخلقة منها الذكر والأنثى وهي النسل) يتفق مع قوله تعالى (والله أنبتكم من الأرض نباتا).

(1) عبد الوهاب النجار، قصص الأنبياء صفحة 43.

ومما يدل على تطور شكل الإنسان على مراحل متعددة قوله تعالى (وقد خلقكم أطواراً) وقوله يزيد في الخلق ما يشاء⁽¹⁾.

فهو يرى أن الإنسان تطور وارتقى ولكن ليس عن قرد إنما عن عروس بحر تطورت عبر ملايين السنين إلى أن خرجت إلى البر فأصبحت إنساناً تطور أيضاً حتى وصل إلى ما وصل إليه آدم.

إن كل هذه التقلّات تبقى في إطار التخمين أو في إطار النظرية مهما بلغت من التفصيل والشرح ورأينا أن آدم النبي هو أول مخلوق بشري لا ندري متى خلقه الله لأن القرآن الكريم لم يحدد تاريخ خلقه. وهذه مسألة الترك فيها أفضل من البحث لأن القرائن غير متوفرة ولم يصل الإنسان أي إنسان إلى الجزم بها.

تبقى مسألة هامة جداً وهي خلق امرأة آدم، هل حقاً خلقها الله من ضلع آدم أم خلقها على شاكلته إنسانة متكاملة؟.

أما النص التوراتي فيرى أن الله جعل آدم في سبات وأخذ ضلعاً من أضلاعه وملاً مكانه لحماً وخلق حواء من هذا الضلع يقول سفر التكوين (فأوقع الرب الإله سباتاً على آدم فنام فأخذ واحدة من أضلاعه وملاً مكانها لحماً وبنى الرب الإله الضلع التي أخذها من آدم امرأة فأحضرها إلى آدم فقال آدم هذه الآن عظم من عظامي ولحم من لحمي... ودعا آدم اسم امرأته حواء لأنها أم كل حي).

أما في القرآن الكريم فإن عملية خلق امرأة آدم لم يشر لها من قريب أو بعيد، حيث نجد أنفسنا أمام الآية القرآنية التي تقول (اسكن أنت وزوجتك الجنة فكلا من حيث شئتما).

(1) عبد الرحمن غنيم. مذكرة البحث عن آدم. ص 85 - 86. دار الجليل، دمشق 1992، الطبعة الأولى.

وقد تكرر ذلك في سورة البقرة وفي سورة الأعراف. أما من أين ظهرت امرأة آدم فهذا لم يشير له القرآن الكريم. كما لم يشير إلى أن اسمها هو حواء، وقد وجدنا هذا الاسم في التوراة دون القرآن. وقد تناول علماءنا هذه المسألة ولهم فيها آراء متعددة.

فالشـيخ عبد الوهاب النـجار في كتابه قصص الأنبياء يقول:

إن الله تعالى قال: (وخلق منها زوجها) هذه العبارة محتملة لأن يكون الله قد أخذ ضلعا من أضلاع آدم وخلق من ذلك الضلع حواء. وقد قال بذلك كثير من العلماء. ومن الجائز أن يكون الله خلقها كما خلق آدم وأن يكون قوله تعالى (وخلق منها زوجها) أي من جنسها وعلى صورتها وحينئذ تكون المادة التي أخذت منها المرأة غير متعرض لها والرأي الأول النفس إليه أميل⁽¹⁾.

ويدافع الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي عن الرأي القائل بأن حواء خلقت من ضلع آدم مستندا على ما ورد من أحاديث صحيحة قالها رسول الله صلى الله عليه وسلم لا سيما الحديث الذي يقول (استوصوا بالنساء خيرا فإن المرأة خلقت من ضلع وإن أعوج شيء في الضلع أعلاه) وقد رواه البخاري ومسلم والترمذي⁽²⁾.

فإذا صحت أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم أن حواء خلقت من ضلع آدم فإن التسليم بذلك هو من صلب إيمان المسلم لأن السنة المباركة المتواترة تلزم المسلم الأخذ بها والتسليم بها.

هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فإننا نرى أن ليس بالأمر الصعب على الله أن تخلق حواء من ضلع آدم. وهذه تدخل ضمن المعجزات الإلهية. فالمعجزة

(1) عبد الوهاب النجار، قصص الأنبياء صفحة 35.

(2) رواد البخاري 218/9، مسلم رقم 1468 والترمذي 1188.

تخترق قانون البشر ونواميس الحياة المادية فلها نواميس خاصة وقوانين إلهية ليست خاضعة لمقياس مادي بشري. فالله خلق آدم من تراب وهي معجزة إلهية وخلق عيسى عليه السلام من دون أب وهي معجزة أخرى. وخلق حواء من ضلع آدم ليست سوى معجزة من معجزات الخلق الإلهية التي تفوق تصور البشر وعقولهم.

وتستوقفنا آية كريمة في سورة آل عمران وهي: (إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون) الآية 46.

فبعض أصحاب نظرية النشوء والارتقاء وبعض مؤيديها من الباحثين العرب قالوا إن عيسى خلق من رحم أمه فيكون آدم كذلك غير أن الأصل فيهما هو التراب.

بينما يرى بعض الباحثين المسلمين أن الآية الكريمة أرادت أن تقول إن عيسى يختلف عن سائر البشر لم يخلق من أب وإنما كان خلقه كخلق آدم فمثله سبحانه وتعالى بآدم. ومن هذا التمثيل نفهم أن آدم كانت خلقته من غير أب أي (دفعية) وأيضا لم تكن خلقة تطورية إذ لو كانت خلقة آدم تطورية عندها يجب أن يكون له أب ولو في سلم أنزل منه من حيث درجة التطور والتكامل. وعلى هذا الأساس وجب أن يكون لعيسى أب أيضا تولد منه تولدا عضويا وهو خلاف ما تصرح به وتريده الآية، لأن هذه الآية جاءت لتنفي شبهة الزنا والتهمة التي كان قد ادعاها اليهود، كما تنفي شبهة كونه ابن الله وهكذا لا يصح هذا التشبيه إلا إذا فرض أن آدم لم يكن له أب، وأما من حيث الأم فإن الآية لا تريد تشبيه آدم بعيسى بل عيسى بآدم ولا كلام في أن آدم إذا لم يكن مخلوقا من خلال نظرية التطور من حيث الأب لم يكن مخلوقا كذلك من حيث الأم أيضا لأنه لو كانت نظرية التطور صادقة في آدم لكانت صادقة أبا وأما. لكن الآية لا تريد أن تشبه آدم بعيسى بل تريد أن تشبه عيسى بآدم.

والسؤال كان عن أب عيسى لا عن أمه⁽¹⁾.

هل حقا لعن الله الأرض؟

يرد في سفر التكوين. وقال لآدم لأنك سمعت لقول امرأتك وأكلت من الشجرة التي أوصيتك قائلا لا تأكل منها ملعونة الأرض بسببك) التكوين 3: 17. بينما في القرآن الكريم ترد آيات كثيرة لا يلعن الله فيها لا أرضا ولا كواكب.

وفي سورة البقرة يقول تعالى في الآية 22: (الذي جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم).

وفي سورة طه في الآية 53: (الذي جعل لكم الأرض مهادا وسلك لكم فيها سبلا).

وفي سورة الأنبياء الآية 56: (قال بل ربكم رب السموات والأرض الذي فطرهن).

وفي سورة الأنبياء الآية 31: (وجعلنا في الأرض رواسي أن تميد بهم وجعلنا فيها فجاجا سبلا لعلهم يهتدون).

وفي سورة المؤمنون الآية 18: (وأنزلنا من السماء ماء بقدر فأسكناه في الأرض).

وفي سورة النمل الآية 61: (أمن جعل الأرض قرارا وجعل خلالها أنهارا).

وفي سورة السجدة الآية 7: (الذي أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق

(1) السيد محمود الهاشمي. الإنسان في القرآن، مجلة الثقافة الإسلامية العدد

الإنسان من طين).

وآيات كثيرة غيرها تتحدث عن خلق الله للأرض وتسخيرها لبني البشر والاستفادة من ترابها وثمرها ومياها الجوفية والظاهرة. كل ذلك ليكون سببا في استمرار الحياة عليها. فأى مبرر منطقي يجعل رب اليهود يلعن الأرض؟ لأي سبب تلعن الأرض من قبل الرب خالقها وهي التي جعلها للإنسان يستخلفها ويقيم فيها العدل والحياة والبقاء والتعارف.

فالذي يجعل سفر التكوين التوراتي يلعن الأرض هو سبب أسطوري وبمعنى آخر فإن هذه اللعنة مقتبسة من تراث البابليين الأسطوري وهؤلاء سبقوا العبرانيين زمنيا في تواجدهم على وجه الأرض.

ولدا آدم في التوراة والقرآن:

بعد أن استوضحنا ما في التوراة وأدركنا ماذا جاء في القرآن الكريم من حديث عن آدم عليه السلام يسوقنا البحث حسب التسلسل البشري إلى دراسة ما جاء في التوراة والقرآن الكريم من حديث عن ولدي آدم أو عن نسله.

وفي الخطوط العامة فإن ما جاء فيهما يكاد يتوافق، سوى أن التوراة سمتهما باسمين هما قايين وهابيل.

غير أن الخلاف يحصل في التفاصيل والغايات وهذا ما سنستعرضه في السطور القادمة.

تقول التوراة في سفر التكوين: (وعرف آدم حواء امرأته فحبلت وولدت قايين، وقالت اقتنيت رجلا من عند الرب وعادت فولدت أخاه هابيل. وكان هابيل راعيا للغنم وكان قايين عاملا في الأرض. وحدث من بعد أيام أن قايين قدم من أثمار الأرض قربانا للرب وقدم هابيل أيضا من أبكار غنمه ومن سمانها.

فنظر الرب إلى هابيل وقربانه ولكن إلى قايين وقربانه لم ينظر فاغتناظ قايين جدا وسقط وجهه. فقال الرب لقايين لماذا اغتظت ولماذا سقط وجهك إن أحسنت أفلا رفع وإن لم تحسن فعند الباب خطية رابضة وإليك اشتياقها وأنت تسود عليها) 4 : 1 - 7.

(وكلم قايين هابيل أخاه وحدث إذ كانا في الحقل أن قايين قام على هابيل أخيه وقتله فقال الرب لقايين أين هابيل أخوك فقال لا أعلم أحارس أنا لأخي فقال ماذا فعلت. صوت دم أخيك صارخ إلي من الأرض فالآن ملعون أنت من الأرض التي فتحت فاهها لتقبل دم أخيك من يدك. متى عملت الأرض لا تعود تعطيك قوتها. تائها وهاربا تكون في الأرض. فقال قايين للرب ذنبي أعظم من أن يحتمل. إنك قد طردتني اليوم عن وجه الأرض ومن وجهك أختفي وأكون تائها وهاربا في الأرض، فيكون كل من وجدني يقتلني. فقال له الرب لذلك كل من قتل قايين فسبعة أضعاف ينتقم منه. وجعل الرب لقايين علامة لكي لا يقتله كل من وجدته فخرج قايين من لدن الرب وسكن في أرض نود شرقي عدن) تكوين 4 : 8 - 16.

وقد ذكرت قصة ابني آدم في القرآن الكريم دون أن يذكر فيها اسم كل منهما.

قال تعالى في سورة المائدة من 27 - 31: (واتل عليهم نبأ ابني آدم بالحق إذ قربا قربانا فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر قال لأقتلنك قال إنما يتقبل الله من المتقين لئن بسطت إلي يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك إني أخاف الله رب العالمين. إني أريد أن تبوء بإثمي وإثمك فتكون من أصحاب النار وذلك جزاء الظالمين. فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين فبعث الله غرابا يبحث في الأرض ليريه كيف يواري سوءة أخيه قال يا ويلتي أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأواري سوءة أخيه فأصبح من

ذكر السدي عن أبي مالك وأبي صالح عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود وعن ناس من الصحابة أن آدم كان يزوج ذكر بطن بأنثى الآخر وأن هابيل أراد أن يتزوج بأخت قابيل وكان أكبر من هابيل وأخت قابيل أحسن. فأراد قابيل أن يستأثر بها على أخيه وأمره آدم عليه السلام أن يزوجه إياها فأبى. فأمرهما أن يقربا قربانا. فقرب هابيل جذعة سمينة وكان صاحب غنم. وقرب قابيل حزمة من زرع رديء زرعه فنزلت نار فأكلت قربان هابيل وتركت قربان قابيل. فغضب وقال: لأقتلك حتى لا تنكح أختي فقال إنما يتقبل الله من المتقين⁽¹⁾.

ففي رواية التوراة ورواية القرآن تشابه كبير في قصة ولدي آدم من حيث:

- 1 - وجود اثنين من أولاد آدم. سمتهما التوراة ولم يسمهما القرآن الكريم.
- 2 - قصة القربان الذي قدمه كل منهما.
- 3 - تقبل الله قربان هابيل ورفضه لقربان قايين.
- 4 - قتل قايين لهابيل.

أما الاختلافات فتكمن في:

- 1 - في التوراة شخصية هابيل غائبة إلا في الجانب السلبي. الانفعالي وليس الفاعل إذ أننا لا نرى حوارا بينهما تظهر من خلاله شخصية هابيل. بينما نرى في القرآن الكريم أن هابيل رجل عاقل مؤمن. لأنه قال لقايين إنك إن نويت على قتلي فلن أنوي أن أقتلك وإن لم يتقبل منك الله فإنه يتقبل من المتقين وهذا يعني تماما أن هابيل كان تقيا وأن قايين لم يكن كذلك.

(1) ابن كثير البداية والنهاية مجلد 39/2 وتاريخ الطبري 137/1.

2 - لم نعرث على قصة الغراب في التوراة بينما نجدها في القرآن الكريم وهي في السياق العام تأتي لتكون شاهداً لقايبين وتعلّيماً له كيف يدفن جثة أخيه ويواربها. وهذا إن دل على شيء فإنه يدل على أن دفن الميت تحت التراب هو الطريقة المثلى في دفن جثة من فقد الحياة وكأن ذلك جاء تعلّيماً لبني البشر كي يكون دفن الجثث تحت التراب الطريقة الصحيحة والشرعية وليس حرق الجثة مثلاً أو تحنيطها.

ونستطيع أن نقول إن دفن الميت سنة سنت منذ زمن هابيل وسار عليها أكثر بني البشر وأتباع الديانات الكبرى في العالم الأرضي.

وقد ذكر الثعلبي النيسابوري قصة ابني آدم في كتابه المسمى قصص الأنبياء في الصفحة 43 - 47 وتحدث فيها بعض ما نسبته إلى ابن عباس ولم ينسب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا ندرى صحة ما جاء فيه⁽¹⁾ ونكتفي بهذا القدر من الحديث عن ولدي آدم لأننا لا نجد وجهاً للكلام الزائد على ما جاء في التوراة والقرآن الكريم.

نوح والطوفان بين التوراة والقرآن:

ونحن نقلب صفحات التوراة نجد أن الحديث عن مجريات الأحداث بعد آدم يأخذ منحى أوسع حيث يشعر القارئ أن الزمن الذي يتقدم يقدم لنا شخصياته وأحداثه بشكل يقترب من الثوابت.

وفي القرآن الكريم تبرز الآيات الكريمة قصص الأنبياء والعقائد بشكل أكثر كلما أخذت أحداث التاريخ تكثر وتتعدد وتتوضح.

(1) ارجع إلى كتاب قصص الأنبياء المسمى عرائس المجالس لأبي اسحق الثعلبي النيسابوري، صفحة 43 - 47، ففيه تفصيلات لا ندرى مدى صحتها.

وقصة نوح من القصص التي فصلت بشكل واسع بحيث يستطيع المرء أن يناقش قضايا كثيرة ويقارن أحداثها ويناقشها كما وردت في التوراة وكما وردت في القرآن الكريم.

يرد في سفر التكوين الإصحاح الخامس 28 (وعاش لامك مئة واثنين وثمانين سنة وولد ابنا دعا اسمه نوحا قائلا هذا يعزيانا عن عملنا وتعب أيدينا من قبل الأرض التي لعنها الرب).

(وكان نوح ابن خمس مئة سنة وولد نوح ساما وحاما ويافث).

وفي الإصحاح السادس: (فحزن الرب أنه عمل الإنسان في الأرض وتأسف في قلبه فقال الرب أمحو عن وجه الأرض الإنسان الذي خلقتة مع بهائم ودبابات وطيور السماء لأنني حزنت أنني عملتهم وأما نوح فوجد نعمة في عيني الرب).

(وكان نوح رجلا بارا كاملا في أجياله. وسار نوح مع الله وولد نوح ثلاثة بنين ساما وحاما ويافث وفسدت الأرض أمام الله وامتلات الأرض ظلما).

(فقال الله لنوح نهاية كل بشر قد أتت أمامي لأن الأرض امتلات ظلما منهم ها أنا مهلكهم مع الأرض اصنع لنفسك فلكا من خشب جف).

(فها أنا آت بطوفان الماء على الأرض لأهلك كل جسد فيه روح).

(ولكن أقيم عهدي معك فتدخل الفلك أنت وبنوك وامراتك ونساء بنيك معك).

وفي الإصحاح السابع: (في ذلك اليوم عينه دخل نوح وسام وحام ويافث بنو نوح وامرأة نوح وثلاث نساء بنيه معهم إلى الفلك).

(فمات كل جسد كان يدب على الأرض فمحا الله كل قائم كان على

وجه الأرض).

وفي الإصحاح الثامن : (ثم ذكر الله نوحا وكل الوحوش وكل البهائم التي معه في الفلك وأجاز الله ريحا على الأرض فهدأت المياه).

(وقال الرب في قلبه لا أعود ألعن الأرض أيضا من أجل الإنسان لأن تصور قلب الإنسان شرير منذ حدثته ولا أعود أيضا أميت كل حي كما فعلت).

وفي الإصحاح التاسع : (وبارك الله نوحا وبنيه).

(وكلم الله نوحا وبنيه معه قائلا ها أنا مقيم ميثاقي معكم ومع نسلكم من بعدكم ، وكان بنو نوح الذين خرجوا من الفلك ساما وحاما ويافث وحام هو أبو كنعان هؤلاء الثلاثة هم بنو نوح ومن هؤلاء تشعبت كل الأرض).

(وابتدأ نوح يكون فلاحا وغرس كرما ، وشرب من الخمر فسكر وتعرى داخل خبائه فأبصر حام أبو كنعان عورة أبيه وأخبر أخويه خارجا فأخذ سام ويافث الرداء ووضعاه على أكتافهما ومشيا إلى الورا وسترأ عورة أبيهما ووجهاهما إلى الورا فلم يبصرا عورة أبيهما فلما استيقظ نوح من خمره علم ما فعل به ابنه الصغير. فقال ملعون كنعان عبد العبيد يكون لأخوته. وقال مبارك إله سام وليكن كنعان عبدا لهم وليفتح الله ليافث فيسكن في مساكن سام وليكن كنعان عبدا لهم).

(وعاش نوح بعد الطوفان ثلاث مئة وخمسين سنة ، فكانت كل أيام نوح تسع مئة وخمسين سنة ومات).

وفي القرآن الكريم ترد قصة نوح في العديد من السور القرآنية الكريمة ، وقد خص الله سبحانه سورة في القرآن الكريم باسم نوح.

ففي سورة نوح : (إنا أرسلنا نوحا إلى قومه أن أنذر قومك من قبل أن يأتيتهم عذاب أليم). سورة نوح الآية 1.

(قال نوح إنهم عصوني واتبعوا من لم يزدده ماله وولده إلا خسارا) الآية
21 من سورة نوح.

(وقالوا لا تذرنا إلهتكم ولا تذرنا ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا)
الآية 23.

(وقال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا) الآية 26.

(رب اغفر لي ولوالدي ولن دخل بيتي مؤمنا وللمؤمنين والمؤمنات ولا تزد
الظالمين إلا تبارا) الآية 28.

وفي سورة الأنبياء: (ونوحا إذ نادى من قبل فاستجبنا له فنجيناه وأهله
من الكرب العظيم) آية 76.

(ونصرناه من القوم الذين كذبوا بآياتنا إنهم كانوا قوم سوء فأغرقناهم
أجمعين) آية 77.

وفي الأعراف الآية 55: (لقد أرسلنا نوحا إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله
ما لكم من إله غيره إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم).

(فكذبوه فأنجيناه والذين معه في الفلك وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا إنهم
كانوا قوما عمين) آية 64.

وفي سورة يونس الآية 73: (فكذبوه فنجيناه ومن معه في الفلك وجعلناهم
خلائف وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا فانظر كيف كان عاقبة المذنبين).

وفي سورة هود الآية 32: (قالوا يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا فأتنا
بما تعدنا إن كنت من الصادقين).

(وأوحى إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن فلا تبتئس بما
كانوا يفعلون.. واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم

(حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول ومن آمن وما آمن معه إلا قليل 40 وقال اركبوا فيها باسم الله مجراها ومرساها إن ربي لغفور رحيم 41 وهي تجري بهم في موج كالجبال ونادى نوح ابنه وكان في معزل يا بني اركب معنا ولا تكن مع الكافرين 42 قال سآوي إلى جبل يعصمني من الماء قال لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم وحال بينهما الموج فكان من المغرقين 43 وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي وغيض الماء وقضى الأمر واستوت على الجودي وقيل بعدا للقوم الظالمين 44 ونادى نوح ربه فقال رب إن ابني من أهلي وإن وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين 45 قال يا نوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح فلا تسألن ما ليس لك به علم إنني أعظك أن تكون من الجاهلين 46 قال رب إنني أعوذ بك أن أسألك ما ليس لي به علم وإلا تغفر لي وترحمني أكن من الخاسرين 47 قيل يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب ألِيم 48 تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقين 49).

وهناك آيات قرآنية تحدثت عن النبي نوح عليه السلام ولكن الآيات التي وردت في سورة هود توضح مجرى الأحداث مع النبي نوح عليه السلام. وتربط مقدمة القصة بنتائجها، فهي أوضح صورة لما جرى معه في ذلك الزمن الغابر الذي لم يشر إليه القرآن الكريم بالتحديد.

ونبين الآن أوجه التوافق والاختلاف بين ما ورد في التوراة وما ورد في القرآن الكريم:

النص التوراتي:

- 1 - أولاد نوح سام وحام ويافث.
- 2 - الرب يندم على خلقه للإنسان وجعله في الأرض ثم نية انتقامه من الإنسان والحيوان عليها.
- 3 - نوح رجل بار لله والأرض تمتلئ شرورا وفسادا.
- 4 - قصة الطوفان وإقامة عهد الله مع نوح وأبنائه وامراته ونساء أولاده.
- 5 - الطوفان وموت كل جسد حي على وجه الأرض.
- 6 - شفقة الرب على ما فعل وتراجعته عن لعنة الأرض وإفناء البشرية.
- 7 - ذكر كنعان على أنه ابن حام وقصة شرب نوح للخمر وسكره وتعريه ومن ثم لعنته على كنعان.
- 8 - عمر نوح.

أما القرآن الكريم فإنه يورد قصة نوح منتشرة في عدد من السور والآيات وإذا رتبناها حسب التسلسل نجد مايلي:

- 1 - أرسل الله نوحا إلى قومه منذرا ناهيا عن عبادة الأصنام، تكذيب قومه له وجدالهم معه.
- 2 - إيمان القلة من الناس بما أوحى إلى نوح دون تحديد لأولاده أو غيرهم.
- 3 - الأمر بصناعة الفلك تحت رعاية الله ونظره والأمر بحمل زوجين من كل صنف من الحيوانات.
- 4 - ابن نوح الذي كفر بدين أبيه وغرقه ومحاولة نوح إنقاذه...
- 5 - انتهاء الطوفان.
- 6 - إخبار الله لنوح بأن من حملهم معه سيكون فيهم الصالح والكافر.

7 - خطاب الله للرسول محمد صلى الله عليه وسلم بأن ذلك من أنباء الغيب (قصة نوح) فخذ العبرة منها واصبر على إيذاء المشركين لك فإن العاقبة الراضحة للصابرين المتقين.

يتفق القرآن مع التوراة بأن نوحا هو النبي المرتبط اسمه بالطوفان. ويتفق أن الطوفان قد حدث وما عدا ذلك فالأمور تختلف وتحتاج لتحليل ومناقشة وقد كنت التوراة بقولها، إلا أن نوحا وجد نعمة في عيني الرب - عن كونه نبيا وقد ورد ذكر ذلك متكررا مع عدد كبير من أنبياء التوراة.

تورد التوراة سلسلة بشرية لتصل إلى لامك وهو أب لنوح وتمهد بقولها على لسان لامك قائلا: هذا يعزينا عن عملنا وتعب أيدينا من قبل الأرض التي لعنها الرب.

فيبدو من خلال هذا الكلام تركيز التوراة مسبقا على أن نوحا سيكون صالحا. وهذا يذكرنا بقول اليهود أن شعب اليهود نفسه جاء عن طريق الانتفاء للأفضل حتى يصلوا إلى إبراهيم ومن ثم إلى يعقوب واليهود.

ثم تورد التوراة أن شرورا كثيرة انتشرت في الأرض مما أدى بالتالي إلى ندم الرب على إيجاد الإنسان في الأرض ومن ثم تدميره لبني البشر.

بينما القرآن يتحدث بصريح العبارة أن الله أرسل نوحا إلى قومه لأنهم انحازوا عن عبادة الله الواحد. غير أن القرآن الكريم يوضح أن نوحا أرسل إلى قومه منذرا، فهناك مهمة كلف بها هذا النبي.

وطبيعي أن وجود إبليس الذي يمثل الشر والفتنة منذ أن أنزل إلى الأرض وقول الله تعالى اهبطوا بعضكم لبعض عدو دليل على أن البشرية آيلة إلى الصراع بين الخير والشر فكيف إذا يندم الله على صنع الإنسان وتسخير الأرض له. كيف يحزن الرب لما فعل ثم ينوي على تدمير البشرية؟.

لقد خلق الله الإنسان الأول (آدم) ثم أخطأ هذا المخلوق ثم أهبطه الله إلى الأرض ليعمرها ويصارع الشر الذي سينشره الشيطان. ويكون امتحان وموت وبعث وحساب فانحياز قوم نوح إلى عبادة الأصنام وبعدهم عن عبادة الله الواحد يأتیان ضمن سياق القدر الإلهي الذي ينفذ على الأرض متمثلاً بالصراع بين الكفر والإيمان. فلا حاجة لندم متخيل من قبل الرب ولا حاجة لحزن متخيل من قبله أما تدمير قوم نوح فهذا أمر طبيعي جرت نواميسه مع كثير من الأقسام اللاحقة والتي ورد ذكرها في القرآن الكريم لقد غفلت التوراة وتغافل كتابها عن أن ما سيجري هو في علم الله الأزلي فلا يعقل أن يخلق الله البشر ولا يعرف ما سنؤول إليه أفكارهم. لقد تأسف الله حسب رأي التوراة على خلق الإنسان فقرر أن يمحو البشر والدواب والطيور وكأن ما حدث من انحراف لدى البشر هو خارج عن معرفة الرب لما سيحدث.

تشير التوراة فجأة إلى قول الله لنوح أنا مهلكهم مع الأرض اصنع لنفسك فلماً من خشب جفر.

بينما نرى في القرآن الكريم جدالاً يدور بين نوح وقومه حول العودة لعبادة الله الواحد وترك الأصنام. وهذه مهمة نوح بالدرجة الأولى وظل جداله معهم دون أن يعرف ما سيحكم الله في أمرهم. ولما زاد تعنتهم قالوا له لقد جادلنا فأكثرنا جدالنا وهذا يعني تماماً إصرارهم على ما هم فيه عند ذلك حدّث نوح ربه أن قومي عصوني ولم أترك أسلوباً معهم إلا واستخدمته وهنا طبعاً مهمة النبي أي نبي في إصلاح قومه يقول تعالى في سورة نوح:

(قال يا قوم إني لكم نذير مبين، أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون. يغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر لو كنتم تعلمون. قال: رب إني دعوت قومي ليلاً ونهاراً. فلم يزدتهم دعائي إلا فراراً. وإني كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا

واستكبروا استكباراً. ثم إني دعوتهم جهاراً ثم إني أعلنت لهم وأسررت لهم إسراراً. فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفاراً. يرسل السماء عليكم مدراراً ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهاراً. ما لكم لا ترجون الله وقاراً. وقد خلقكم أطواراً. ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقاً وجعل القمر فيهن نوراً. وجعل الشمس سراجاً. والله أنبتكم من الأرض نباتاً ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجاً والله جعل لكم الأرض بساطاً. لتسلكوا منها سبلاً فجاجاً (الآيات من 2-20).

فلاحظ في هذه الآيات أن نوحاً دعا قومه إلى التوحيد ليلاً نهاراً وبين لهم أن الله يغفر من ذنوبهم الكثير فلم يزدهم كفرهم إلا فراراً. وكلما دعاهم صموا آذانهم واستكبروا ودعاهم علانية وسراً وأوضح لهم أنهم لو عادوا عن كفرهم سيمدهم الله بالأموال والبنين والجنان والأنهار. ثم بين لهم الأسباب المنطقية التي توجب عودتهم إلى الله. فالله خلقهم أطواراً وخلق السموات والقمر والشمس وأنبتهم من الأرض ثم سيعيدهم إليها. وجعل لهم الأرض بساطاً وطريقاً ليعيشوا بأمان واطمئنان.

وعلى الرغم من كل ذلك فإنهم ظلوا على كفرهم ولم يؤمن بنوح سوى قلة من الناس. وهذا ما أوجب عقابهم من قبل الله سبحانه.

إذا فتدمير البشر من قوم نوح لم يأت هكذا عبثاً أو فجأة. إن هناك نبياً ودعوة إلى التوحيد. استمرت طويلاً حتى وصلت إلى حد لا رجعة فيه فكان العقاب.

تورد التوراة أن نوحاً حمل معه في الفلك ثلاثة من أبنائه مع نسائهم.

ولم يرد ذكر ذلك في القرآن إذ أن القرآن الكريم أورد أن الذين أخذهم نوح معه هم من الذين آمنوا معه وهم قلائل. وإذا كان نوح قد جلب معه أولاده

الثلاثة فإنه يكون قد حملهم معه لأنهم مؤمنون برسالته فهم حسب ذلك من القلة الذين آمنوا برسالته.

ولم تشر التوراة لا من قريب ولا من بعيد إلى ابن نوح الذي كفر بالله وجادل أباه بشأن نجاته إذا تاب. ولا ندري ما إذا كان لهذا الابن أبناء أو كان متزوجاً إنما هو إنسان عاقل يعرف التمييز بين الإيمان والكفر وقد آثر الكفر على الإيمان فغرق مع المغرقين بينما تورد التوراة أن نوحاً أخذ معه في الفلك أولاده الثلاثة مع نسائهم، فهل كان أولاده الثلاثة ونسائهم من الذين آمنوا؟ هذا ما لم يقره القرآن الكريم.

وتصور التوراة ندم الرب على فعله الطوفان. فقال الرب في قلبه لا أعود ألعن الأرض ولن أعود فأमित كل حي. نلاحظ هنا أن الرب حسب التصور التوراتي متقلب الأهواء. فساعة يندم لما خلق وساعة يفني البشرية ثم يعود فيندم على عمله. فهذه الصفات لا تنطبق على إله هو الكامل في صفاته. هو الذي خلق فدبر الخلق وفي عمله الأزلي كل ما مضى وكل ما سيأتي إلى يوم الدين. فهذا الرب الذي تتحدث عنه التوراة ليس رباً خالقاً وسع علمه كل شيء بل هو إله مزاجي كما رأينا وجل شأنه أن يكون بمثل ما وصفته التوراة.

ويرد في التوراة مرة أخرى أن أولاد نوح هم ثلاثة سام وحام ويافت. وتذكر أن نوحاً بدأ يزرع الأرض كرمة وباختصار شديد جداً ينضج العنب ويعصره نوح ويصنع منه خمرأ ثم يشرب من الخمر فيسكر ويتعري.

فأين هذا مما ورد في القرآن؟ فماذا قالت التوراة لا يليق نبي. وبالطبع لسنا نرى أكثر تشويهاً من هذا التشويه. ونتساءل في صدد ذلك من أين استقتت التوراة هذه المعلومة فإذا كانوا يعتقدون أن التوراة هي كلام الرب ولا سيما أسفارا موسى فكيف يليق بهذا الرب أن يتحدث عن نبي اصطفاه هذا الحديث؟ ألم يجد نوحاً نعمة في عين الرب فكيف يتحدث الرب عن نوح بهذا الشكل

المخزي. فهو يسكر ويتعري ويفقد توازنه ثم يصحو فيرى نفسه وقد سُترت عورته ويعرف بحسه الداخلي أن حاماً ابنه قد سخر منه.

نوح موجود بعد الطوفان. لكننا نكتشف أن سياق الحديث في التوراة وتسلسله يوحيان بأن لعنة نوح تمت على كنعان قبل أن يأتي إلى الوجود.

على أية حال فإن اللعنة إن تمت من قبل نوح بعد أن وُلد كنعان فهذا يعني أن كنعان الذي ارتحل إلى فلسطين والساحل الشامي وشكل مع أبنائه وأحفاده حضارة ما فإنه يعني أنه هاجر في زمن نوح أي وهو حي. لأن التوراة ترى أن نوحاً عاش بعد الطوفان أكثر من ثلاث مئة سنة وهذه السنون كفيلة منطقياً أن يتكاثر خلالها نسل أولاد نوح ويبلغون المئات إن لم نقل الآلاف.

وما نريد أن نصل إليه هو أن وجود كنعان والكنعانيين على أرض فلسطين هو أسبق بكثير من ألفي عام من ظهور أول عبراني على وجه الأرض.

وفي جميع الأحوال نرى (أن التوراة عند عرضها للحوادث التاريخية لم تحدد التسلسل الزمني ولم تنسق الحوادث بحسب أزمانها وأدوارها وذلك لكي يلبس الأمر على القارئ فيعجز عن تحديد مراحل الأحداث التاريخية وتتبع كل زمن منها)⁽¹⁾.

وهذا بالطبع ما فعلته التوراة حين أغفلت ذكر زمن مولد حام وزمن مولد كنعان وأبنائه وقد يتساءل بعضنا لماذا لم ترد تفصيلات قصة نوح ولعنته على حفيده كنعان في القرآن الكريم؟.

وكما قلنا إن هذه التفصيلات كتبت زمن احتدام الصراع بين الغزاة العبرانيين وأهل فلسطين. فهي كتابة تمت على يد البشر ولم تكن لترد في التوراة الموسوية التي أنزلها الله حقاً على موسى عليه السلام.

(1) د. أحمد سوسة، العرب واليهود في التاريخ، الطبعة 2، صفحة 181.

والقرآن الكريم عندما يتحدث للرسول صلى الله عليه وسلم عن الأقوام السابقة وخاصة الأنبياء وأقوامهم فإنه أي القرآن لم يقصد التفصيل التاريخي لأنه ليس كتاب تاريخ كما التوراة. وكما ورد كثيراً في القرآن الكريم فإن القصد يرتبط بأمور أخرى تدلنا على غايات كبرى.

ففي سورة طه الآية 99 يقول تعالى: (كذلك نقص عليك من أنباء ما قد سبق وقد أتيناك من لدنا ذكراً).

وفي سورة آل عمران الآية 44: (ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم...).

وفي سورة يوسف آية 3: (نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين).

وفي سورة الكهف آية 13: (نحن نقص عليك نبأهم بالحق إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى).

وفي سورة الأعراف الآية 2: (كتاب أنزل إليك فلا يكن في صدرك حرج منه لتنذر به وذكرى للمؤمنين).

فآيات القرآن الكريم التي تتحدث عما سبق من أحداث وعمن سبق من رجال لم يحدد زمنها إذ ليس الغاية سوى الحكمة والعبرة والتحدي بعلم الغيب. على الرغم من أن القرآن الكريم يعطينا مفاتيح جميع العلوم ويترك للعقل البشري عملية التحليل والاستنباط.

ويرد في التوراة كما رأينا أن حاماً هو أبو كنعان ولم يرد ذكر شيء عن أبناء سام أو يافث رغم أن التوراة في صفحات لاحقة تشير بوضوح وبشكل مفصل كيف جاء أبناء سام ويافث وكيف توزعوا في الأرض لكن التركيز بدأ كأنه أهم ما ذكر ولأسباب كثيرة نناقشها.

فذكر اسم كنعان مرتبط بأرض كنعان وهي فلسطين. ولما كانت التوراة قد
دُونت بعد موت النبي موسى بـ مئآت السنين فقد كان الصراع على أشده بين
الغزاة اليهود وبين سكان فلسطين من العرب الكنعانيين. وحتى يجد العبرانيون
مبرراً للحرب والإبادة فقد أضافوا أو اخترعوا قصة كنعان ابن حام.

ولماذا كنعان بالذات؟ لأن أبنائه هم أصحاب الأرض الفلسطينية وأمر
طردهم وقتلهم هو من الرب أنزله من عنده كما ترى التوراة.

ويصب نوح لعنته على كنعان ابن حام وليس على حام نفسه باعتباره هو
الذي سخر منه أثناء سكره وتعريه.

يقول جورج كنعان (وجاء الأب الأول نوح الناطق باسم يهوه يوزع
البركات واللعنات بين أبنائه بعد ليلة سكر وتعري، يجلل واحداً بالسيادة ويصم
آخر بالعبودية وكأن الإحساس الإنساني نضب في صدر الإنسان الأول بعد
الطوفان فكانت اللعنة الأولى باعثاً للعداء والحقْد العنصري. ففي العائلة البشرية
الأولى بعد الطوفان يبدأ نوح كما أراد له الكاتب العبري العنصري بلعنه أحد
أبنائه ومباركة آخر. ويصنف أبنائه بين ملعون يبقى عبداً لأخيه ومبارك يبقى
سيداً لأخيه. فنوح العنصري يلعن باسم يهوه أبا الكنعانيين ويبارك أبا
اليهود)⁽¹⁾.

في القرآن الكريم لم ترد قصة لعنة نوح. ولما جاء القرآن جامعاً لكل شيء
إن كان بالتصريح أو الرمز أو الإشارة فإن عدم إشارته لحادثة اللعنة تثبت أن
اليهود لفقوا وحرّفوا واخترعوا ما يناسب أهواءهم. وقصة اللعنة مخترعة من
أساسها أضافها الكاتب اليهودي في عصر احتدام الصراع بين الغزاة العبرانيين
وأصحاب الأرض الفلسطينية الكنعانية.

(1) العنصرية اليهودية، جرجي كنعان دار النهار - بيروت ط1، 1983 صفحة 43.

وعلى رأي التوراة التي تنسب كنعان إلى حام بن نوح فإنه يعتبر جداً للكنعانيين وعلى ذلك لا بد من الإشارة لعدة أمور:

تقول التوراة (وعاش نوح بعد الطوفان ثلاث مئة وخمسين سنة فكانت كل أيام نوح تسع مئة وخمسين سنة ومات) تكوين 28/9.

وتقول: (إنه ركب في السفينة مع أولاده سام وحام ويافث وكل منهم له زوجة حيث ورد كما أشرنا إلى أنه حمل في السفينة ثلاث نساء بنيه).

وعلى هذا فإن نوحاً عاش بعد أن كان لديه من الأبناء ثلاثة وكلهم متزوجون فإن لم تشر التوراة إلى أحفاده وهو حي فإن ما يستخلصه المرء أن كنعان بن حام كان قد وُلد وجده ما زال حياً.

ملاحظات حول الطوفان:

أسهم باحثون كثيرون في دراسة ظاهرة الطوفان حسب ما جاء في التوراة وقدم بعضهم مقارنة بالنصوص القرآنية التي تناولت هذا الحدث الكبير.

وكان لموريس بوكاي رأي في ذلك وأورد ما قاله هذا العالم الفرنسي باعتباره وثيقة علمية تناولت هذا الحدث.

يقول بوكاي: ليس في التوراة رواية واحدة فقط عن الطوفان بل هناك روايتان ولكنهما حررتا في عصور مختلفة.

1 - الرواية اليهودية التي ترجع إلى القرن التاسع قبل الميلاد.

2 - الرواية الكهنوتية التي ترجع إلى القرن السادس قبل الميلاد والتي أخذت هذا الاسم لأنها من تأليف كهنة هذا العصر.

ولا تأتي هاتان الروايتان كل إلى جانب الأخرى وإنما تتشابكان وتتداخل عناصر إحداهما في عناصر الأخرى. وتتعاقب فقرات كل مصدر بالتبادل مع

فقرات المصدر الآخر.

وتشير تعليقات ترجمة سفر التكوين للأب ديفو الأستاذ بمدرسة الكتاب المقدس بالقدس إلى هذا التوزع للفقرات بين المصدرين. فالرواية تبدأ وتنتهي بفكرة يهودية وهناك بالإجمال 10 فقرات يهودية وبين كل فقرتين منها توجد فقرة من النص الكهنوتي. هذه النصوص متعددة الأصول ولا تتمتع بالوضوح إلا من حيث تعاقب الأحداث. فبين النصين توجد تناقضات صارخة ويقول الاب ديفو (إنهما حكايتان للظوفان تختلف فيهما العوامل التي أدت إلى الطوفان كما يختلف زمن وقوعه ويختلف عدد الحيوانات التي شحنها نوح بالسفينة).

إن رواية الطوفان في العهد القديم غير مقبولة في إطارها العام وذلك لسببين يتضحان على ضوء المعارف الحديثة.

أ - يعطي العهد القديم للظوفان طابعاً عالمياً.

ب - على حين لا تعطي فقرات المصدر اليهودي للظوفان تاريخاً. تحدد الرواية الكهنوتية زمن الطوفان في عصر لم يكن من الممكن أن تقع فيه كارثة من هذا النوع. والحجج التي يستند إليها هذا الحكم هي ما يلي:

تحدد الرواية الكهنوتية أن الطوفان قد حدث عندما كان عمر نوح 600 عام غير أنه من المعروف بحسب الأنساب المذكورة في الإصحاح الخامس من سفر التكوين أن نوحاً ولد بعد آدم ب 1056 عاماً (وهذه الأنساب كهنوتية المصدر هي أيضاً). وينتج عن ذلك أن الطوفان قد وقع بعد 1656 عاماً من خلق آدم. ومن ناحية أخرى فجدول نسب إبراهيم الذي يعطيه سفر التكوين يسمح بتقدير أن إبراهيم قد ولد بعد الطوفان ب 292 عاماً ولما كنا نعرف أن إبراهيم كان يعيش في حوالي 1850 ق.م فإن زمن الطوفان يتحدد إذن على حسب التوراة ب 21 - 22 قرناً قبل المسيح وهذا الحساب يتفق بمنتهى الدقة مع إشارات كتب التوراة القديمة التي تحتل فيها هذه التحديدات المتسلسلة مكاناً طيباً قبل نص التوراة

وذلك في عصر كان الافتقاد إلى المعلومات الإنسانية في هذا الموضوع يجعل معطيات هذا التسلسل التاريخي للأحداث مقبولة بلا جدل لدى قرائها. حيث أنه لم يكن هناك أيضاً أي حجج مضادة.

كيف يمكن اليوم تصور أي كارثة عالمية قد دمرت الحياة على كل سطح الأرض باستثناء ركاب السفينة في القرن 21 - 22 ق.م؟ ففي ذلك العصر كانت هناك على نقاط عدة من الأرض حضارات قد ازدهرت وانتقلت أطلالها إلى الأجيال التالية. وبالنسبة لمصر على سبيل المثال كانت تلك الفترة الوسطى التي تلت نهاية الدولة القديمة وبداية الدولة الوسطى وبالنظر إلى ما نعرف عن تاريخ هذا العصر فإنه يكون مضحكاً القول بأن الطوفان قد دمر في ذلك العصر كل الحضارات.

وعلى ذلك ومن وجهة نظر تاريخية فيمكن أن نتأكد أن رواية الطوفان مثلما تقدمها التوراة تتناقض بشكل واضح مع المعارف الحديثة.

أما رواية القرآن للطوفان. فإن القرآن يقدم رواية شاملة مختلفة ولا تشير أي نقد من وجهة النظر التاريخية.

لا يقدم القرآن عن الطوفان رواية مستمرة فهناك سور عديدة تتحدث عن العقاب الذي وقع على شعب نوح.

وعلى حين تتحدث التوراة عن طوفان عالمي لعقاب كل البشرية الكافرة يشير القرآن على العكس إلى عقوبات عديدة نزلت على جماعات محددة جداً.

وعلى ذلك فالقرآن يقدم حادثة الطوفان باعتبارها عقاباً نزل بشكل خاص على شعب نوح وهذا يشكل الفرق الأساسي الأول بين الروايتين.

أما الفرق الجوهرى الثانى فهو أن القرآن على عكس التوراة لا يحدد زمن الطوفان ولا يعطى أية إشارة عن مدة الكارثة نفسها.

إن رواية القرآن تتضح خالية من أي عنصر مثير للنقد الموضوعي⁽¹⁾.

أما الدراسات التاريخية والكشوف الأثرية فقد رفضت مقولة إن كنعان هو ابن حام. وقد أكدت أن الكنعانيين هم عرب جاؤوا من جنوب شبه الجزيرة العربية في حوالي عام 3000ق.م حيث لم يكن في هذا الوقت عبرانيون على أرض الوجود، ومسألة كون كنعان بن حام هو حفيد نوح مسألة تخص التوراة وحدها والتزوير وحده، ولا علاقة لهذه المسألة بالمنطق التاريخي العلمي أو الأسطوري الميثولوجي، ثم ليس ما يثبت أن لنوح ثلاثة أولاد هم سام وحام ويافث. وإلى جانب رفض الدراسات التاريخية فإن القرآن الكريم يرفضها كما أوردنا سابقاً. إن كلمة سام والشعوب السامية مصطلح أطلق في القرن الثامن عشر والذي أطلقه المؤرخ والباحث النمساوي (تسلوتس) عام 1781 مستنداً في ذلك على التوراة. وقد أكد الدكتور جواد علي في كتابه (تاريخ العرب قبل الإسلام أن مصطلح شعوب سامية مصطلح مبهم بينما مصطلح شعوب عربية أقرب إلى المنطق العلمي لأن هذه التسمية ملموسة المفهوم. وقد أطلق اليونان والرومان اسم العرب على سكان الجزيرة العربية منذ الألف الأول ق.م أي قبل نشر مصطلح شعوب سامية بحوالي 2000 عام).

وليس مصادفة إذ أن يختار اليهود أرض كنعان العربية ليستعمروها ويستوطنوها. فبعد صب لعنة نوح على حفيده صار اليهود ينسجون القصص والأقاويل حول انحطاط سكان فلسطين من العرب الكنعانيين وما زالت هذه النظرية تمارس إلى اليوم.

(1) موريس بوكاي، القرآن والتوراة والإنجيل والعلم، جمعية الدعوة الإسلامية، ليبيا طرابلس دون تاريخ ص 244.

الطوفان واقعة حقيقية وليست أسطورة:

شغلت حادثة الطوفان ساحة واسعة من الدراسات المختلفة. وقد اعتمد دارسو العهد القديم في دراساتهم عن الطوفان على ما أورده التوراة باعتباره الكتاب الأقدم بين المدونات التاريخية. بينما راح بعض العلماء المتخصصين بعلم الآثار والجغرافيا والجيولوجيا يبحثون في الأرض عن معطيات جيولوجية وجغرافية علمهم يجدون فيها شيئاً مما يثبت صحة وقوع الطوفان بيد أن بعض الدارسين وجدوا في حادثة الطوفان أسطورة تتكرر لدى كثير من الشعوب. ولم يجدوا أي دليل علمي يثبت أن الطوفان واقعة حدثت بينما راحوا يدرسونها في التوراة وفي أساطير الشعوب القديمة على أنها أساطير وملاحم صنعها خيال الناس.

وقد شاعت قصة الطوفان في كثير من بقاع الأرض مما جعل بعض الباحثين يقف موقف الحائر بين أن يميل إلى القول بأن الطوفان حقيقي وبين القول بأنه أسطورة.

(إن شيوع أساطير الطوفان والدمار الشامل في جميع أنحاء العالم يثير مسائل شتى تتعلق بتفسير هذا النوع من الأساطير وبواعث نشأتها، فهل تنقل هذه الروايات المرعبة أحداثاً تاريخية وقعت في أزمان سحيقة قبل التاريخ المكتوب وترسخت في ذاكرة الشر. إن هذا التفسير رغم جاذبيته لا تؤكد الدراسات الجيولوجية والأركيولوجية حتى الآن. أم هل كشفت هذه الأساطير عن حقائق نفسية ونوازع خافية باطنة؟ هل هي طغيان النزعات التدميرية الكامنة في لا شعور البشر ورغبة لا واعية في تدمير الذات. هل هي إحساس عارم بالإحباط من حضارة تسير دوماً في اتجاه مخالف لسعادة الإنسان. حضارة يجب تدميرها كلما أحكمت حلقاتها وضيقت خناقها على صانعيها أسئلة

أتركها بلا جواب⁽¹⁾.

فهذا شاهد على ما تركته حادثة الطوفان من أثر في عقول بعض الباحثين. فلا هم يجزمون بوقوعها ولا هم يؤكدون أنها أسطورة لأنهم لم يجدوا الجواب الشافي لذلك.

بينما راح باحثون آخرون يدرسون الظاهرة على ضوء بعض الدراسات الجغرافية والجيولوجية محاولين بذلك دحض مزاعم توراتية حول قصة النبي نوح والطوفان.

يقول عبد الرحمن غنيم (إن سفينة نوح التي أعيوا النفس في البحث عنها لتكون مصداقاً لما خطه كتبة التوراة عن الطوفان هي في مجابهة الغزو الصهيوني الراهن لمنزل أمتنا المبارك آية)، ثم يقول لقد فار التنور في منزل نوح في (فزان) أو قربها عام 6600ق.م إيداناً بالصعود إلى الفلك وسيحفر الآثاريون هناك بحثاً عن التنور لكنهم سيجدون التنور (الطابون) وقد انتقل إلى بلدة أبو غوش وبلدة بيسمون في فلسطين وإلى بلدة لبوه وغيرها في لبنان وإلى تل الرماد في دمشق وتل أسود في الشمال السوري وتل الصوان في العراق خلال مئات السنين التي أعقبت وصول السفينة إلى الجودي في فلسطين.

ثم يدرس هذا الباحث طبيعة الوديان والجبال والأمطار والسيول ليصل إلى نتيجة تفيد بأن مسار سفينة نوح بدأ من غرب مصر وامتد حتى بلاد الشام والجزيرة⁽²⁾.

أما وجهة النظر الإسلامية فتستند إلى آيات القرآن الحكيم المنزل من عند الله سبحانه وتعالى وكل ما أنزل في القرآن هو حقيقة ولا سيما قصص الأنبياء.

(1) فراس السواح: مغامرة العقل الأولى. دار الكلمة للنشر. لبنان 1981 ص 124 - 125 ط ثانية.

(2) روان سر الأسرار. عبد الرحمن غنيم دار الجليل، دمشق عام 1991، الطبعة الأولى، صفحة 29 -

وكلام الله سبحانه ليس أسطورة ولا تراثاً شعبياً حتى يتأوله الباحثون في الأسطورة.

ونحن بدورنا على الرغم من إيماننا الراسخ بأن طوفان نوح حقيقة وقعت إلا أن وجهة نظرنا تستند أيضاً إلى معطيات تؤكد حقيقة الحدث وواقعيته.

الطوفان في مدونات الشعوب:

لم تنحصر قصة الطوفان في التوراة والقرآن الكريم بل انتشرت في مدونات الشعوب القديمة قريبها وبعيدها ولا سيما في خطوطها العامة والرئيسية. وهذا الانتشار دليل واضح على وقوع الطوفان وإلا كيف تدون الحادثة عند السومريين والبابليين واليونان والعبرانيين ثم يوحى القرآن الكريم إلى النبي صلى الله عليه وسلم ويخبره بأن قصة الطوفان قد حدثت فعلاً مع نبي الله نوح عليه السلام.

وإذا تعرفنا على ما دون لدى الشعوب وجغرافية المناطق من حيث تواجدها وتوضع شعوبها أدركنا أن هناك مناطق في الوطن العربي تناقل سكانها حادثة الطوفان باعتبارها حدثاً وقع فعلاً. ومن ثم تفتحت عيوننا على دراسة مقارنة بين ما دونوه، وما مدى الاختلافات والاتفاقات بينهم وبالمحصلة نستطيع أن نصل إلى معرفة الأسبق في التدوين وما دور العبرانيين في ذلك.

هل ما جاء في التوراة هو كلام الله الذي أنزل على موسى؟ أم أن التوراتيين نقلوا حادثة الطوفان عن البابليين أثناء السبي باعتبار أن تدوين التوراة تم أثناء ذلك؟

هذا السؤال الذي يطرح نفسه لا بد له من إجابة منطقية حتى ندرك أن النص القرآني هو الحق والنص التوراتي هو الذي شوّه شخصية نوح عليه السلام واخترع شخصية كنعان جد الكنعانيين ليلعنها نوح ويكون الصراع المستقبلي مع سكان فلسطين بسبب لعنة إلهية أو نبوية.

أما مدونات السومريين فتقول إن الآلهة قررت إفناء البشرية بواسطة طوفان يغمر الأرض إلا أن بعض الآلهة تظهر عدم رضائها عن ذلك القرار. فالآلهة الخصب والحب (أنانا) تنوح وتبكي مصير البشر المفجع وهذا إنكي إله الحكمة يخرج عن إجماع الآلهة ويأخذ على عاتقه إنقاذ بذرة الحياة على الأرض. يتصل إنكي بالملك زيوسودرا وكان إنساناً تقياً صالحاً فيحدثه من وراء حجاب كاشفاً نوايا الآلهة شارحاً له خطته لإنقاذ الحياة. والتي تتلخص في قيام زيوسودرا ببناء سفينة كبيرة لحمل الزمرة الصالحة من البشر وبعض الحيوانات.

وتصف لنا المقاطع الموجودة في الألواح السومرية التي عثر عليها في مدينة نمر السومرية السفينة أثناء الطوفان وتحدثنا عن قيام زيوسودرا بذبح ثور وكبش قرباناً للآلهة بعد نجاته وبعد انتهاء الطوفان يكافأ زيوسودرا على علمه بإعطائه نعمة الخلود وإسكانه في أرض دلمون جنة السومريين.

أما مدونات البابليين فقد اكتشفها عالم الآثار الإيطالي جورج سميث عام 1872 وقد توصل إلى حل رموز أحد الألواح الموجودة في مكتبة بانبيال الحاوي على نص عن الطوفان مشابه للنص التوراتي.

وقد أثار هذا الإعلان الكثير من الحماس وتم الكشف عن ألواح ملحمة جلجامش الإثني عشر والتي تغطي حادثة الطوفان معظم اللوح الحادي عشر.

يصل جلجامش إلى أوتنابشتيم الإنسان الذي مننت عليه الآلهة بالحياة الخالدة يسأله عن سر الخلود وكيف الحصول عليه. فيقص عليه أوتنابشتيم قصته مؤكداً أن ما حصل له هو أمر فريد لن يتكرر بسهولة لأحد من الناس ويكشف له أسرار واقعة الطوفان الكبير.

وفي أحد النصوص البابلية يرد ما يلي: قوض بيتك وابن سفينة، اهجر ممتلكاتك وانج بنفسك اترك متاعك وأنقذ حياتك. اعمل على حمل بذرة كل ذي حياة والسفينة التي أنت بانيتها ستكون وفقاً لمقاسات مضبوطة. فيكون

عرضها معادلاً لطولها.

ثم يرد ساهبط إلى إبسو أعيش مع مولاي أيا. وعلي الآن أن لا أبقى في
مدينتكم. أما أنتم فسينزل عليكم مطر وافر.

ويقول: وبعد أن أدخلت إليها أهلي وأقاربي جميعاً وطرائد البرية
ووحوشها وكل أصحاب الحرف عين لي الإله (شمش) وقتاً محدداً. وعندما
يرسل سيد العاصفة مطراً مدمراً في المساء أدخل الفلك واغلق عليك بابك. وما إن
أزف الموعد حتى أرسل سيد العاصفة مطراً مدمراً في المساء. وما أن لاحت
تباشير الصباح حتى علت الأفق غيمة كبيرة سوداء يجلجل في وسطها حد.

ويتابع: عصفت الريح العاتية يوماً كاملاً. أتت على الناس فحصدتهم
كما الحرب.

ناحت سيدة الآلهة ذات الصوت العذب لقد آلت إلى طين تلك الأيام
القديمة ذلك بأنني نطقت بالشر في مجمع الآلهة. فكيف استطعت أن آمر بمثل
هذا الشر كيف استطعت أن آمر بالحرب لتدمير شعبي.

سنة أيام وست ليال. والرياح تهب والعاصفة وسيول المطر تغطي على
الأرض. ومع حلول اليوم السابع. العاصفة والظوفان خففت من وطأتها. وأخذ
البحر يهدأ والعاصفة تسكن والظوفان يتوقف.

ويتابع: واستقرت السفينة على جبل نصير أمسك الجبل بالسفينة
ومنعها من الحركة ومضى اليوم الأول والثاني والجبل ممسك بالسفينة وعندما
حل اليوم السابع أتيت بحمامة وأطلقتها في السماء. لم تجد مستقراً فأبت.
الخ⁽¹⁾.

(1) هذه النصوص منقولة من كتاب فراس السواح. مغامرة العقل الأولى الذي سبق ذكره ص 132 -

ولدى المقارنة بين النص التوراتي والنصين السومري والبابلي نجد أن تشابهاً كبيراً يقع بينهما فإنه الطوفان عند التوراتيين هو (يهوه) وإله الطوفان في النص البابلي هو الإله إنليل.

والغرض من الطوفان لدى النصين هو تخليص الأرض من الفساد الأخلاقي.

أما بطل الطوفان السومري فهو زيوسودرا. والكلمة تعني الذي وضع يده على العمر المديد أما اسم أوتنابشتيم فيعني الذي رأى الحياة. ونوح حسب النص التوراتي يعمر كثيراً. فهذا تشابه واضح بين الشخصيتين. وهناك تشابه في حجم السفينة. فهي (ماجور) في المدونات السومرية وتعني عملاقة. وهي الهيكل العظيم عند البابليين. وركاب السفينة هم من الناس والحيوان على أن النصوص تتشابه بأن بطل السفينة حمل معه أهله وأقاربه. وسبب الطوفان مياه الأمطار والأمطار السفلية في النص التوراتي والنص السومري والنص البابلي.

والسؤال الذي يطرح نفسه هل اعتمد النص التوراتي على النص البابلي أو أي من النصوص الأخرى؟

الواضح أن بعض الباحثين أجاب بنعم مع بقاء الاحتمال قائماً في رجوع النصوص جميعاً إلى نص أقدم أو إلى رواية بقيت في أذهان الشعوب التي عاشت في المنطقة العربية وهي على ديانة توحيدية سابقة. والواقع أن الهيكل العام للرواية التوراتية ينطبق بكل خطوطه العريضة وبكثير من تفاصيله على النص البابلي حتى أن بعض التعابير تكاد تنطبق بحرفية مطلقة⁽¹⁾.

لقد قلنا قبل صفحات أن تدوين التوراة قد تم أثناء السبي البابلي ولا شك أن هذا التدوين قد وقع تحت تأثير العقلية البابلية حيث من المعروف أن

(1) فراس السواح، مغامرة العقل الأولى، صفحة 155.

الضعيف يقلد الأقوى والأمة المغلوبة تقلد الأمة الغالبة.

ولا شك أننا حينما نرى الإله التوراتي يندم على تدميره للأرض وقضائه على الإنسان إلاّ بعض بنيه يذكّرنا فوراً بالمناحات والبكاء حين صدرت عن بعض الآلهة التي أشفقت على الإنسان من هذا الطوفان. فالإله التوراتي المأخوذة أكثر صفاته من الآلهة الوثنية البابلية وغيرها لا تنطبق عليه صفات الإله الكامل المنزه عن الحقد والكره ومن ثم الحزن والألم والندم والذي يؤكد أن النص التوراتي أخذ عن النص السومري ثم البابلي تلك الصفات التي ألقوها بالإله. فهي بشكل واضح صفات الآلهة المتصورة عند تلك الشعوب وليست صفات الله الواحد.

وإضافة لما تقدم فقد أتى القرآن على ذكر عبادة قوم نوح. فهو يدعوهم إلى التوحيد وهم مصرّون على الشرك. وقد عبدوا أصناماً جاء القرآن على ذكر أسمائها.

يقول تعالى في سورة نوح الآية 23 (وقالوا لا تذرنا آلهتكم ولا تذرنا وداً ولا سواعاً ولا يغوث ويعوق ونسراً).

فهذه الأصنام الخمسة ذكرها القرآن الكريم على أنها الأصنام التي تمثل الآلهة التي عبدها قوم نوح. فهم وثنيون انحرفوا عن ديانة التوحيد وغلوا في وثنيتهم حتى كان الطوفان عقاباً لهم وقد كانت هذه الأوثان معروفة لدى عرب الجاهلية قبل الإسلام وقالت بعض المصادر التاريخية العربية إن العرب الجاهليين جلبوا هذه الأوثان من ساحل البحر الأحمر. وإذا صح ذلك فإنه يؤكد أن مسرح انتشار قوم نوح لم يكن بعيداً عن قلب المنطقة العربية. ويؤكد أيضاً أن هبوط السفينة ومسرح أحداث الطوفان لم يبعد كثيراً عما أورده الباحث عبد الرحمن غنيم والذي ذكرنا رأيه سابقاً.

أما ما ورد في بعض الكتب التراثية ككتاب الثعلبي النيسابوري في قصص الأنبياء فلا معول عليه لأنه يُدخل الأسطورة بالحقيقة ويمتلى بالإنشائيات والأقوال التي ليس لها سند قرآني أو سند من أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم.

الفصل الثالث

الأنبياء الأولون

ماذا بعد واقعة الطوفان؟

بين نوح وإبراهيم عليهما السلام زمن مفقود في التوراة وأحداث وشخصيات تناستها التوراة بينما جاء عليها القرآن الكريم وأكدها بشيء من التفصيل.

والمدقق في التوراة يرى أنها أوردت بعد واقعة الطوفان أسماء من أتوا بعد نوح (ع) من أولاده وأحفاده وأحفاد أحفاده. وقد قسمت شعوب العالم الشرقي حسب تقسيمات أولاد نوح ومن أنجبوا.

وقد أشارت التوراة إلى أن أولاد سام انتشروا في أماكن هي أقرب إلى وسط الجزيرة العربية وجنوبها كما أشارت إلى أن أولاد حام انتشروا في مصر والسودان وكذلك أولاد يافث حيث انتشروا في مناطق أخرى.

ويستدل من كلام التوراة أن أحفاد سام وصلوا إلى حضرموت جنوب الجزيرة العربية وهذا يعني أنهم تواجدوا في هذه المنطقة وما قبلها وهي تشمل الأحقاف والحجاز ونجد والأردن. واكتفت بهذا التقسيمات لتنتقل إلى الحديث عن أجداد النبي إبراهيم عليه السلام.

والحقيقة أننا لو دققنا النظر في الفترة الزمنية التي تفصل بين نوح وإبراهيم عليهما السلام لوجدناها طويلة وذلك للتقديرات التالية:

1 - حمل نوح (ع) في السفينة من آمنوا معه وأهله وهم قلة وعلى أكثر تقدير وحسب إحدى الروايات كانوا سبعين بين إناث وذكور إن لم يكونوا أقل بكثير.

2 - بعد هبوط السفينة واستقرارها من المفترض أن من كان مع نوح (ع) لم ينفصلوا عنه إلا بعد أن تكاثروا جداً وضافت بهم الأرض التي نزلوا بها وهذا يحتاج لمئات السنين لأنه لا يعقل أن يذهب أولاده كل في جهة ولم تتجاوز عائلته عدد الأصابع. وطبيعة الإنسان تقتضي الاجتماع وليس الابتعاد عن بني جنسه ثم ما الداعي لابتعادهم عن بعضهم والأرض التي نزلوا بها تتسع لشعوب برمتها.

3 - إذا نظرنا إلى عقائد الشعوب التي كانت زمن إبراهيم عليه السلام وجدنا أكثرها وثنيًا بينما الذين كانوا مع نوح هم الفئة التي آمنت به وبرسالته وتحول الناس من التوحيد إلى الوثنية يحتاج أيضاً لزمن ليس بالقصير.

إن هذه التقديرات تجعلنا نتوقف كثيراً للبحث عن الزمن المفقود بين مرحلتين، مرحلة نوح ومن آمن معه ومرحلة إبراهيم التي كانت تعج بالشعوب والحضارات المنتشرة في وادي الفرات ودجلة وفلسطين ومصر وجنوب الجزيرة العربية.

إن القرآن الكريم يوضح لنا الإجابة على تساؤلاتنا حول هذا الزمن المفقود في التوراة. ولو عدنا إلى الآيات القرآنية الكريمة لوجدنا ذلك واضحاً دون ريب أو لبس.

ويبقى أن نسأل لماذا لم تتحدث التوراة عما جرى من أحداث بين الفترتين هذا ما سنحاول دراسته والإجابة عنه بعد أن نورد ما جاء في القرآن الكريم.

يقول تعالى في سورة الأعراف الآية 69: (واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح).

ويقول تعالى في سورة الأعراف: (وإلى عاد أخاهم هوداً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون 65. قال الملأ الذين كفروا من قومه إننا لنراك في سفاهة وإننا لنظنك من الكاذبين 66. قال يا قوم ليس بي سفاهة ولكني رسول من رب العالمين 67. أبلغكم رسالات ربي وأنا لكم ناصح أمين 68. أو عجبتم إن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم في الخلق بسطة فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون 69. قالوا أجنثنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين 70. قال قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب أتجادلونني في أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما نزل الله بها من سلطان فانتظروا إنني معكم من المنتظرين 71. فأنجيناه والذين معه برحمة منا وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا وما كانوا مؤمنين 72).

وقد ورد ذكر هود في القرآن الكريم سبع مرات فذكر في سورة الأعراف في الآية 65 وفي سورة هود في الآيات 50 - 53 - 58 - 60 - 89 وفي سورة الشعراء في الآية 124.

ويستطيع القارئ لآيات القرآن أن يعرف:

- 1 - هود نبي مرسل جاء بعد قوم نوح.
 - 2 - ذكر القرآن مساكن قومه في الأحقاف.
 - 3 - تحدث القرآن عن ضخامة أجسامهم وقوتهم.
 - 4 - ديانة قوم هود وثنية.
- وإذا عدنا إلى القرآن الكريم فإننا نرى أنه ذكر قوم عاد على أنهم خلفاء لقوم نوح.

ويفهم من هذه الآية أن قوم عاد استخلفوا قوم نوح الذين كفروا بديانته قبل الطوفان والاستخلاف هنا هو زمني جغرافي. إن قوم عاد جاؤوا بعد قوم نوح ولكننا نعرف أن قوم نوح قد أبيدوا بالطوفان وبقي منهم من آمن بنوح. وقد يكون أحد أبناء نوح قد سكن المنطقة التي وُجد فيها قوم عاد من بعده. وقد يكون قوم عاد من نسل أحد أبناء نوح وإذا تذكرنا ما قالته التوراة عن المناطق التي سكنها سام بن نوح أدركنا أن قوم عاد ليسوا ببعيدين من أن يكونوا من نسل سام بن نوح استخلفهم الله بعد أن أباد أجدادهم من قوم نوح.

وقد ذكر بعض الرواة العرب أن هوداً يعود بنسبه إلى سام بن نوح حسب الشكل التالي:

سام، إرم - عوص، عاد، الخلود، رباح، عبد الله، هود.

وقد ذكرت التوراة اسم عوص من بين أولاد سام بن نوح لكنها لم تذكر أولاده وأحفاده. أما بالنسبة لمساكن عاد فكانت في منطقة الأحقاف التي تقع شمال حضرموت وفي شمالها الربع الخالي وفي شرقها عمان، وقد ذكرنا أن اسم حضرموت ذكرته التوراة على أنه من المناطق التي يسكنها الساميون.

يقترن اسم عاد بمدينة إرم. وقد ذكرها القرآن الكريم وذكر أنها لم يخلق مثلها في البلاد وهذا يدل على أن قوم عاد كانوا جبارين أقوياء بنوا إرم ذات العماد من الصخور التي جلبوها من أحد الوديان. وقوله لم يخلق مثلها في البلاد أي في زمنها حيث كانت الحضارات الأولى في مهدها. وباقتران هذه المدينة العظيمة بعاد يدل على أنهم عاد الأولى، نعود إلى سؤالنا الذي طرحناه في البداية لماذا لم يذكر قوم عاد ولم يذكر النبي هود في التوراة؟.

واقع الأمر تجيب عليه التوراة نفسها. فكتبتها ومدونها الذين أوجدوها أثناء السبي البابلي دونوا المسائل التاريخية التي تخصهم أو التي تصوروا أنها تخصهم. ومسرح تنقل الأشخاص المعنيين في التوراة هي بلاد الكلدانية. وبلاد

الشام ولا سيما فلسطين ثم مصر. ولم يتعدوا ذلك ولو وجدوا خبراً واحداً عن عاد لا دَعَوْه وربطوا أنفسهم به.

ثم إن التوراة لم تهتم بالبلاد البعيدة عن مسرح تنقلهم فتركيزهم كان على أرض كنعان أي فلسطين وما جاورها شرقاً وغرباً. أي بلاد الشام ومصر والعراق، وهي المناطق التي تواجدوا فيها إما رعاة متنقلين أو مسبيين.

وعلى اعتبار أن قوم عاد كانوا جبارين وبناة حضارة في إرم ذات العماد فإن التوراة قد تغافلت عن ذكرهم باعتبارهم الأسبق حضارياً بين الشعوب العربية السامية وهذا لا يروق لهم ونذكر جميعاً كيف أن الصهاينة حاولوا دس أنوفهم عندما اكتشفت حضارة إيبلا. في تل مريخ في محافظة إدلب السورية، وأي سبق حضاري يحاول الصهاينة أن ينسبوا لأنفسهم شيئاً من المساهمة فيه. هذا بغض النظر عن أن قوم عاد قد كفروا بالله عز وجل ورفضوا ما جاء به نبيهم هود.

ثم إن التوراة لا تعترف بأي نبي كان من كان إن لم يكن يتصل بنسبه إلى يعقوب.

فهي لا تعترف بيهود ولا بصالح ولا بنبينا صلى الله عليهم جميعاً فكيف نريدها أن تتحدث عن عاد ونبيها وليس عبرانياً أو ينتسب إلى يعقوب.

إن سلسلة النسب العبراني تبدأ - حسب ادعاءاتهم - من إبراهيم ثم اسحق فيعقوب فيوسف والأسباط. وموسى وهارون وداود وسليمان.

ثم إذا عدنا إلى قصة أهل إرم نجد أن الله سبحانه سلط عليهم ريحاً صرصراً في سبعة ليال وثمانية أيام ويستشف من الآيات أنها أبادتهم وبقيت مساكنهم آثاراً دالة على قوتهم وضعفهم أمام رب العالمين. لقد نجى الله الفئة التي آمنت برسالة هود وكانوا قلة.

هنا لابد من العودة إلى ما قالته التوراة في سفر التكوين وفي قصة نوح بالتحديد حيث ادعت أن الله حزن في قلبه لتدمير الأرض وإغراق قوم نوح وكيف بهذا الرب يعود مرة ثانية منتقماً من قوم هود يهلكهم جميعاً إلا الفئة المؤمنة؟

مرة ثانية وثالثة سنجد أن الله سبحانه وتعالى وضع الجزاء والعقاب وبعث الرسل والأنبياء لهداية أقوامهم فمن لم يتعظ فإن مصيره مصير قوم نوح وعاد وغيرهم.

ومن خلال الآيات الكريمة نرى أن الريح الصرصر نزعته الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر أما ما بقي من قوم عاد فأثارهم التي بقيت بعدهم. وإذا ما قدر للمكتشفين وللآثاريين اكتشاف مدينة إرم فإن ما سيجدونه هو ما يدهش العقول والعلماء لأن الله سبحانه قال: (إرم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد).

إن التوراة التي يعدّها بعض الباحثين الغربيين أقدم مدوّن تاريخي سيجدون أنفسهم أمام كتاب خاص جداً باتباع العقيدة التوراتية وسيجدونه ضئيلاً أمام حضارات الشعوب وعقائدها وأنبيائها.

بينما لو دققوا في القرآن الكريم لوجدوا أنه يمنح البشرية بعلمائها وبأحاديثها مفاتيح لدراسة التاريخ رغم أنه كتاب الله التشريعي وليس هو كتاباً تاريخياً كما التوراة.

نعود فنقول مرة أخرى إن الحلقة الزمنية المفقودة في التوراة بين قوم نوح وإبراهيم عليهما وعلى نبينا الصلاة والسلام بينها القرآن الكريم بذكره لقوم عاد ومن أتى بعدهم من قوم ثمود.

أما قوم ثمود والنبي صالح عليه السلام فلم تذكر التوراة شيئاً عنهم شأنهم شأن قوم عاد.

والذي يستوقفنا في هذه المحطة أن الزمن ما يزال مبكراً للحديث عن النبي إبراهيم عليه السلام، لقد قفزت التوراة من نوح إلى إبراهيم والفارق الزمني بينهما حسب نص التوراة يقدر بـ 850 عاماً لكن ذلك فيه من عدم الضبط الكثير إذ ترى التوراة أن نوحاً عاش 950 وعلى هذا الأساس فإن إبراهيم يكون قد عاصر نوحاً ستين سنة.

إن الوارد في القرآن الكريم هو غير ذلك تماماً. فقوم عاد استخلفوا قوم نوح ثم استخلف قوم ثمود قوم عاد ثم ذكر إبراهيم بعد زمن طويل على انقضاء عصر نوح عليه السلام.

وما يؤكد أن كتبة التوراة دونوا ما كانوا يسمعون من حكايات بدون ضبط، وجود نبيين في آن واحد يدعوان إلى التوحيد. فالذي نراه أن إبراهيم عليه السلام جاء برسالة تتم رسالة النبي نوح عليه السلام. وعصر إبراهيم غير عصر نوح من حيث وجود الحضارات وتنوع العقائد وانتشار الشعوب القديمة في المنطقة العربية كلها.

ثم ما الداعي كي يكون نوح وإبراهيم قد التقيا. فنوح ظل مع من آمن معه على ديانة التوحيد إلى أن أخذ الناس يكثرون وابتعدون عن التوحيد فجاء إبراهيم عليه السلام ليعيد إلى أذهان الناس عقيدة التوحيد.

إذا لابد أن يبعث الله الأنبياء لهداية أقوامهم وها هم قوم عاد أو ثمود لم يتركوا دون أنبياء ورسول ولا شك أن الذين عمروا مدينة إرم من قوم عاد والذين حفروا بيوتهم في الصخر من قوم ثمود لم يفعلوا ذلك بيوم وليلة، إن زمناً طويلاً قد مرّ حتى تم لهم ذلك.

إبراهيم أبو الأنبياء:

تعتبر شخصية النبي إبراهيم عليه السلام من أهم الشخصيات في سلسلة الأنبياء والرسل عليهم السلام. وهذه الأهمية تفرض نفسها بسبب ما أثير حول الشخصية من أقوال ودراسات مختلفة الاتجاهات والوسائل والأهداف وبسبب ارتباطها بمجريات التاريخ الذي يعتبر قريباً منا بسبب وضوح معالم بعض الحضارات والتوسع السكاني في المنطقة العربية.

وبسبب ما جاء في التوراة من تفصيلات وما جاء به القرآن الكريم من توضيح حول هذه الشخصية وسبب ارتباط هذه الشخصية بخلفيات سياسية جغرافية استندت التوراة عليها لتربط فئة من الناس بها بقصد إيجاد الجذور السياسية والتاريخية لما ستؤول إليه الأحداث بعد ذلك.

ولهذه الأسباب جميعها ولأسباب أخرى فإن دراسة هذه الشخصية وتاريخها يستند إلى الأمور التالية:

- 1 - موطن إبراهيم، ولادته، عصره، عقائد زمنه، صحفه.
- 2 - إيمان إبراهيم، عقيدته، صراعه مع قومه، حادثة إلقائه في النار.
- 3 - رحلته من موطنه إلى بلاد الشام وفلسطين تحديداً، مرافقة لوط في الرحلة وسارة زوجته.
- 4 - أرض فلسطين ماذا تشكل بالنسبة لإبراهيم، من كان يقطنها، ديانة شعبها، علاقتهم بإبراهيم.
- 5 - دعوة إبراهيم لديانة التوحيد في الأرض المباركة.
- 6 - زواجه من هاجر، سفره لمصر، إنجابه لإسماعيل، ثم اسحق.
- 7 - بناء الكعبة برفقة إسماعيل.

8 - علاقة إبراهيم بالعبرانيين.

9 - زوجات إبراهيم، أولاد إبراهيم، قصة الفداء، بين إسماعيل وإسحق.

10 - إسماعيل وإسحق، عقيدتهما ودراسة شخصيتهما، أين عاش كل منهما.

هل لإسحق إخوة غير إسماعيل؟.

11 - اسحق وأولاده، يعقوب، عيسو.

12 - يعقوب، لماذا أطلق عليه إسرائيل، آراء حول هذا الإسم، طفولته، شبابه، زمنه، الأوضاع السياسية في زمنه، علاقة يعقوب وأولاده بالمحيط السكاني.

13 - أولاد يعقوب، الأسباط، يوسف.

وبذلك نكون قد بينا فترة زمنية مهمة ودرسنا شخصيات مهمة في أبعادها السياسية والدينية. وكل ذلك من خلال مقارنة ما جاء في التوراة بما جاء في القرآن الكريم حتى نستوضح الباطل من الحق ونضع كل أمر في نصابه.

ولما كانت شخصية النبي لوط عليه السلام مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالنبي إبراهيم من حيث مسار حياته والأحداث التي دارت في زمنه نجد أن دراستها لا بد أن تتداخل مع دراسة النبي إبراهيم عليه السلام وما دار في زمنه من أحداث.

وبانتهاء هذه الفترة الزمنية الواقعة بين ولد إبراهيم ووفاة يوسف عليهما السلام ينقضي وقت من التاريخ الذي هو من أشد الفترات حساسية لما له من دور بارز في الصراع بين المسلمين وبين العبرانيين وأصحاب العقيدة التوراتية.

ماذا يقول النص التوراتي:

في سفر التكوين الإصحاح 11: هذه مواليد تارح، ولد تارح إبرام وناحور وهاران وولد هاران لوطا. ومات هاران قبل تارح أبيه في أرض ميلاده في أور الكلدانيين. واتخذ إبرام وناحور لنفسيهما امرأتين اسم امرأة إبرام ساراي واسم امرأة ناحور ملكة بنت هاران. وكانت ساراي عاقراً ليس لها ولد. وأخذ تارح إبرام ابنه ولوطاً بن هاران ابن ابنه وساراي كنته امرأة إبرام ابنه فخرجوا معاً من أور الكلدانيين ليذهبوا إلى أرض كنعان فأتوا إلى حاران وأقاموا هناك وكانت أيام تارح مئتين وخمس سنين ومات تارح في حاران.

في هذا النص نتوقف عند أمور كثيرة جديدة بالدراسة والبحث وذلك لنقارن ما جاء في القرآن الكريم.

وأول هذه الأمور شخصية والد إبراهيم المدعو تارح.

وثاني هذه الأمور شخصية لوط وحسب النص التوراتي ابن أخ إبراهيم.

ثالثهما أور الكلدانيين وباعتبارها أرض ميلاد لوالد إبراهيم.

رابعها زواج إبراهيم وناحور شقيقه من امرأتين الأولى سارة وكانت عاقراً والثانية ملكة بنت هاران أي أن ناحور تزوج ابنة أخيه، ويكون هو عمها.

رحلة تارح مع أولاده وتوقفهم في حاران وموت تارح فيها.

أما في القرآن الكريم فنرى أن قصة إبراهيم تتكرر في خمس وعشرين سورة وإذا أردنا التعرف على مسيرة سيرته نرى أن القصة تبدأ كالتالي:

يقول تعالى في سورة الصافات بعد أن تحدث عن قوم نوح: (ثم أغرقنا الآخرين 82. وإن من شيعته لإبراهيم 83. إذ جاء ربه بقلب سليم).

ويقول تعالى في سورة الأنبياء 51 - 56 (ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون52. قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين53. قال لقد كنتم أنتم وآباؤكم في ضلال مبين54. قالوا أجبثنا بالحق أم أنت من اللاعبين55. قال بل ربكم رب السموات والأرض الذي فطرهن وأنا على ذلكم من الشاهدين 56).

ويقول تعالى في سورة الأنعام (وإذ قال إبراهيم لأبيه أزر أتتخذ أصناماً آلهة إنني أراك وقومك في ضلال مبين).

ويقول تعالى في سورة الأنبياء الآية 71 (ونجيناه ولوطاً إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين).

ونترك الحديث في آيات الكتاب الحكيم الأخرى لنتابع المسيرة مقارنة بالتوراة.

1 - إبراهيم من شيعة نوح عليهما السلام.

2 - أتى الله إبراهيم رشده في سن مبكرة.

3 - والد إبراهيم المدعو آزر.

4 - عبادة الأصنام عند قوم إبراهيم.

5 - نجاة إبراهيم ولوط إلى الأرض التي بارك الله فيها للعالمين.

فحسب النص التوراتي يرد أن والد إبراهيم هو تارح وقد هاجر بابنه وولديه الآخرين من أور الكلدانيين باتجاه أرض كنعان وأثناء مرورهم بحاران توقف فيها ثم مات والد إبراهيم وتابع مسيرته باتجاه أرض كنعان، أما لماذا هاجر إبراهيم من أرض حاران فتقول التوراة (إن الرب قال لإبرام: اذهب من أرضك.. إلى الأرض التي أريك) التكوين 12 : 1 - 2.

أما النص القرآني فيورد أن والد إبراهيم هو آزر ولم يرد أنه هاجر بأولاده من أور الكلدانيين: بل ذكرت الآيات الكريمة أن والد إبراهيم كان على دين قومه وهم يعبدون الأصنام. وكان معادياً لإبراهيم ودعوته إلى التوحيد. ثم يذكر القرآن الكريم أن الله نجاه ولوطاً إلى الأرض المباركة للعالمين.

والخلاف بين التوراة والقرآن كبير جداً ومهم جداً ولا سيما حين يتوقف القرآن الكريم عند نجاة إبراهيم وذهابه إلى الأرض المباركة.

تشدد التوراة على أن تارح والد إبراهيم هو من نسل نوح. وتورد أنه من آدم إلى إبراهيم يوجد عشرون شخصاً. ونوح هو الشخصية العاشرة في السلسلة التوراتية ثم تبدأ السلسلة الثانية من سام وحتى إبراهيم وتضم عشرة شخصيات والفصل الزمني بين ولادة نوح وولادة إبراهيم 808 سنة بينما الفرق بين وفاة نوح ووفاة إبراهيم 117 سنة وهذا يعني أن إبراهيم حسب نص التوراة عاصر أواخر أيام نوح إذ تذكر التوراة أن إبراهيم ولد عام 1948 ق.م وتوفي نوح 2006 ق.م وهذا يعني أن إبراهيم عاصر نوحاً حوالي 58 سنة.

هل هذا الكلام صحيح؟

عندما يخبرنا القرآن الكريم عن إرم ذات العماد وقوم هود - عاد - ثم يخبرنا عن النبي صالح وقومه ثمود. وهذان القومان استخلفا قوم نوح لم يكن إبراهيم قد ظهر على الأرض. إذناً فالفارق الزمني بين نوح وإبراهيم هو مليء بالأحداث ومن ثم لم يكن خالياً من الأنبياء، ولا ندري كم من الشعوب تفرقت وانتشرت حتى أصبحت مثلما كانت في زمن النبي إبراهيم، حيث الواضح أن هناك في حوض الفرات ودجلة أقواماً وحضارات كالسومريين ومن ثم البابليين والكلدانيين والأكاديين ثم في فلسطين وُجد الكنعانيون وفي سوريا الداخلية الأموريون والآراميون وفي مصر الفراعنة.

إذا فالزمن الذي استغرق حتى تكونت الحضارات بعد نوح ليس زمناً يسيراً. وعصر إبراهيم غير عصر نوح وليس من المعقول أنه خلال ثمانمئة سنة تقام كل هذه الحضارات وتكثر الشعوب بهذه الأعداد التي نراها في ما بين النهرين وفلسطين ومصر واليمن والأحقاف وغيرها.

لكن القرآن الكريم يقول: (وإن من شيعته إبراهيم) والحديث هنا يدور بداية عن نوح والهاء في شيعته تعود على نوح. ومعنى كلمة شيعته لا تعني أنه من نسله، بقدر ما تعني أنه من أصحاب التوحيد. فإبراهيم ممن حمل مبادئ نوح فهو من جماعته وشيعته الذين وحّدوا الله ولم يشركوا به شيئاً. ونقول شيعة فلان أي الذين ناصروه وأيدوا مبادئه.

والقرآن الكريم لا يركز على النسب بقدر ما يركز على الإيمان والتقوى.

وإذا افترضنا أن كل مئة سنة يبعث الله نبياً أو مصلحاً وهذا الافتراض قد ينطبق على كل الأزمان فإن نوحاً مات وجاء من بعده ليجدد ديانة التوحيد. ولم يشر القرآن إلى أن أحداً من أولاد نوح كان نبياً. والذي يخبرنا به القرآن أن هوداً وقوم عاد استخلفوا قوم نوح. وقد نفترض أن هوداً بعث لقومه بعد نوح بمائة عام على الأقل. وعندما استخلف صالح وثمود قوم عاد فإننا نفترض أيضاً أن صالح جدد ديانة التوحيد بعد موت هود بمائة عام، ثم جاء إبراهيم ليتمم ديانة التوحيد بعد أن اندثر قوم صالح بمائة عام أخرى.

فلاحتمال أن إبراهيم عليه السلام جاء بعد نوح بثلاث مئة سنة. ووجود حضارات قائمة بذاتها في ما بين النهرين وفلسطين ومصر واليمن دليل آخر على أن عصر إبراهيم عصر حضارات واتساع في العمران وعدد أبناء الشعوب.

ويرى الدكتور أحمد سوسة أن العصر الذي عاش فيه إبراهيم الخليل عصر قائم بذاته له مقوماته وقوميته ولغته. وهو مرتبط بالجزيرة العربية وبلغتها

الأم وبقبائلها التي سميت فيما بعد بالعرب البائدة لانقراضها⁽¹⁾.

وقد قال بعض الباحثين إن إبراهيم من عنصر عربي آرامي هاجر هذا العنصر من شبه الجزيرة العربية واستقر في جنوبي العراق في بابل.

وقد ارتبط اسم إبراهيم عليه السلام بالجزيرة العربية ولا سيما بمكة والحجاز ولم يكن ارتباطه بالخليل في فلسطين كمثّل ارتباطه بمكة وبناء الكعبة.

على أية حال فإن أي باحث في عصر إبراهيم يريد أن يعرف الزمن الذي عاش فيه عليه أن يعود أولاً لدراسة مخلفات الآثار في المنطقة التي ذكرتها التوراة على أنها فعلاً بلد إبراهيم.

ثانياً: على الباحث أن يعود لدراسة الزمن الذي وجدت فيه حجارة الكعبة باعتبارها المكونة الأساسية لبناء البيت العتيق ودراسة جيولوجية المغارة التي دُفن فيها إبراهيم وتقع الآن تحت بناء مسجد الخليل في فلسطين.

ثالثاً: على الباحث أن يدرس العقائد التي كانت سائدة زمن إبراهيم والقرآن الكريم يشير بوضوح إلى تلك العقائد الوثنية من خلال قصة تحطيم إبراهيم لأصنام قومه.

وإذا عدنا إلى النص التوراتي نراه يكتف في العبارة ويقفز عن أهم الأحداث في حياة إبراهيم، فإبراهيم يتزوج من سارة التي كانت عاقراً ثم أخذه أبوه وهاجر به مع زوجته وبقية أفراد عائلته إلى حاران. حيث مات تارح فيها.

فحاران مدينة بين النهرين على نهر بليخ وهو فرع للفرات وتقع على مسافة 280 ميلاً إلى الشمال الشرقي من دمشق. وقد اتخذت إله القمر إلهاً لها⁽²⁾.

(1) أحمد سوسة، العرب واليهود في التاريخ، ص 202.

(2) قاموس الكتاب المقدس، حرف الحاء.

وعلى هذا الأساس فإن إبراهيم كان قد هاجر مع أبيه من بلده الأصلي إلى حاران حيث مات أبوه وهذا هو فحوى كلام التوراة. وحران ضمن حدود سوريا الحالية وعلى ذلك يُطرح سؤال أين وقعت الأحداث مع إبراهيم؟. تدميره للأصنام، جداله مع قومه ومحاولة حرقه بالنار. ثم هجرته أو هربه إلى أرض مباركة.

فإذا كان قد هاجر مع أبيه إلى حاران فهل كان قومه هم أهل حاران؟ بالطبع هذا ليس صحيحاً لأنه هاجر إليها وكأنه غريب عنها. ثم كيف ينجيه الله من قومه ومعه لوط إلى الأرض المباركة وهو في حاران؟.

ولو عدنا إلى نص التوراة مرة أخرى لوجدناه يقول (وأقاموا هناك) والإقامة ليس مدة قصيرة. حيث يبقى تارح والد إبراهيم فيها حتى يموت.

أما القرآن الكريم فيفتح لنا أبواب البحث بالتدرج حتى نصل إلى حقائق لم تصل لها التوراة فالتسلسل القرآني في قصة إبراهيم يجري كالتالي:

يقول تعالى في سورة الأنعام: (وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناماً آلهة إنني أراك وقومك في ضلال مبين. وكذلك نري إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين. فلما جن عليه الليل رأى كوكباً. قال هذا ربي فلما أفل قال لا أحب الآفلين. فلما رأى القمر بازغاً قال هذا ربي. فلما أفل قال لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين. فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر فلما أفلت قال يا قوم إنني بريء مما تشركون إنني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين) الآيات 79 - 87.

وبغض النظر عن كون اسم أبيه آزر أو غير ذلك فما يهمنا من هذا السياق هو حديث إبراهيم لأبيه بشأن عبادة الأصنام التي درج عليها قومه.

ومن ظاهر الآيات نجد أن عبادة الأصنام كانت منتشرة بين قوم إبراهيم وقد تركزت عبادتهم على عبادة أحد الكواكب والقمر والشمس. وعلى الغالب فإن الكوكب هو المريخ أو الزهرة. باعتبارهما الأكثر لمعاناً في الليل. وقد ألهم الله سبحانه إبراهيم أن ينظر ويتفكر في ملكوت السماوات والأرض حتى يصل بتفكيره إلى الإيمان الحقيقي بالله وذلك من خلال التفكير في مخلوقات الله الكبرى كالقمر والكواكب والشمس. وسياق الآيات الكريمة يدلنا بشكل واضح كيف أن إبراهيم كان يبحث عن إله ثابت لا يأفل وهذا الإله يجب أن يكون كبيراً حتى لا يعلو عليه شيء. ولكن وعي إبراهيم وقلبه دلّاه إلى الحقيقة الإلهية التي ليس كمثلهما حقيقة.

ولما أدرك إبراهيم أن الكوكب والشمس والقمر ما هي إلا أجرام تأفل وتغيب عن ناظره رجع إلى قومه فأعلن براءته منهم ومن عبادتهم.

وتعتبر هذه المرحلة هي النقلة النوعية في حياة إبراهيم. وهي نقلة أولى سيتبعها نقلات أخرى متطورة حسب تطور الصراع بين ديانة التوحيد والإشراك بالله.

ومن المدهش حقاً أن التوراة لم تذكر هذه المرحلة نهائياً. ويبدو أن تركيزها كان على نسبه ومن ثم هجرته إلى الأرض المباركة ووعد الله بأن يمتلكها.

ويبدو أن قوم إبراهيم لم يعيروه اهتماماً في بادئ الأمر حتى الآيات الكريمة تدل على أن قومه خوّفوه من إيذاء آلهتهم له إن هو عادها.

يقول تعالى في سورة الأنعام: (وحاجّه قومه قال أتحاجونني في الله وقد هداني ولا أخاف ما تشركون به إلا أن يشاء ربي شيئاً وسع ربي كل شيء علماً أفلا تتذكرون. وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطاناً فأى الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون) 80 - 81.

ويبدو أن هذا الجدل الذي وقع بين إبراهيم وبين قومه كان في فترة شبابه المبكرة حيث أن قومه لم يستخدموا معه العنف بل استخدموا التخويف، بينما قصة تكسيره للأصنام جاءت لاحقة على ذلك، ولأن قومه أدركوا أنه بات يشكل خطراً على عقائدهم الوثنية حاربوه ثم ألقوا القبض عليه ليحرقوه أما بالنسبة لأبيه آزر أو تارح والذي ذكرته التوراة ذكراً عادياً في سياق السرد القصصي التوراتي فقد كان له دور مهم في حياة إبراهيم.

فمنذ البداية ظهرت عداوة الأب لابنه. وكان أبوه متعصباً لعقيدة قومه وعبادة الأصنام، وليس مستبعداً أن يكون أبو إبراهيم فعلاً صانع تماثيل يبيعهها وقد يكون قد خاف على خسارته مالياً إن توقف ببيعها لها. فعداً آزر لإبراهيم عداً لسببين. سبب تجاري وسبب عقيدي باعتباره كان على قومه وآبائه.

كل ذلك لم تأت عليه التوراة بل اكتفت بسرد النسب الأبوي فليس هناك عداً وليس هناك ديانة توحيد وليس هناك أصنام وما شابه ذلك.

وأعتقد أن التوراة تحاشت الحديث عن الصراع بين إبراهيم وأبيه حتى لا يظهر أن نسب الإنسان ليس هو مقياس الأفضلية إنما عقيدته وفكره ومدى إيمانه بالله. ومقياس النسب يهتم التوراتيين جداً حيث لا يتركون سفراً من أسفار التوراة إلا ويذكرون نسبهم إلى إبراهيم أو إلى أولاده فيه.

وفي السياق القرآني نفسه يحاور إبراهيم أباه وقومه حول عبادة الأصنام. ويظهر من هذا السياق أن إبراهيم كان يرى أباه وأفراد قومه وهم يذهبون للمعابد الوثنية يعكفون على عبادة الأصنام. وقد عرض إبراهيم على أبيه الابتعاد عن عبادة الأصنام لكن أباه رفض ذلك.

يقول الله تعالى في سورة مريم: (قال أرأغب أنت عن آلهتي يا إبراهيم لئن لم تنته لأرجمك واهجرني مليا. قال سلام عليك سأستغفر لك ربي إنه كان

بي حفيأ وأعتز لكم وما تدعون من دون الله وأدعو ربي عسى ألا أكون بدعاء ربي شقياً). 46 - 47 - 48.

وتستوقفنا الآية الأخيرة أي الآية 48 من سورة مريم حيث يوضح القرآن الكريم أن إبراهيم بيّث نيته ليستغفر لأبيه ومن ثم ليعتزل قومه وعبادتهم. وهنا نرى أن النبي إبراهيم قبل أن يقدم على تحطيم الأصنام اعتزل قومه وعبادتهم. وهذا الاعتزال استغرق وقتاً. وقد التجأ إبراهيم للتعبد لوحده على طريقته التوحيدية المخالفة لعقيدة أبيه وقومه، وإذا كان أبوه قد هدده بالرجم إن لم ينته عن شتم أصنامهم وعدائه لعقيدتهم فكيف يهاجر أبوه ويأخذه معه إلى حاران حسب نص التوراة؟.

لقد قال له أبوه اهجرني ملياً فهجره واعتزلهم لمدة زمنية لا نعلمها. المهم أنه عاد وقد ترسخ الإيمان في قلبه وانتقل من الاعتزال إلى الجهاد العملي حيث رجع ليحطم الأصنام ويعلن حربه العملية ضد الكفر والشرك.

لم يرد في التوراة أي ملامح لصراع ما بين إبراهيم وقومه وكذلك تحطيمه لأصنام قومه والذي يعتبر المحطة الثانية في حياة إبراهيم. وترتبط هذه المرحلة بالجدل الذي دار بين إبراهيم والملك الذي ادعى الربوبية حيث تتلاحق الأحداث ولم يجد إبراهيم مفرأً من تنفيذ أمر الله بالاعتزال الكلي عن قومه وعن عقائدهم والهجرة من بلاده إلى الأرض التي بارك الله فيها للعالمين.

ومن خلال آيات القرآن الكريم نستطيع أن نفهم مجريات الأحداث لنصل إلى النقطة الزمنية التالية في حياة هذا النبي العظيم عليه السلام:

بيّث إبراهيم النية على تحطيم الأصنام. ولما دنت الساعة التي حددها ذهب قومه ليحتفلوا بأحد أعيادهم. فذهب إلى مجمع بيت الأصنام وراح يحطمها واحداً بعد الآخر وأبقى كبيراً للأصنام على حاله.

يقول تعالى في سورة الأنبياء: (فجعلهم جذاناً إلا كبيراً لهم لعلمهم يرجعون 58 قالوا من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين 59. قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم 60).

ثم قبضوا عليه وحاجّوه وحاججهم.

يقول تعالى في سورة الأنبياء: (قالوا فأتوا به على أعين الناس لعلمهم يشهدون قالوا أنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم 62. قال بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون 63. فرجعوا إلى أنفسهم فقالوا إنكم أنتم الظالمون 64. ثم نكسوا على رؤوسهم لقد علمت ما هؤلاء ينطقون 65. قال أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئاً ولا يضركم 66. أف لكم وما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون 67).

ومن خلال آيات سورة الأنبياء التي تحدثت عن النبي إبراهيم عليه السلام يتضح أن إبراهيم كان فتى أو شاباً لم يبلغ مبلغ الرجال. ويتضح أنه كان مجهولاً لدى قومه إلى هذا الوقت إذ يقول تعالى واصفاً إياهم (سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم).

ويتفق قومه على إنزال العقوبة به بحرقه في النار.

في سورة الأنبياء في الآية 68 - 70 ترد قصة حرق إبراهيم بالنار إذ يقول تعالى: (قالوا احرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين. قلنا يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم. وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأخسرين).

ويبدو أن إبراهيم بدأ دعوته للتوحيد بأبيه الذي هو أقرب الناس إليه. ولما لم يستجب الأب لدعوته اعتزله وقومه وما يعبدون من دون الله لفترة ليست طويلة ثم عاد ليحطم أصنامهم ويتحداهم علانية.

ولم يظهر موقف أبيه أثناء حرقه. فلا هو دافع عنه ولا هو ساهم في إحراقه. غير أن القرآن الكريم يوضح أن أباه لم يؤمن وبقي على دين قومه وعبادة الأصنام.

وقد أوضح القرآن الكريم أن أبا إبراهيم قد وعد ابنه بالإيمان بالله الواحد. فاستغفر له ابنه بسبب هذا الوعد. لكن الأب لم يؤمن. ولما تبين أنه كذب عليه تبرأ منه.

يقول تعالى في سورة التوبة: (وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه فلما تبين أنه عدو لله تبرأ منه إن إبراهيم لأواه حليم) آية: 114.

وكما قلنا سابقاً فإن التوراة تورد في سفر التكوين أن تارح أخذ ابنه إبراهيم وهاجر به من أور الكلدانيين إلى حاران ولم تشر لا من قريب ولا من بعيد إلى هذا العداء بين الأب وابنه والتباين في عقيدة كل منهما.

ومن خلال السياق القرآني تخبرنا الآيات الكريمة عن جدال جرى بين إبراهيم وبين أحد الملوك الذين ادعوا الألوهية. وقد قال المفسرون المسلمون إن ذلك الملك هو النمرود.

وقصته معروفة لدى المسلمين كما وردت في القرآن الكريم وكتب التفاسير.

ويقول تعالى في سورة البقرة: (ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه أن أتاه الله الملك. إذ قال إبراهيم ربي الذي يحيي ويميت قال أنا أحيي وأميت. قال إبراهيم فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذي كفر والله لا يهدي القوم الظالمين). آية 258.

ولا نجد في التوراة مجريات لهذه الأحداث. بل هي تكتفي بذكر هجرته مع أبيه إلى حاران. ثم وفاة والده ثم هجرته إلى أرض كنعان. وليس هناك من سبب تذكره التوراة لهذه الهجرة هل بسبب القحط أو

الجذب أم بسبب التجارة أن بسبب العقيدة. إنما نستطيع أن ندرس الأحداث التوراتية القادمة لنرى أن غاية إبراهيم من الهجرة ليس لها علاقة بالعقيدة التي آمن بها. إنما لها علاقة بوعده إلهي له بتمليكه أرض كنعان.

يأتي في سفر التكوين الإصحاح 11 - 12: (وأخذ تارح إبراهيم ابنه ولوطاً بن هاران ابن ابنه وساراي كتنه امرأة إبراهيم ابنه. فخرجوا معاً من أور الكلدانيين ليذهبوا إلى أرض كنعان. فأتوا إلى حاران وأقاموا هناك. وكانت أيام تارح مئتين وخمس سنين ومات تارح في حاران).

(وقال الرب لإبرام إذهب من أرضك ومن عشيرتك ومن بيت أبيك إلى الأرض التي أريك. فأجعلك أمة عظيمة وأباركك وأعظم اسمك وتكون بركة.... فذهب إبرام كما قال له الرب وذهب معه لوط. وكان إبرام ابن خمس وسبعين سنة لما خرج من حاران. فأخذ إبرام ساراي امرأته ولوطاً ابن أخيه وكل مقتنياتهما التي اقتنيا والنفوس التي امتلكا في حاران. وخرجوا ليذهبوا إلى أرض كنعان. فأتوا إلى أرض كنعان. واجتاز إبرام في الأرض إلى مكان شكيم إلى بلوطة ممرا. وكان الكنعانيون حينئذ في الأرض فظهر الرب لإبرام وقال لنسلك أعطي هذه الأرض. فبنى هناك مذبحاً للرب الذي ظهر له).

هذا مجمل الحديث التوراتي الذي خص رحلة إبراهيم وهجرته من أور الكلدانيين إلى أرض كنعان.

أما في القرآن الكريم فيرد قوله تعالى في سورة العنكبوت الآية 26: (فآمن له لوط وقال إني مهاجر إلى ربي إنه هو العزيز الحكيم).

ويقول تعالى في سورة الأنبياء الآية 71 - 72: (ونجيناه ولوطاً إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين).

فإبراهيم حسب النص التوراتي الذي لا يورد شيئاً عن صراعه مع قومه وأبيه يهاجر إلى أرض كنعان دون أي سبب سوى أنه أخذ مقتنياته ولوط معه ثم اتجه إلى أرض كنعان وترى التوراة أن الرب خاطب إبراهيم وأمره أن يترك أرضه وعشيرته وبيت أبيه ليريه أرضاً أخرى يعده أن يملكه إياها.

أما ظاهر الآية القرآنية فيشير إلى أن الله سبحانه نجى إبراهيم ولوطاً إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين، فالنجاة لا تأتي إلا بسبب مصيبة ستحل أو بسبب مؤامرة تبيّت والله نجى إبراهيم لأن قومه كادوا له وبيتوا النية على قتله. وقد يئس من دعوته لهم، بعد أن عانى منهم ما عانى، ثم إن إبراهيم مكلف بنشر دعوته وعقيدة التوحيد وعندما يأمره الله بالهجرة فإن السبب في ذلك تكليفه بنشر دعوة التوحيد وليس لسبب آخر ويتضح ذلك من قول لوط في سورة العنكبوت: (قال إني مهاجر إلى ربي إنه هو العزيز الحكيم). فإبراهيم علّم لوطاً أن هجرته بعيداً عن قومه هي من أجل غاية ربانية إلهية فآمن له وسافر معه.

يقول ابن حزم الظاهري الأندلسي: وبعد ذلك ذكر أن الله تعالى قال لإبراهيم عليه السلام لنسلك أعطي هذا البلد من نهر مصر النهر الكبير إلى نهر الفرات. وهذا كذب وشهرة من الشهر لأنه إن كان عنى بني إسرائيل وهكذا يزعمون فما ملكوا قط من نهر مصر ولا على نحو عشرة أيام منه شبراً مما فوقه. وذلك من موقع النيل إلى قرب بيت المقدس. وفي هذه المسافة الصحارى المشهورة الممتدة، والحضار ثم رفح وغزة وعسقلان وجبال الشراة التي لم تزل تحاربهم طول مدة دولتهم وتذيقهم الأمرين إلى انقضاء دولتهم ولا ملكوا قط من الفرات ولا على عشرة أيام منه بل بين آخر حوز بني إسرائيل إلى أقرب مكان من الفرات إليهم نحو سبعين فرسخاً فيها قنسرين وحمص التي لم يقربوا منها قط.

ثم دمشق وصور وصيدا التي لم يزل أهلها يحاربونهم ويسومونهم الخسف طول مدة دولتهم بإقرارهم ونصوص كتبهم. وحاش الله عز وجل أن يخلف وعده في قدر دقيقة من سرابه فكيف في تسعين فرسخاً في الشمال ونحوها في الجنوب ثم قوله النهر الكبير. وما في البلاد التي ملكوا نهر يذكر إلا الأردن وحده وما هو بكبير إنما مسافة مجراه من بحيرة الأردن إلى مسقطه في البحيرة المنتنة نحو ستين ميلاً فقط^(١).

ووضح القول في كلام ابن حزم أن بني إسرائيل استعمروا الأرض المذكورة أي أرض كنعان وظل أهل البلاد الأصليين يحاربونهم إلى أن أخرجوا منها. وابن حزم قرأ التاريخ وأدرك بحسه الفلسفي الموسوعي أن هذه الأرض لها أصحابها الذين لم يسكتوا على احتلال أرضهم من قبل اليهود حتى زالت الدولة التي أقاموها مدة من الزمن.

على أية حال فموضوع وعد الله لإبراهيم بأن يمنحه الأرض الواقعة بين الفرات والنيل أثار لدى كافة الباحثين القدامى والمحدثين مسلمهم وغير مسلمهم إشكالات كبيرة ارتبطت بالدوافع القومية والعقيدية والسياسية. وما زال هذا الموضوع يثير النقاش باستمرار لما له من نتائج كبيرة على ساحة الصراع القائم والمستقبلي بين الاحتلال اليهودي لأرض فلسطين وبين أصحاب الأرض والحق الأصليين وسنعود لهذا الموضوع في صفحات قادمة لنفرد له المساحة اللازمة للنقاش والاستنتاج.

وحين نعود إلى فهم قوله تعالى: (ونجيناه ولو طأ إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين).

نرى أن الله سبحانه نجى إبراهيم إلى أرض آمنة وليس إلى أرض خراب وطالما أن الله بارك فيها للعالمين أي لكافة البشر فإنها على هذا الأساس ستكون

(١) ابن حزم الظاهري الاندلسي. الفصل بين الملل والأهواء والنحل ص 218 المجلد الأول.

أرض عطاء مادي وروحي وهذا ما سيكون المستقبل بعد إبراهيم حافلاً به حيث ظهر عدد من الأنبياء فيها وإسراء الرسول محمد صلى الله عليه وسلم إليها باعتبار أن فيها الأقصى أولى القبلتين الذي بارك الله بالأرض التي حوله وربطها بالمسجد الحرام والحرم النبوي الشريف حيث تشد الرحال إلى هذه المساجد الثلاثة، كما أشار لذلك قول رسول الله صلى الله عليه وسلم في حديث مشهور معروف (لا تشد الرحال إلى للمسجد الحرام والأقصى ومسجدي هذا). وفي رواية أخرى: لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد، المسجد الحرام، والمسجد الأقصى ومسجدي⁽¹⁾.

الأرض التي بارك الله فيها وهجرة إبراهيم إليها:

أوردنا أن القرآن الكريم يشير إلى أن الله سبحانه نجى إبراهيم ولوطاً إلى الأرض التي بارك فيها للعالمين.

فهذه الإشارة للأرض المباركة تجعلنا نتساءل أين هي الأرض التي بارك الله فيها العالمين؟ أهى مكة أم فلسطين. أم كلاهما معاً باعتبارهما مسرح الأحداث القادمة مع النبي إبراهيم عليه السلام؟ تشير التوراة إلى أن هجرة إبراهيم كانت إلى أرض كنعان وتشير أيضاً إلى أن الكنعانيين كانوا حينئذ في الأرض.

فاختيار أرض كنعان ليس اختياراً بشرياً تم من قبل إبراهيم إنما هو اختيار رباني نستطيع أن نكشف بعض جوانبه ونلقي الضوء على أسبابه.

1 - إن إبراهيم عليه السلام نادى بديانة التوحيد وهو مكلف من الله سبحانه بتبليغ رسالته أينما ذهب وأينما حلّ. ولن تتوقف دعوته بمجرد عناد قومه ورفضهم لها.

(1) روي الحديثان عن ست عشرة طريقة ورواه ستة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم.

2 - إن الأرض التي بارك الله فيها للعالمين كانت ممهدة لتلقي تعاليم إبراهيم الداعية إلى التوحيد ولهذا السبب لن نجد أعداء لهذه العقيدة في هذه الأرض المباركة.

3 - اختار الله سبحانه مكة المكرمة منذ الأزل لتكون محجاً للناس ولذلك كلف إبراهيم ببناء الكعبة. ولن يتم بناؤها دون هجرة هذا النبي الكريم من بلده إلى مكة.

4 - إن اختيار الله سبحانه يأتي ضمن ترتيب رباني للتاريخ القادم الذي سيشهد صراعاً مبرراً بين التوراتيين الذين يدعون نسبهم لإبراهيم وبين المسلمين الذين اتبعوا دين إبراهيم وهم أصحاب الأرض التي سيحصل الصراع بسببها. وهذا الترتيب يأتي ضمن سياق الصراع الدائم بين الحق والباطل إلى أن يدحر الباطل وتنتصر عقيدة التوحيد التي يمثلها المسلمون.

وعندما نطالع النص التوراتي نرى أن الرب ظهر لإبراهيم ووعدته بعد أن أراه أرض كنعان أن تكون لنسله. وقال لنسلك أعطي هذه الأرض فبنى هناك مذبحاً للرب الذي ظهر له.

فهل حقاً وعد الله إبراهيم بأرض كنعان بأن تكون لنسله من بعده؟ وكيف ستكون نسله ويقطنها شعب كنعاني متقبل لعقيدة التوحيد ولم يضايق إبراهيم في دعوته وتجوّاله في المنطقة؟.

صحيح أن الله اختار الأرض المباركة دار أمان لإبراهيم ونجاة ودعوة ولكنه لم يعده بها.

والتوراة تركز على قولها إن هذه الأرض لأبناء يعقوب الذي يعتبرونه جدهم الأكبر وجد يعقوب هو إبراهيم الذي وعده الله بأن الأرض ستمنح لنسله. إن القرآن الكريم لم ينص على أن الله وعد إبراهيم أنه سيمنحه هذه الأرض،

والاختلاف بين القرآن والتوراة هو اختلاف في طبيعة الإله. فالتوراة تنحرف تماماً في تصوير الإله. لأنها تجعل منه إلهاً قومياً خاصاً لبني إسرائيل وحاشا أن يكون الله كذلك.

ماذا حدث مع النبي إبراهيم بعد هجرته إلى الأرض المباركة؟

تفصل التوراة في مسير إبراهيم بعد وصوله إلى الأرض المباركة فتقول: فاجتاز إبراهيم إلى مكان شكيم إلى بلوطة مورة وكان الكنعانيون حينئذ في الأرض فظهر الرب لإبراهيم... الخ النص.

أما في القرآن الكريم فلا نجد ذكراً لما قام به إبراهيم في هذه الأرض المباركة سوى بنائه للكعبة مع ولده إسماعيل وهذا ما تنكره التوراة، وقد اقتصر القرآن الكريم على ذكر نجاة الله له باتجاه الأرض المباركة أما كيف وصل. أي طريق سلك فهذا ليس من شأن القرآن أن يتحدث عنه باعتباره كلاماً لا يمت بصلة إلى مهمة النبي إبراهيم العقيدية.

وإذا عدنا إلى قول التوراة السابق. فاجتاز إبراهيم إلى مكان شكيم إلى بلوطة مورة... الخ. فإننا نجد أنفسنا متوقفين عن طرح تفسيرات أخرى قبل معرفة صحة كلام التوراة أم خطئه ما الذي قال إن إبراهيم اجتاز إلى مكان شكيم؟ بالطبع ليس هناك سوى التوراة.

فالقرآن الكريم تحدث باختصار بقوله ونجيناه ولوطاً إلى الأرض التي باركنا فيها... فلماذا لم يذهب إبراهيم إلى القدس وهي مركز الأرض المباركة؟ ثم لماذا استقر في الخليل ودفن هناك ولم يستقر في نابلس ويدفن فيها؟.

ستطالعنا التوراة في أسفار قادمة عن انقسام في مملكة سليمان حيث أصبحت مملكتين إحداهما في القدس والأخرى في نابلس أي شكيم. وكانت الخليل ضمن مملكة القدس. فإذا كان الوعد الإلهي لإبراهيم بأن يعطيه الأرض

له ولنسله من بعده حينما قال له انظر إلى هذه الأرض (أي فلسطين) فإن التوراتيين وجدوا ضالّتهم حينما كتبوا التوراة في أول جزء من الأرض التي زعموا أن الله قد وعد إبراهيم بها له ولنسله.

وأعتقد أن كتبة التوراة أدخلوا هذه القصة أي قصة وصول إبراهيم إلى شكيم أولاً إدخالاً ورغم أن الدكتور أحمد سوسة رسم خارطة في كتابه العرب واليهود في التاريخ لمسيرة إبراهيم من بلاد الرافدين إلى فلسطين وجعله يمر في نابلس. فرغم ذلك كله لا أعتقد أن إبراهيم مر بنابلس. والذي يدفعني للقول بذلك الأحداث الآتية. حيث انقسم لوط عنه واستقر في سادوم وعامورة وإبراهيم استقر في الخليل حيث لا توجد مسافة كبيرة بين سكن لوط وسكن إبراهيم إذ أنهما كانا يلتقيان مراراً وهذا ما ورد في التوراة نفسها. والخليل أقرب كثيراً من نابلس باتجاه سكن لوط. ولا يفوتنا أن إبراهيم وزوجته وبعض أبنائه دفنوا في الخليل المكان الذي اختاره إبراهيم للاستقرار المؤقت وحين نطالع مهمة إبراهيم حسب النص التوراتي نرى أنه كرّس حياته وجهده للتجارة بالأغنام والأبقار وليس للدعوة لعقيدة التوحيد التي بسببها عذب في بلده وطورد بعد أن حطم أصنام قومه.

ليس غريباً أن يكون إبراهيم قد اقتنى الأغنام والأبقار وتاجر بها ولكن ذلك ليس هو الهم الأكبر لديه كما ورد في التوراة. فهناك مهمة مكلف بها وإلا ما معنى النبوة وما معنى أن ينجيه الله إلى أرض يبشر فيها بدعوة التوحيد. ويلاقي من سكانها القبول وعدم العداء.

وتتضح علاقة إبراهيم مع سكان الأرض المباركة من خلال التعامل الذي حصل بينه وبينهم. فهم ليسوا غرباء عنه. والدراسات التاريخية تؤكد أن الشعوب العربية انطلقت من اليمن أو من جنوب شبه الجزيرة وانطلقت إلى بلاد الرافدين وسوريا وفلسطين ولبنان والأردن وحملت معها لغتها بلهجاتٍ متعددة

وتراثها وعقائدها ومعتقداتها. فليس غريباً أن يفهم إبراهيم لغة الكنعانيين ويفهمون لغته ويعرف تراثهم لأنه يحمل أكثره في مخزونه النفسي والفكري من قبل أن يرحل من بلاد الرافدين مضطراً ومجبوراً وباحثاً عن النجاة التي كتبها الله له.

ويظهر من حديث التوراة في الإصحاح الثاني عشر من سفر التكوين التنقل السريع في مسيرة إبراهيم فهو في لحظات تورائية ينتقل من شكيم إلى بيت إيل ثم يحدث جوع في الأرض فينحدر إلى مصر.

في بداية الإصحاح الثاني عشر تقول التوراة (وكان إبراهيم ابن خمس وسبعين سنة لما خرج من حاران). ويرد في الإصحاح السابع عشر قول التوراة (وقال في قلبه هل يولد لابن مئة سنة وهل تلد سارة وهي بنت تسعين سنة).

فالفارق بين إبراهيم وسارة هو عشر سنوات وهذا يعني أن إبراهيم لما هاجر من حاران كان عمر زوجته خمساً وستين سنة. وإذا أضفنا الزمن الذي استغرقتة رحلة إبراهيم حتى وصل أرض كنعان واستقراره فيها بعض الوقت، فإن ذلك يعني أن إبراهيم قد شارف على الثمانين عاماً وامرأته شارفت على السبعين.

وإذا عدنا إلى الإصحاح الثاني عشر نرى التوراة تقول: (وحدث لما قسرب أن يدخل مصر أنه قال لساراي امرأته إني قد علمت أنك امرأة حسنة المنظر فيكون إذا رآك المصريون أنهم يقولون هذه امرأته فيقتلونني ويستبقونك قولي إنك أختي ليكون لي خير بسببك) وتتابع (فحدث لما دخل إبرام لمصر أن المصريين رأوا المرأة حسنة جداً ورآها رؤساء فرعون ومدحوها لدى فرعون. فأخذت المرأة إلى بيت فرعون فصنع إلى إبرام خيراً بسببها وصار له غنم وبقر حمير وعبيد وإماء وأتن وجمال).

فالتوراة التي دوّنها أحبار اليهود غفلت أو هي نسيت أن سارة امرأة هرة شارفت على السبعين فكيف يقولون عنها إنها حسنة جداً؟.

ويستشف أيضاً أن إبراهيم ذهب إلى مصر ليتاجر بجمال زوجته ليحصل على الغنم والبقر والحمير والعييد. وهذا الكلام مرفوض من أساسه لأن زوجته لم تكن جميلة وهي التي شارفت على الهرم. ثم حاش لإبراهيم أن يعتمد مبدأ الغاية تبرر الوسيلة فيجعل امرأته وسيلة ليحصل على الغنم وبقية الماشية والعييد.

يقول ابن حزم الأندلسي (ومن المحال أن تكون في هذا السن تفتن ملكاً)⁽¹⁾.

وهذا لم يأت على ذكره القرآن الكريم لأنه ينافي أبسط قواعد النبوة وقوانينها الإلهية.

ويبدو أن إبراهيم لم يطل الإقامة في الأرض المباركة بسبب حدوث جوع فيها. والتوراة تنص على أنه هاجر إلى مصر ومكث فيها مدة. ثم ما لبث أن عاد إلى الأرض المباركة وقد حمل معه بضاعته إلى جانب جارية اسمها هاجر كانت سارة قد اتخذتها جارية لها بعد عودتها من مصر ثم أهدتها لزوجها إبراهيم لينجب أولاداً لأنها شاخت ويئست من الحمل والإنجاب.

تقول التوراة في ذلك: (وأما ساراي امرأة إبرام فلم تلد له. وكانت لها جارية مصرية اسمها هاجر فقالت ساراي لأبرام هو ذا الرب قد أمسكني عن الولادة ادخل على جاريتي لعلني أرزق منها بنين فسمع إبرام لقول ساراي. فأخذت ساراي امرأة إبرام هاجر المصرية جاريتها من بعد عشر سنين لإقامة

(1) ابن حزم الأندلسي الفصل بين الملل والأهواء والنحل صفحة 225 المجلد الأول.

إبرام في أرض كنعان وأعطتها لأبرام رجلها زوجة له فدخل على هاجر فحبلت)
إصحاح 16.

ولم يشير القرآن الكريم إلى رحلة إبراهيم لمصر وزواجه من هاجر. إنما
تحدثت عن قصة ذبح إسماعيل ثم بناء الكعبة وهذا ما سنطلع عليه في حينه.

ونستطيع أن نبين الأحداث التي مرت بإبراهيم وهو في الأرض المباركة
من خلال آيات القرآن الكريم ومن خلال ما أوردته التوراة.

1 - زواجه من هاجر وولادة إسماعيل عليه السلام.

2 - قصته مع لوط وتدمير سادوم وعمورة من قبل ملائكة الرب.

3 - بشرى الملائكة لزوجته سارة بإنجاب ولد.

عقيدة إبراهيم في التوراة والقرآن:

تظهر أول علاقة بين النبي إبراهيم وبين الله حسب ما ورد في التوراة
عندما قال له الرب اذهب من أرضك ومن عشيرتك إلى آخر المقطع 4 من
الإصحاح الثاني عشر. ثم يظهر الرب لإبرام وقال له (لنسلك أعطي هذه
الأرض. ثم بعد اعتزال لوط عنه ظهر له الرب وقال ارفع عينيك وانظر إلى
الموضع الذي أنت فيه شمالاً وجنوباً وشرقاً وغرباً لأن جميع الأرض التي أنت
ترى لك أعطيها ولنسلك إلى الأبد. وأجعل نسلك كثراب الأرض... فنقل إبراهيم
خيامه وأتى وأقام عند بلوطات ممرا التي في حبرون).

ثم تقول في الإصحاح الخامس عشر (بعد هذه الأمور صار كلام الرب إلى
أبرام في الرؤيا قائلاً لا تخف يا إبراهيم أنا ترس لك أجرك كثير جداً فقال إبراهيم
أيها السيد الرب ماذا تعطيني وأنا ماض عقيماً... فأمن بالرب فحسبه له برا
وقال له أنا الرب الذي أخرجك من أور الكلدانيين ليعطيك هذه الأرض لترثها...

ثم في ذلك اليوم قطع الرب مع إبرام ميثاقاً قائلاً لنسلك أعطي هذه الأرض..).
وقال الله لإبراهيم وأما أنت فتحفظ عهدي أنت ونسلك من بعدك في
أجيالهم. هذا هو عهدي الذي تحفظونه بيني وبينكم وبين نسلك من بعدك.
تُختن كل ذكر منكم. فتختنون في لحم غرلتكم فيكون علامة عهد بيني وبينكم.
ثم تقول: ولأنني عرفته ولكي يوصي بنيه وببنته من بعده أن يحفظوا
طريق الرب ليعملوا براً وعدلاً فمن الملاحظ في هذه النصوص أن علاقة الرب
بإبراهيم علاقة وعدٍ بمنحه أرض كنعان له ولنسله من بعده. وتكاد تقتصر
العلاقة بينهما على ذلك الوعد. والواضح أيضاً أن هذه العلاقة ليست علاقة
تبليغ رسالة التوحيد إلى الناس.

والواقع أن دور إبراهيم الأهم هو الدعوة لديانة التوحيد بين قومه
الكلدانيين أولاً وقد ركز القرآن الكريم على هذه الناحية أشد التركيز. ولم يركز
على نسبه أو علاقته الجسدية بأولاده من بعده. إنما كان التركيز دقيقاً على
حفظ عقيدته وانتقالها منه لأولاده وأحفاده.

وتتضح شريعة النبي إبراهيم وعقيدته من خلال آيات كثيرة. وتوضح أن
لا شريعة قبل النبي نوح عليه السلام. أما الأنبياء الذين بعثوا بعد نوح كانوا
على شريعته إلى بعثة إبراهيم، وبعدها على شريعة إبراهيم إلى بعثة موسى
وهكذا.

والأنبياء أصحاب الشرائع وأولو العزم هم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى
ومحمد عليهم السلام وهذا ما دلت عليه الآية الكريمة من سورة الأحزاب (وإذا
أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى بن مريم
وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً) الآية 7.

غير أن نبوة النبي إبراهيم كانت عالمية لم تقتصر على منطقة واحدة أو على قوم دون غيرهم حيث أن إبراهيم انتقل بديانته من أور إلى كنعان إلى مكة. ومن شعب الرافدين. إلى شعب الأرض المباركة. ثم إن الأنبياء من بعده اتبعوه واتبعوا ملته.

يقول تعالى في سورة البقرة الآية 131: (إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين).

ويقول تعالى في سورة البقرة الآية 132: (يا بني إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون).

ويقول تعالى في سورة طه: (إنما إلهكم الله الذي لا إله إلا هو وسع كل شيء علماً 98).

وفي سورة الأنعام: (إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين 79).

وفي سورة النحل: (إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفاً ولم يكن من المشركين).

وفي سورة آل عمران: (يا أهل الكتاب لم تحاجون في إبراهيم وما أنزلت التوراة إلا من بعده أفلا تعقلون. ها أنتم حاججتم فيما لكم به علم فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم والله يعلم وأنتم لا تعلمون. ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين. إن أولى الناس بإبراهيم الذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا والله ولي المؤمنين).

والسيرة التوحيدية للنبي إبراهيم تسير على نسق واضح. ففي سورة مريم تقول الآية الكريمة إن إبراهيم كان نبياً: (واذكر في الكتاب إبراهيم إنه كان صديقاً نبياً) 41.

وفي السورة نفسها تذكر الآيات الكريمة أن إبراهيم توجه إلى والده بالنصح كي يبتعد عن عبادة الأصنام والشيطان ويحثه على عبادة الله الواحد.

وفي سورة الأنبياء نرى فيها إبراهيم يرفض عبادة الأصنام ويتعرض للعدوان فينجيه الله.

وفي سورة الصافات. يتابع إبراهيم محاربة الكفر وعبادة قومه.

وأخيراً توضح الآيات الكريمة أن إبراهيم لم يكن يهودياً أو نصرانياً إنما كان حنيفاً مسلماً.

ويقول تعالى: (إن هذا لفي الصحف الأولى صحف إبراهيم وموسى).

وهذا يدلنا على أن الله سبحانه أنزل على إبراهيم عليه السلام صحفاً فيها تعاليم العقيدة الحنيفية. وأهمها ما ورد في سورة (الأعلى) بقوله تعالى: (قد أفلح من تزكى وذكر اسم ربه فصلى بل تؤثر الحياة الدنيا والآخرة خير أبقى..).

ويقول تعالى: (وإذا ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن).

أما قوله: تعالى: (ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين إن أولى الناس بإبراهيم الذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا والله ولي المؤمنين). فإن فيه وضوحاً تاماً حول علاقة إبراهيم باليهود والنصارى. فإذا كان النبي موسى عليه السلام أول نبي لليهود فإن لليهود أنبياء معروفين هم موسى وداود وسليمان وعيسى وزكريا ويحيى والياس وهارون وأيوب عليهم السلام أما إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب ويوسف فهم أنبياء حنيفيون وهذا ما أكدت عليه آيات القرآن الكريم في أكثر من سورة. ولم تكن رسالتهم مقتصرة مغلقة. وتسمية حنيفيين، ليست ميزة تفضيلية على الأنبياء إنما هي تسمية لأنبياء ما قبل التوراة.

والذين يقولون بأن اليهود على دين إبراهيم لا يدركون معاني القرآن ولا مقاصدها. حتى يعقوب الذي أطلق عليه (إسرائيل) كان حنيفياً على ملة جده إبراهيم وليس لليهود علاقة به.

أما تعاليم صحف إبراهيم فهي التي نراها في القرآن الكريم والتي طبقها رسول الله صلى الله عليه وسلم وهي تعاليم التوحيد والإنذار وتبيين الجزاء والعقاب وتوضيح طريق الخير من طريق الشر، غير أن الصحف التي أنزلت على إبراهيم اندثرت بشكلها المكتوب ولم تبق إلا تعاليمها التي بثها إبراهيم في أبنائه وقومه والناس الذين أتبعوه. وقضت حكمة الله أن يتوالى بعث الأنبياء ليكملوا تعاليم الله بعد أن يضل الناس وينحرفوا عن طريق التوحيد.

وقد جاء في التوراة ما نصه: وملكي صادق ملك شاليم أخرج خبزاً وخمراً وكان كاهناً لله العلي وباركه وقال مبارك إبرام من الله العلي مالك السماوات والأرض ومبارك الله العلي الذي أسلم أعدائك في يدك) سفر التكوين.

ولم يرد ذكر للملكي صادق في القرآن الكريم غير أن بعض الباحثين قالوا بأن ملكي صادق كان نبياً أو رسولاً موحداً بين شعب كنعان. وبعضهم الآخر رفض ذلك مطلقاً واعتبر التوراتيين قد أدخلوا اسم ملكي صادق إدخالاً. فلا يعقل أن يتلقى إبراهيم مباركة من غيره وهو أبو الأنبياء وأشهر من نادى بديانة التوحيد في عصره.

وفي هذا السياق يرى عباس محمود العقاد أن اليهود تعلموا النبوة الإلهية بلفظها ومعناها من شعوب العرب. ولم تكن لهذه الكلمة عند اليهود لفظة تؤديها قبل وفودهم على أرض كنعان ومجاورتهم للعرب المقيمين في أرض مدين فيقول في كتابه (الثقافة العربية ص 71): إن كلمة نبي عربية لفظاً ومعنى لأن المعنى الذي تؤديه لا تجمعها كلمة واحدة في اللغات الأخرى والعبرانيون قد استعاروها من العرب في شمال الجزيرة بعد اتصالهم بها، لأنهم كانوا يسمون

الأنبياء القدماء بالآباء. ولم يفهموا من كلمة النبوة في مبدأ الأمر إلا معنى الإنذار فكانوا يسمون النبي بالرائي أو الناظر أو رجل الله ولم يطلقوا عليه اسم نبي إلا بعد معرفتهم بأربعة من أنبياء العرب المذكورين في التوراة وهم ملكي صادق وأيوب وبلعام وشعيب الذي يسمونه يثرون معلم موسى الكليم).

وهذا القول يشير إلى أن ملكي صادق ربما يكون نبياً والله أعلم.

بينما يرى آخرون أن التوراتيين أرادوا إقحام ملكي صادق للقاءه مع إبراهيم كي يقولوا إن إبراهيم تلقى بعض تعاليمه من غيره.

على أية حال نعود فنقول إن القرآن الكريم لم يشر إلى لقاء بين إبراهيم وملكلي صادق وإن عقيدة إبراهيم التوحيدية هي عقيدة خصها الله في عصره لينادي بها ويدافع عنها ويتفق القرآن مع ما قالته التوراة في أن الله سبحانه وعد إبراهيم بأنه سيكون أمة رغم أن التفسيرين يختلفان في معنى أمة. وعلى الرغم من أن بعض المفسرين المسلمين ذهب إلى تفسير أمة بأن إبراهيم كان إماماً يؤتم به.

ويقول تعالى في سورة النحل: (إن إبراهيم كان أمة قانتاً لله حنيفاً ولم يك من المشركين) الآية 120.

ويقول النص التوراتي في الإصحاح السابع عشر: (أما أنا فهو ذا عهدي بيني وبينك وأكثرك كثيراً جداً... وتكلم الله معه قائلاً أما أنا فهو ذا عهدي معك وتكون أباً لجمهور من الأمم) سفر التكوين الإصحاح 17.

وتورد التوراة أن إبراهيم انتقل إلى أرض الجنوب وسكن بين قادش وشور وتغرب في جرار.

وقال عن سارة امرأته إنها أخته. وتحدثت عن قصة مشابهة تماماً لقصته التي روتها التوراة عن سفره لمصر وادعائه بأن سارة أخته وليس زوجته.

وهذا بالطبع لم يرد في القرآن الكريم مثله في ذلك مثل القصة الأولى. غير أننا نقول هنا إن عمر إبراهيم آنذاك كان قد بلغ المئة وأن سارة كانت قد بلغت التسعين وقد قالت التوراة (وقال في قلبه هل يولد لابن المئة سنة وهل تلد سارة وهي بنت تسعين سنة) وهذا ما كان في الإصحاح الثامن عشر. وتورد التوراة قصة تغربه في الإصحاح العشرين وهذا التغرب كان في جرار عند الملك أبيمالك حسب قول التوراة.

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا ما الدافع عند أبي مالك ليطلب سارة وهي امرأة عجوز عمرها تسعون سنة؟.

إننا نعتقد أن قصة إبراهيم مع أبيمالك ليست إلا تليقاً توراتياً صنعه وهم أحبارهم إما عن جهل بالأمور. وإما عن قصد يريدون من ورائه إثبات أن الله أنزل معجزاته لأجل سارة التي ستكون أم اسحق، النبي الذين يدعون انتسابهم له ولاينه يعقوب من بعده.

ونستطيع أن نقول: إن المقام لم يُطل بإبراهيم في أرض واحدة فهو ينتقل من مكان إلى مكان ومن بلد لبلد وليس ذلك إلا بسبب تكليفه من الله عز وجل بتبشير ديانة التوحيد بين الناس. وليس بسبب تجارة الأغنام والأبقار كما تدعي التوراة. وكما قلنا سابقاً إن عمل إبراهيم بالتجارة ليس شيئاً غريباً ولكن الغريب في الأمر أن تتنكر التوراة لدعوته التي هي سبب سفره وتنقله الدائم في أرجاء الشام والجزيرة العربية.

إبراهيم ولوط عليهما السلام:

تتداخل شخصية النبي إبراهيم مع النبي لوط عليهما السلام ولا خلاف في أن لوطاً هو ابن أخي إبراهيم وذلك حسب ما ذكرت التوراة وحسب ما قاله المفسرون المسلمون.

ويبدو من خلال الآيات القرآنية الكريمة أن صلة قوية تربط الشخصيتين ببعضهما. إذ تبدأ هذه الصلة منذ أن نجى الله إبراهيم من قومه في وادي الرافدين.

يقول تعالى في سورة الأنبياء الآية 71: (ونجيناه ولوطاً إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين).

وتوضح التوراة هذه الصلة إذ تبين أن لوطاً هو ابن أخي إبراهيم لكنها لم توضح لم هاجر معه دون سائر أقاربه. فالذين هاجروا مع إبراهيم هم لوط وسارة وبعض من آمن بعقيدة إبراهيم.

غير أن القرآن الكريم يوضح أن هجرة لوط مع عمه كانت هجرة إلى الله وفراراً بدينه وعقيدته يقول تعالى في سورة العنكبوت الآية 26: (فآمن له لوط وقال إني مهاجر إلى ربي إنه هو العزيز الحكيم).

أما في التوراة فيأتي في سفر التكوين الإصحاح الثاني عشر: (فذهب إبرام كما قال له الرب وذهب معه لوط. وتقول فأخذ إبرام ساري امرأته ولوطاً ابن أخيه وكل مقتنياتهما).

وفي الإصحاح 13: (فصعد إبرام من مصر هو وامرأته وكل ما كان له ولوط معه إلى الجنوب).

ولوط السائر مع إبرام كان له أيضاً غنم وبقر وخيام، ولم تحتملهما الأرض أن يسكنا معاً. فحدثت مخاصمة بين رعاة مواشي إبرام ورعاة مواشي لوط. وكان الكنعانيون والفرزيون حينئذ ساكنين في الأرض. فقال إبرام للوط لا تكن مخاصمة بيني وبينك لأننا نحن أخوان. اعتزل عني إن ذهبت شمالاً فأنا يميناً وإن يميناً فأنا شمالاً.

فرفع لوط عينيه ورأى كل دائرة الأردن أن جميعها سقي قبلما أخرب الرب سدوم وعمورة فاختر لوط لنفسه كل دائرة الأردن. وارتحل لوط شرقاً فاعتزل الواحد عن الآخر. إبرام سكن في أرض كنعان ولوط سكن في مدن الدائرة. ونقل خيامه إلى سدوم. وكان أهل سدوم أشراً وخطاة لدى الرب جداً. إلى هذا الحد نتوقف عند الجزء الأول من دراسة شخصية لوط المرتبطة بشخصية إبراهيم.

في القرآن الكريم يتضح أن إبراهيم اتجه إلى الأرض المباركة ومعه لوط وسارة. وأن لوطاً آمن بعقيدة التوحيد وأعلن أنه مهاجر إلى الله. وليس لغاية أخرى.

وفي التوراة يرافق لوط إبراهيم في هجرته.

لكن التوراة ترى أن لوطاً كان يمتلك غنماً وبقراً وخياماً ولكثرة أعداد الحيوانات التي معه لم تحتمله الأرض مع إبراهيم. والقارئ لهذا النص يتبادر له أن كلا منهما كان يمتلك مئات الرؤوس من الحيوانات. وعلى ذلك يسأل السائل من أين حصل لوط على هذه الأعداد من الغنم والبقرة؟ هل جلبها معه من حاران؟ أم حصل عليها بهذه السرعة وكثرت حتى ضاقت به وبإبراهيم الأرض؟

حقيقة الأمر أن الانفصال الذي تم بين إبراهيم ولوط ليس انفصلاً أبدياً. فإبراهيم استقر في الخليل ولوط استقر في دائرة الأردن عند البحر الميت والمسافة بينهما ليست بعيدة. أما لماذا افترقا فلأسباب والغايات واضحة في القرآن الكريم. الدعوة لعقيدة التوحيد وتبليغ رسالته. فإبراهيم يدعو في منطقة ولوط يدعو في منطقة أخرى. وقد أوردت التوراة وأورد القرآن الكريم أن شعب سدوم وعمورة كان شعباً شريراً يأتي الفواحش.

ولما كانت المنطقة التي يقطنها إبراهيم عليه السلام قريبة من المنطقة التي يسكنها لوط عليه السلام فإنهما كانا يلتقيان باستمرار ويتواصلان. وسنرى الجزء الثاني من سيرة لوط وكيف كان يتم الاتصال بينهما.

ذهب لوط في مهمته الشاقة ليهدي قوم سدوم وعمورة.

تقول التوراة: (ونقل خيامه إلى سدوم وكان أهل سدوم أشراً وخطة لدى الرب جداً. وتتابع: فجاء الملاكان إلى سدوم مساء وكان لوط جالساً في باب سدوم فلما رآهما لوط قام لاستقبالهما وسجد بوجهه إلى الأرض).

(وقبلما اضطجعا أحاط بالبيت رجال المدينة. رجال سدوم من الحدث إلى الشيخ.... فنادوا لوطاً وقالوا له أين الرجلان اللذان دخلا إليك الليلة أخرجهما إلينا لنعرفهما. فخرج إليهم لوط إلى الباب وأغلق الباب وراءه. وقال لا تفعلوا شراً يا إخوتي هو ذا لي ابنتان لم تعرفا رجلاً أخرجهما إليكم فافعلوا بهما كما يحسن في عيونكم. وأما هذا الرجلان فلا تفعلوا بهما شيئاً لأنهما دخلا تحت سقفي فقالوا ابعد إلى هناك).

(وقال الرجلان للوط من لك أيضاً ههنا وبنيتك وبناتك وكل من لك في المدينة أخرج من المكان لأننا مهلكان هذا المكان).

(وإذ أشرقت الشمس على الأرض دخل لوط إلى صوغر فأمر الرب على سدوم وعمورة كبريتاً وناراً من عند الرب من السماء وقلب تلك المدن وكل الدائرة. ونظرت امرأته من ورائه فصارت عمود ملح).

(وصعد لوط من صوغر وسكن في الجبل وابنتاه معه فسكن في المغارة هو وابنتاه. وقالت البكر للصغيرة أبونا قد شاخ وليس في الأرض رجل ليدخل علينا كعادة أهل الأرض. هلم نسقي أبانا خمراً ونضطجع معه فنحیی من أبنينا نسلًا. فسقتنا أباهما خمراً ودخلت البكر واضطجعت مع أبيها ولم يعلم باضطجاعها ولا

بقيامها وحدث في الغد أن البكر قالت للصغيرة إنني قد اضطجعت البارحة مع أبي. نسيته خمرا الليلة أيضاً فأدخلني اضطجعي معه...).

(وقامت الصغيرة واضطجعت معه ولم يعلم باضطجاعها ولا بقيامها. فحبلت ابنتا لوط من أبيهما فولدت البكر ابناً ودعت اسمه موآب وهو أبو المؤابيين إلى اليوم والصغيرة أيضاً ولدت ابناً ودعت اسمه بني عمي وهو أبو بني عمون إلى اليوم).

ولم تأت التوراة على ذكر لوط بعد ذلك كيف انتهت قصته كيف كانت دعوته. وحياته وموته بعد تدمير مدن الدائرة. كل ذلك لم تأت التوراة على ذكره فغاب غياباً مفاجئاً مدهشاً وتقول التوراة: (وقال الرب إن صراخ سدوم وعمورة قد كثر وخطيتهم قد عظمت جداً. أنزل وأرى هل فعلوا بالتمام حسب صراخهما الآتي وإلاً فأعلم. وانصرف الرجال من هناك وذهبوا إلى سدوم. وأما إبراهيم فكان لم يزل قائماً أمام الرب).

وتتحدث التوراة عن استقبال إبراهيم للملكين حيث ذبح لهما عجلاً وصنع لهما خبزاً فأكلا... وبشرا سارة ثم انطلقا ليدمرا سدوم وعمورة.

ويأتي تسلسل الأحداث في القرآن الكريم كما ورد في الآيات الكريمة

التالية :

يقول تعالى في سورة الأعراف: (ولوطاً إذ قال لقومه لِمَ تأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين إنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم مسرفون. وما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوهم من قريبتكم إنهم أناس يتطهرون. فأنجيناه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين. وأمطرنا عليهم مطراً فانظر كيف كان عاقبة المجرمين) 80 - 84.

وفي سورة هود: (ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا سلاماً قال سلام فما لبث أن جاء بعجل حنيذ فلما رأى أيديهم لا تصل إليه أنكرهم وأوجس منهم خيفة. قالوا لا تخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط وامراته قائمة فضحكت فبشرناها بإسحق ومن وراء إسحق يعقوب قالت يا وليتي آلآد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخا إن هذا لشيء عجيب) 69 - 72.

وفي سورة هود أيضا: (يا إبراهيم أعرض عن هذا إنه قد جاء أمر ربك وإنهم آتيهم عذاب غير مردود) 76.

وفي سورة هود: (ولما جاءت رسلنا لوطاً سيء بهم وضاق بهم ذرعاً وقال هذا يوم عصيب. وجاءه قومه يهرعون إليه. ومن قبل كانوا يعملون السيئات قال يا قوم هؤلاء بناتي هن أطهر لكم فاتقوا الله ولا تحزون في ضيفي أليس منكم رجل رشيد. قالوا لقد علمت ما لنا في بناتك من حق وإنك لتعلم ما نريد. قال لو أن لي بكم قوة أو آوي إلى ركن شديد. قالوا يا لوط إنا رسل ربك لن يصلوا إليك فأسر بأهلك بقطع من الليل ولا يلتفت منكم أحد إلا أمرأتك إنه مصيبها ما أصابهم إن موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب. فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل منضود مسومة عند ربك وما هي من الظالمين ببعيد) 76 - 83.

ويقول تعالى في سورة الحجر: (قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمون. إلا آل لوط إنا لمنجوهم أجمعين إلا امرأته قدرنا إنها لمن الغابرين. فلما جاء آل لوط المرسلون. قال إنكم قوم منكرون. قالوا بل جنناك بما كانوا فيه يمترون وأتيناك بالحق وإنا لصادقون فأسر بأهلك بقطع من الليل واتبع أدبارهم ولا يلتفت منكم أحد وامضوا حيث تؤمرون. وقضينا إليه ذلك الأمر أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين. وجاء أهل المدينة يستبشرون. قال إن هؤلاء ضيفي. فلا تفضحون واتقوا الله ولا تحزون. قالوا أو لم ننهك عن العالمين. قال هؤلاء بناتي إن كنتم

فاعلين لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون فأخذتهم الصيحة مشرقين فجعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل إن في ذلك لآيات للمتوسمين)

58 - 75.

ويقول تعالى في سورة الشعراء: (كذبت قوم لوط المرسلين إذ قال لهم أخوهم لوط ألا تتقون إني لكم رسول أمين. فاتقوا الله وأطيعون وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلا على رب العالمين أتأتون الذكران من العالمين وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم بل أنتم قوم عادون. قالوا لئن لم تنته يا لوط لتكونن من المخرجين. قال إنسي لعملكم من القالين. رب نجني وأهلي مما يعملون فنجيناه وأهله أجمعين إلا عجوزاً في الغابرين. ثم دمرنا الآخرين وأمطرنا عليهم مطراً فساء مطر المنذرين إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين) 160 - 174.

وقال تعالى في سورة التحريم: (ضرب الله مثلاً للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئا وقيل ادخلا النار مع الداخلين) آية 10.

ويقول تعالى في سورة العنكبوت: (ولوطاً إذ قال لقومه إنكم لتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين إنكم لتأتون الرجال وتقطعون السبيل وتأتون في ناديكم المنكر فما كان جواب قومه إلا أن قالوا ائتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين. قال رب انصرني على القوم المفسدين) 28 - 30.

إذاً فلوط آمن برسالة إبراهيم ثم هاجر معه بأمر من الله. ثم افترق عنه وراح يدعو لديانة التوحيد والأخلاق الحميدة في أقوام سدوم وعمورة. وكانت هذه المدن تسمى الدائرة وأهلها يأتون أبشع الفواحش ويصرح القرآن الكريم أن لوطاً هو نبي (إن لوطاً لمن المرسلين) الصافات 133. ويقول تعالى: (وأدخلناه في رحمتنا إنه من الصالحين) الأنبياء 75.

وتوضح الآيات الكريمة جداله مع قومه وإنكارهم لدعوته وتهديدهم له بإخراجه من الأرض التي يسكنون فيها وبسبب طهارته كادوا يقتلونه لأنهم اعتادوا النجاسة وإتيان الرجال والنساء.

وتتحدث الآيات عن مجيء الملائكة لإنذار لوط بأن الله سيتم أمره وعلى لوط أن يرحل ليلاً أو قبيل الصبح. ويهرب لوط مع بعض من أهله ومن آمن معه وتلفتت امرأته فيسقط الله النار عليها فتحرق. ويقلب الملائكة عالي الأرض إلى سافلها.

ولم تحدد الآيات الكريمة من بالذات الذين نجاهم الله مع لوط، ، بينما ترى التوراة أنه هو الوحيد من الرجال الذي نجاه الله ومعه من النساء ابنتاه.

وإذا عدنا للأحداث من بدايتها نرى فروقاً واضحة بين ما ذكره القرآن الكريم وما ذكرته التوراة فعندما جاء الملائكة ليخبروا إبراهيم عليه السلام بأمر الله القاضي بتدمير سدوم وعمورة قدم لهم إبراهيم طعاماً من لحم العجل وبعض الأطعمة الأخرى. وقالت التوراة أنهم وأكلوا من هذا الطعام. ومعروف أن الملائكة لا تأكل ولا تشرب فهي مخلوقات نورانية خلقها الله للعبودية ونزعت منها الشهوة للأكل والمشرب وغير ذلك من الأمور الخاصة بالبشر.

يقول ابن حزم: في هذا الفصل آيات من البلاء شنيعة نعوذ بالله من قليل الضلال وكثيره فأول ذلك قول التوراة إن الله تعالى تجلى لإبراهيم وأنه رأى الثلاثة النفر فأسرع إليهم وسجد وخطبهم بالعبودية. فإن كان أولئك الثلاثة هم الله فهذا هو التثليث بعينه بلا كلفة بل هو أشد من التثليث لأنه إخبار بشخص ثلاثة. وإن كان أولئك الثلاثة ملائكة فعليهم في ذلك فضائح عظيمة. أولها: من المحال والكذب بأن يتجلى الله تعالى له وإنما تجلى له ثلاثة من الملائكة. ثانيهما أنه يخاطب أولئك الملائكة بخطاب الواحد إذ يقول للثلاثة يا سيدي. وثالثها سجوده للملائكة. ورابعها خطابه لهم بأنه عبدهم. وخامسها

يأخذ قليلاً من ماء ويغسل أرجلهم. وسادسها أن إبراهيم لا يجهل أن الملائكة لا تشدد قلوبهم بأكل كسر الخبز. سابعها إخبار التوراة أن الرجال الثلاثة أكلوا الخبز والشوى والسمن واللبن. وحاشى أن يكون هذا خبراً عن الله تعالى لا ولا عن ملائكته⁽¹⁾.

ويوضح القرآن الكريم المسألة خير وضوح. يقول تعالى في سورة هود الآية 70: (ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا: سلاماً. قال سلام. فما لبث أن جاء بعجل حنيذ فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم. وأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط).

فخوف إبراهيم نابع من إحساسه الذي طرأ فجأة بأن هناك أمراً عظيماً جاءت الملائكة لأجله وقد كررت التوراة القول بأن الملائكة أكلوا الخبز والفتير عند لوط وأنه سجد لهم وتعبد. وهذا لم يرد في القرآن الكريم إنما الذي ورد قوله تعالى: (ولما جاءت رسلنا لوطاً سيء بهم وضاق بهم ذرعاً. وقال هذا يوم عصيب وجاء قومه يهرعون إليه...) إلى آخر الآيات والحقيقة الموافقة للمنطق أن لوطاً خاف على ضيوفه من قومه وأدرك أن قومه لو رأوهم لحاولوا الاعتداء عليهم.

وتقول التوراة (وقال لا تفعلوا شراً يا إخوتي هو ذا لي ابنتان لم تعرفا رجلاً أخرجتهما إليكم فافعلوا بهما كما يحسن في عيونكم).

وتقول: (فقال الرجال لوط من لك أيضاً ههنا أصهارك وبناتك وبنيتك وكل من لك في المدينة أخرج من المكان لأننا مهلكان هذا المكان).

وظاهر قول التوراة أن لوطاً عرض على الرجال ابنتيه ليفعلوا بهما ما يحلو لهم على ألا يتعدوا على ضيوفه.

(1) ابن حزم الأندلسي. الفصل بين الملل والأهواء والنحل. صفحة 220 - 221.

ويوضح القرآن الكريم موقف لوط تجاه هذا الحدث إذ يقول تعالى: (قال يا قوم هؤلاء بناتي هن أطهر لكم فاتقوا الله ولا تخزون في ضيفي أليس منكم رجل رشيد قالوا لقد علمت مالنا في بناتك من حق وإنك لتعلم ما نريد).

يقول عبد الوهاب النجار: إن لوطاً عرض على القوم بناته عرضاً سابرياً أي عرضاً غير مؤكد لا يقصد به الجد وأن يعطيهم بنتيه للزنا. ولكنه عرض ابنتيه اعتماداً على أنهم يستحيون منه ويخجلون ليكفوا عن خزائته في ضيفه كما تقول لرجل يضرب آخر وأنت تحجزه عنه اضربني أنا لأنك تقول هذا القول وأنت جد واثق بأنه لن يضربك ولو علمت أنه يضربك حقيقة ما قلت هذا القول ولا تعرضت للشفاعة وهذا القول أورده كثير من المفسرين كأبي السعود والفخر الرازي والأصفهاني وغيرهم⁽¹⁾.

وإضافة لذلك فإن إيراد التوراة قولها أصهارك وبنيك وبناتك. فإن ذلك يعني أن للوط بنات متزوجات قد تكون ابنتاه فيهن فكيف يقبل الأصهار بذلك الشين والعار وكيف كان موقفهم حين عرض لوط ابنتيه لقومه ليفعلوا بهما ما يحلو لهم؟.

وعندما تقول التوراة إن لوطاً صعد إلى الجبل لم يكن معه سوى ابنتيه. والسؤال يطرح نفسه هو كيف يطلب الرجلان أن يأخذ لوط أصهاره وبنيه وبناته. ثم لا تأتي على ذكر من نجاهم الله مع لوط سوى ابنتيه؟ ثم تقول التوراة: وقال الرجلان للوط: من لك أيضاً ههنا) 19 : 2.

يقول ابن حزم: (لا يخلو أصهار لوط وبنوه وبناته الناكحات من أن يكونوا صالحين أو طالحين فإن كانوا صالحين فقد هلكوا مع الطالحين وبطل عقد الله تعالى مع إبراهيم في ذلك وحاشى لله من هذا وإن كانوا طالحين فكيف

(1) عبد الوهاب النجار قصص الأنبياء. صفحة 148.

تأمر الملائكة بإخراج الطالحين وهم كانوا مبعوثين لهلاكهم فلا بد من الكذب في أحد الوجهين⁽¹⁾.

ونتوقف عند قول التوراة (وصعد لوط من صوغر وسكن في الجبل وابنتاه معه وسكن في المغارة هو وابنتاه إلى آخر قولها إنه زنا بهما وحملتا ثم أنجبنا ولدين الخ....).

وحاشى أن يكون قد وقع مع لوط مثل هذا الأمر. إن لوطاً آمن برسالة إبراهيم التوحيدية وأخلاقها وتربيتها الصافية وقد نجاه الله مع أهله الذين آمنوا معه وتربوا تربيته ولو كانت الابنتان الوحيدتان للوط لم تؤمنا لأهلكهما الله مع من أهلك. والواقع أن للوط بنات أخريات حسب قول التوراة. ونتساءل كيف يجوز لنبي أن تسكره ابنتاه ثم يضاجعهما دون أن يشعر. ألم يشعر لوط حقاً بشربه للخمر ألم يتذوقه؟ ألم يدر برأسه مفعوله، ألم يشعر لوط بممارسة الجنس مع ابنتيه؟. ثم لنقل أنه كان غير واعٍ غير مدرك لما يفعل. ولكن ماذا كان رد فعله عندما كبر الحمل في رحم كل منهما؟ ألم يسألها عن هذا المنكر ألم يسألها كيف حملتا؟.

ثم إذا كان لوط نبياً حقاً ألا يعصم من هذه الأفعال كلها؟ إنه كان نبياً وحاشى لنبي بعد الرسالة خاصة عدا عن قبلها أن يخدع هذه الخدعة الكبرى فيسكر ثم يزني بابنتيه. لقد كانت آيات القرآن الكريم واضحة صريحة فهي تتحدث عن لوط وقومه. هو نبي يدعو إلى الوحدانية والخير والبعد عن الفاحشة. وقد أذر قومه فما استجابوا. فكانت عاقبتهم الدمار والحرق بالنار فدمرهم الله وكانت زوجته ممن دمروا وأحرقوا كل ذلك ليبين الله سبحانه أن أكثر الناس قرباً من الإنسان وهي الزوجة لا تستحق سوى ذلك العقاب عندما ترفض الإيمان وتخون أمانة زوجها. لقد كان دور زوجته أشد كفراً من دور

(1) ابن حزم الأندلسي، الفصل بين الملل والأهواء والنحل صفحة 223.

قومها فهي حسب الروايات من أخبر القوم بأن رجلين غريبين قد دخلا بيت زوجها وكأنها تحث القوم على الفاحشة حتى ولو كانت هذه الفاحشة ستقع مع ضيفين عند زوجها.

وتقول التوراة: (فحبلت ابنتا لوط من أبيهما فولدت البكر ابناً ودعت اسمه موآب وهو أبو الموابيين إلى اليوم والصغيرة أيضاً ولدت ابناً ودعت اسمه بني عمي وهو أبو بني عمون إلى اليوم). نلاحظ أن التوراة أنجبت لابنتي لوط ولدين ذكريين لابنتين وكان القدرة الإلهية تدخلت كي تنجبا ولدين ذكريين وليس بنتين. ثم سمّت الأول موآب والثاني بن عمي لتقول إن الموابيين الذين سيحاربهم موسى في سفر الخروج هم أبناء زنى وممن؟ من لوط وابنته. ثم لتقول أن أهل عمان - عمون أيضاً هم أولاد زنى. وكل ذلك التلفيق لتحط من قدر الأنبياء أولاً ثم لتحط من شأن الشعوب المجاورة لأرض كنعان ثانياً. إن قصة سكر لوط تذكرنا بقصة سكر نوح. فنوح تعرّى ولوط زنا.

وإبراهيم ذهب إلى فرعون وأبيمالك ليتاجر بجمال زوجته المزعوم تلك الزوجة التي بلغت من العمر عتياً. فهذا هو دأب التوراة في تشويه الأنبياء لأن لا صلة بين التوراتيين والأنبياء سوى العداء السافر تارة والمبطن تارة أخرى.

كيف دمر قوم لوط وماذا تقول الشواهد والدراسات والاستنتاجات حول مصير هؤلاء القوم؟.

تقول التوراة: (وإذا أشرقت الشمس على الأرض دخل لوط إلى صوغر فأمطر الرب على سدوم وعمورة كبريتاً وناراً من عند الرب من السماء وقلب تلك المدن وكل الدائرة ونظرت امرأته من ورائه فصارت عمود ملح).

ويقول القرآن الكريم: (فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل منضود مسومة عند ربك وما هي من الظالمين ببعيد)

هود 82.

ويقول تعالى: (فأخذتهم الصيحة مشرقين فجعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل إن في ذلك لآيات للمتوسمين) الحجر 73 - 75.

ويقول تعالى: (ثم دمرنا الآخرين وأمطرنا عليهم مطراً فساء مطر المنذرين الشعراء) 173 - 174.

نلاحظ أن هناك اتفاقاً بين التوراة والقرآن على أن مصير قوم لوط ذو شقين:

1 - التدمير وقلب الأرض بهم.

2 - حرقهم بنار من السماء أمطرها الله عليهم.

يقول عبد الوهاب النجار: أعتقد أن البحر الميت المعروف الآن ببحر لوط أو بحيرة لوط لم يكن موجوداً قبل هذا الحادث. إنما حدث من الزلزال الذي جعل عالي البلاد سافلها وصارت أخفض من سطح البحر بنحو أربع مائة متر وقد جاءت الأخبار بأنهم اكتشفوا آثار مدن لوط على حافة البحر الميت وواقع الأمر أن كثيراً من الأمور المتعلقة بالبحر الميت تثير التساؤل والاندعاش وبعض الاستنتاجات. فهذا البحر أو البحيرة مغلق من جميع جوانبه. وينخفض عن سطح البحر حوالي 400 متر وهو أخفض منطقة في العالم ثم إن نسبة الملوحة العالية جداً فيه حرّمت الحياة الحيوانية والنباتية. فهو خال من أي مؤهل لحياة الحيوان أو النبات. ويطلق عليه عدة أسماء وأشهرها بحر لوط والذي أطلق عليه الميت هم اليونان، وحوله جبال يعلو بعضها إلى 1500 متر وتنحدر في أكثر الأماكن إلى شاطئه غير أنها تبتعد عنه قليلاً في قسمه الجنوبي عند جبل اصدم.

وينقذف زفت من قعر طرفه الجنوبي عند حدوث الزلزال. وبجانبه ينابيع ساخنة من جملتها عين غوير ودرجة حرارتها مئة في شهر كانون

الثاني.

وترى الكشوف الجيولوجية أن المنطقة التي تقع جنوب البحر الميت قد اكتست بالملح وربما كان سبب هذا انفجار تحت سطح الأرض حدث بعمل الهي.

ملاحظات:

عندما تحدثت التوراة عن زنا تمّ بين لوط وابنتيه ادعت أن ابنتيه قد حملتا وولدتا ولدين وهما موآب وبني عمي. ويلاحظ أن من بين أجزاء كتبهم ما يسمّى (دليل السلوك) الذي اكتشف مع ما اكتشف في خربة قمران من مخطوطات البحر الميت وهذا الدليل فيه توجيهات نظامية وعقوبات. ثم نرى أن من بين تلك المخطوطات مخطوطة لامك باللغة الآرامية وتتضمن تعليمات لإدارة الحرب بين أسباط لاوي ويهوذا وبنيامين المدعوين بأبناء النور والأدوميين والموآبيين والعمونييين والفلسطينيين المدعوين بأبناء الظلام. فالتوراة تقول عن نسل ابنتي لوط موآب وعمون بأنهم من أبناء الظلام. ولا يخفى على القارئ كيف يربط الأحداث التوراتية المقصودة ليصل إلى استنتاج واضح.

ملاحظة ثانية لابد من ذكرها:

لو حقننا بشكل دقيق في الفاحشة التي كان يرتكبها قوم لوط لأدركنا وعرفنا أنها من أشنع أنواع الممارسات الجنسية الشاذة. وقد ثبت بما لا يدع مجالاً للشك أن مرتكب هذه الفاحشة يصاب بأمراض خبيثة قاتلة ومنها مرض الإيدز (فقدان المناعة) وقد أكدت جميع التقارير الطبية العالمية أن لا دواء مكتشف لعلاج الإيدز حتى هذه اللحظات. وأن المصاب بهذا المرض أو المهيأ له ينقل الفيروس الآثم إلى الآخرين عن طريق الشذوذ أو نقل الدم. وأن الذي

يصاب به لا يلبث طويلاً ثم يموت. وقد أكدت التقارير الطبية أن أفضل حل للتخلص من المصاب بالإيدز بعد وفاته هو حرق جثته حرقاً تاماً. ولو دُفن في التراب فإن الجثة تتفسخ ولكن الفيروس المسبب للإيدز لا يموت ومن الممكن أن ينتقل إلى أشخاص أحياء عن طريق التربة.

والذي يلفت نظرنا أن قوم لوط أبيدوا جميعاً سوى لوط ومن آمن معه ولم يرتكب تلك الفواحش. وقد نصت التوراة ونص القرآن الكريم على أن تدمير قوم لوط تم أولاً بتدمير المدن ومن فيها حيث قلبت رأساً على عقب ثم أمطر الله عليهم وعلى من حاول الهرب منهم ممن كانوا على أطراف المدن بحجارة من سجيل وهي ملتهبة حتى أبيدوا جميعاً حرقاً بالنار والكبريت. ونلاحظ أن مياه البحر الميت التي غمر قسم منها مدن قوم لوط مياه مالحة مرة لاذعة ولا حياة لأي شيء فيها حتى الجراثيم الصغيرة لا يمكن أن تجد فيها حياة.

وكما قلنا لم تشر التوراة وأشار القرآن الكريم إلى نجاة بعض من قوم لوط. وحسب قول التوراة سوى لوط وابنتيه وحسب النص القرآني يقول تعالى: (إلا آل لوط نجيناهم بسحر) القمر 34.

ولعلنا جميعاً نتساءل أليس عقاب قوم لوط كان حياة لكافة الناس؟ أليس الحرق بالنار هو الوسيلة الناجحة لأمراض الشذوذ الجنسي؟.

ثم أليست آيات القرآن الكريم كشفاً ريانياً سابقاً على علوم العلماء والأطباء؟ حينما عاقب المرضى بأمراض الشذوذ بالحرق والإبادة لئلا ينشروا المرض بين الناس؟ قد يكون ذلك، والله أعلم.

على أية حال نحن نتساءل ونفترض افتراضات وإلى أن يصل الجيولوجيون وعلماء البيئة والآثار إلى نتائجهم تبقى افتراضاتنا قابلة للأخذ والرد.

إبراهيم مرحلة جديدة وعصر جديد:

يتفق التوراة والقرآن الكريم على أن الله منح إبراهيم ولدين الأول هو إسماعيل والثاني إسحق ويتفقان على أن الملائكة بشرت سارة بعد أن شاخت بأنها ستلد ولداً بعد أن تحبل وسيكون هذا الولد مباركاً. ويتضح من خلال كلام التوراة أن إسماعيل بلغ الثالثة عشرة من عمره حين وُلد أخوه إسحق.

وعندما يصبح إسماعيل في مقتبل الشباب يصدع لأمر ربه ويذهب إبراهيم إليه في مكة ليبني الكعبة المشرفة وهذا ما نراه في القرآن الكريم وتنكره التوراة.

وسنرى كيف تسير الأحداث في التوراة والقرآن لنذكر أوجه الاختلاف ثم نبين الحق من الباطل وما يتوافق مع العقل والمنطق وما لا يتوافق.

جاء في سفر التكوين الإصحاح 16 (وأما ساراي امرأة إبراهيم فلم تلد له وكانت لها جارية مصرية اسمها هاجر فقالت ساراي لإبرام هو ذا الرب قد أمسكني عن الولادة. أدخل على جاريتي لعلني أرزق منها بنين. فسمع إبراهيم لقول ساراي فأخذت ساراي امرأة إبراهيم هاجر المصرية جاريتها. فدخل على هاجر فحبلت).

(فأذلتها ساراي فهربت من وجهها فوجدها ملاك الرب على عين الماء في البرية على العين التي في طريق شور. وقال لها ملاك الرب ارجعي إلى مولاتك واخضعي تحت يديها. وقال لها ملاك الرب تكثيراً أكثر نسلك فلا يعد من الكثرة. وقال لها ملاك الرب ها أنت حبلى فتلدين ابناً وتدعين اسمه إسماعيل لأن الرب قد سمع لمذلتك وإنه يكون إنساناً وحشياً).

(فولدت هاجر لإبرام ابناً ودعا إبراهيم اسم ابنه الذي ولدته إسماعيل).

وفي الإصحاح 17: (وقال الله لإبراهيم ساراي امرأتك لا تدعو اسمها ساراي بل اسمها سارة وأباركها وأعطيك أيضاً منها ابناً).

(وقال إبراهيم لله ليت إسماعيل يعيش أمامك فقال الله بل سارة امرأتك تلد لك ابناً وتدعو اسمه إسحق وأقيم عهدي معه أبدياً لنسله من بعده. وأما إسماعيل فقد سمعت لك فيه ها أنا أباركه وأثمره وأكثره كثيراً جداً اثني عشر رئيساً يلد وأجعله أمة كبيرة ولكن عهدي أقيمه مع إسحق الذي تلده لك سارة).

(فأخذ إبراهيم إسماعيل ابنه وجميع ولدان بيته وختن لهم غرلتهم وكان إسماعيل ابنه ابن ثلاث عشرة سنة حين ختن).

وفي الإصحاح 21: (وافتقد الرب سارة كما قال: وفعل الرب لسارة كما تكلم فحبلت سارة وولدت لإبراهيم ابناً في شيخوخته. ودعا إبراهيم اسم المولود الذي ولدته له سارة إسحق).

(ورأت سارة ابن هاجر المصرية الذي ولدته لإبراهيم يمزح فقالت لإبراهيم: اطرد هذه الجارية وابنها. لأن ابن الجارية لا يرث مع ابني إسحق. ففحح الكلام جداً في عيني إبراهيم لسبب ابنه).

فبكر إبراهيم صباحاً وأخذ خبزاً وقربة ماء وأعطاهما لهاجر واضعاً إياهما على كتفيها والولد وصرفها فمضت وتاهت في بركة بئر السبع. ولما فرغ الماء من القربة طرحت الولد تحت إحدى الأشجار ومضت وجلست مقابله بعيداً نحو رمية قوس. لأنها قالت لا أنظر موت الولد. فجلست مقابله ورفعت صوتها وبكت وسمع الله صوت الغلام ونادى ملاك الله هاجر من السماء وقال لها مالك يا هاجر لا تخافي لأن الله قد سمع لصوت الغلام حيث هو. قومي احملي الغلام وشدي يدك به لأنني سأجعله أمة عظيمة. وفتح الله عينيها فأبصرت بئر ماء فذهبت وملاّت القربة ماء وسقت الغلام وكان الله مع الغلام فكبر وسكن في البرية. وسكن في بركة فاران وأخذت له أمه زوجة من أرض مصر).

وفي الإصحاح 22: (وحدث بعد هذه الأمور أن الله امتحن إبراهيم فقال له يا إبراهيم فقال ها أنذا فقال خذ ابنك وحيدك الذي تحبه إسحق إلى أرض المريا وأصعده هناك. فأخذ إبراهيم حطب المحرقة ووضعه على إسحق وأخذه بيده النار والسكين. وكلم إسحق إبراهيم أباه وقال يا أبي هو ذا النار والحطب ولكن أين الخروف للمحرقة فقال إبراهيم الله يرى له الخروف للمحرقة يا بني. فلما أتيا إلى الموضع الذي قال له الله بنى هناك إبراهيم المذبح ورتب الحطب وربط إسحق ابنه ووضعه على المذبح فوق الحطب ثم مد إبراهيم يده وأخذ السكين ليذبح ابنه فناداه الرب من السماء: لا تمد يدك إلى الغلام فرفع إبراهيم عينيه ونظر وإذا بكبش وراءه ممسكاً في الغابة بقرنيه فذهب إبراهيم وأخذ الكبش وأصعده محرقة عوضاً عن ابنه).

الإصحاح 25: (وعاد إبراهيم فأخذ زوجة اسمها قطوره فولدت له زمران وبيتشان ومدان ومديان ويشباق وشوحاً).

(وهذه أيام سني إبراهيم التي عاشها مئة وخمسة وسبعون سنة وأسلم إبراهيم روحه ومات بشيبة سالحة شيخاً وشبعان أياماً ودفنه إسحق وإسماعيل في مغارة المكفيلة).

أما مجريات الأحداث مع النبي إبراهيم عليه السلام وعلاقته بأولاده وزوجتيه فإنها ترد في القرآن الكريم على الشكل التالي وحسب التسلسل التاريخي الدالة عليه آيات القرآن الكريم.

يقول تعالى في سورة الصافات: (وقال إنني ذاهب إلى ربي سيهدين.. رب هب لي من الصالحين فبشرناه بغلام حليم. فلما بلغ معه السعي قال يا بني إنني أرى في المنام أنني أذبحك فانظر ماذا ترى قال يا أبت إفعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين فلما أسلما وتله للجبين. وناديناه أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزي المحسنين. إن هذا لهو البلاء المبين. وفديناه

بذبح عظيم وتركنا عليه في الآخرين. سلام على إبراهيم كذلك نجزي المحسنين
إنه من عبادنا المؤمنين. وبشرناه بإسحاق نبياً من الصالحين وباركنا عليه وعلى
إسحق) 99 - 112.

وفي سورة آل عمران: (قل آمنا بالله وما أنزل علينا وما أنزل على إبراهيم
وإسماعيل وإسحق) 84.

وفي سورة هود: قالوا لا تخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط وامرأته قائمة
فضحكت فبشرناها بإسحق ومن وراء إسحق يعقوب قالت يا ويلتي أألد وأنا
عجوز وهذا بعلي شيخاً إن هذا الشيء عجيب) 72.

وفي سورة الحج: (وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت أن لا تشرك بي شيئاً
وطهر بيتي للطائفين والقائمين والركع السجود) 26.

وفي سورة إبراهيم (ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند
بيتك المحرم. ربنا لقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم وارزقهم
من الثمرات لعلهم يشكروا ربنا إنك تعلم ما يخفى وما نعلن وما يخفي على
الله من شيء في الأرض ولا في السماء) 37 - 38.

ويقول تعالى في سورة البقرة: (وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمناً
واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى. وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتي
للطائفين والعاكفين والركع السجود وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا بلداً آمناً
وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر قال ومن كفر فأمتعه
قليلاً ثم اضطره إلى عذاب النار وبئس المصير. وإذ يرفع إبراهيم القواعد من
البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم) 125 - 127.

(ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب
علينا إنك أنت التواب الرحيم. ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك

ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم) 125 - 129.

ففي التوراة تركيز واضح على قصة حقد وضغينة من طرف سارة لهاجر ثم إقامة العهد مع إسحق وليس مع إسماعيل. يطلب إبراهيم من ربه أن يعيش إسماعيل ليباركه الله، لكن الرب يقول لإبراهيم إنني سأجعل سارة تحبل وتأتي بولد اسمه إسحق فأقيم معه ونسله العهد وليس مع إسماعيل.

ثم تتضايق سارة من إسماعيل لأنها رأتها يمزح فتطلب من إبراهيم طرد إسماعيل وأمه وترد قولها إن إسماعيل لا يرث مع إسحق لأنه ابن جارية.

ثم زود إبراهيم ابنه إسماعيل وزوجته هاجر ببعض الماء والطعام وصرفها وتاهت في برية بئر السبع ثم جلست في ظل شجرة حتى نفذ الماء منها فجاءها ملاك الرب وقال لها قومي احملي الغلام ثم تبصر بئر ماء فتملأ القربة وتسقي الغلام ثم يكبر إسماعيل وتأخذ له أمه زوجة من أهل مصر. أما متى ذهبتم وجاءت بزوجة إسماعيل فلم تورد التوراة شيئاً عن ذلك ولم تذكر التوراة عن سكان - فاران - أو عمّن شاهد هاجر وكيف عاشت وكيف كبر الولد وترعرع.

ثم تورد التوراة قصة الذبيح إسحق حيث يقول الرب لإبراهيم خذ ابنك وحيدك الذي تحبه إسحق. فالتوراة تقول عن إسحق وحيدك علماً أنها لم تتوان عن ذكر إسماعيل وكيف أن الرب باركه ووعد إبراهيم أن يكثر نسله.

ويتفق القرآن مع التوراة على أن لإبراهيم ولدين والأكبر هو إسماعيل والأصغر هو إسحق لكن لمر مع التوقف ماذا خلقت التوراة من أوهام متناقضة في تفاصيل الأحداث.

يقول الإمام ابن كثير: فلفظ إسحق هنا مقحمة لأنه ليس هو الوحيد ولا البكر وإنما ذلك هو إسماعيل. وإنما حمل اليهود على هذا حسد العرب فإن إسماعيل أبو العرب الذين يسكنون الحجاز والذين منهم رسول الله صلى الله

عليه وسلم. وإسحق والد يعقوب وهو إسرائيل الذي (يَدْعُونَ) الانتساب إليه فأرادوا أن يجروا هذا الشرف إليهم فحرفوا كلام الله وزادوا فيه⁽¹⁾.

ثم تتحدث التوراة عن أن هاجر أخذت فتاة مصرية لإسماعيل وهذا كلام يجر القارئ إلى الظن أن هاجر أخذت لإسماعيل زوجة مصرية من قومها وعليها فإن إسماعيل ليس له علاقة بالعرب.

ثم يموت إبراهيم ويدفنه إسماعيل وإسحق، أما وقد عرفنا أن إسحق قد عاش مع أبيه إبراهيم إذاً فأين كان يعيش إسماعيل؟ وكيف جاء بعد هذا الغياب أو التغييب الكبير من قبل التوراة. فجأة وبعد انقطاع طويل عن أخبار إسماعيل وأمه يظهر إسماعيل ليدفن أباه مع أخيه إسحق.

لقد بدأت قصة إبراهيم بعد استقراره في الأرض المباركة والجزيرة العربية بعيداً عن أور الكلدانيين بدعائه إلى الله أن يهب له بعد كبره غلاماً من الصالحين فبشره ملاك الرب بغلام حلیم. ويكبر الولد ثم يرى إبراهيم أنه يذبحه فأخبره بتلك الرؤيا فلم يعارض الولد وأخذه ليذبحه ثم فداه بكبش عظيم. وبعد أن كبر إسماعيل ولدت سارة إسحق ولو دققنا النظر في الزمن الذي يفصل بين ولادة إسماعيل وولادة إسحق لوجدناه أكثر من 15 عاماً وإسماعيل ختن وكان عمره ثلاثة عشر عاماً ولم يكن إسحق قد وُلد بعد.

وتورد التوراة أن النبي إبراهيم أطلال المسير بأمر ربه إلى أن هداه الله إلى وادي مكة حيث لا زرع ولا ماء. وعندما تورد التوراة أن هاجر جلست تحت شجرة فهذا يعني أن المكان غير صحراوي والاحتمال الأكبر فيه ماء لأن الشجر لا يحيا بدونه. والقرآن الكريم يوضح على لسان إبراهيم أنه أسكن من ذريته - إسماعيل - مع أمه في واد غير ذي زرع عند البيت الحرام. وهذا يعني أيضاً أن البيت المحرم كان معروفاً لدى إبراهيم قبل أن يبنيه وإلا فلماذا اختار الله

(1) البداية والنهاية جزء 1 ص 159 ابن كثير.

سبحانه أن يبني البيت في هذا المكان. ثم قال إبراهيم. أسكنتهم ليقيموا الصلاة. ثم يدعو الله أن يجعل أفئدة الناس تهوي إليهم وأن يرزقهم من الثمرات ثم يقول إبراهيم يا رب أنت تعلم ماذا نخفي وماذا نعلن. أي ربنا تعلم ما أضمر من الحزن على فراق ولدي - ذريتي.

وتمثل هاجر لقضاء الله وأمره وتتحلى بالصبر حتى نفذ الماء والزاد فصارت تبحث عن الماء مهرولة بين جبلي الصفا والمروه سبع مرات ثم تعود إلى ابنها لتجده يضرب الرمل بقدميه حتى نبع الماء بقدره الله. فشربت وسقت ابنها. ثم صارت الطيور تحوم في السماء حول الماء فتنبه الرعاة وتنبه رجال القوافل للطيور وأدركوا أن الطير لا تحوم إلا على ماء أو طعام فتساءلوا فيما بينهم هل في هذا الوادي ماء. فأجابوا ما علمنا أن بهذا الوادي ماء. فأرسلوا بعض رجالهم ليبشروهم بوجود نبع ماء. فأتوا إلى هاجر وآسوها. ثم ارتحلت معهم قريباً من الماء حتى شب إسماعيل وكبر وتزوج سنهم أي من قبيلة جرهم العربية.

وتقول التوراة كما مر معنا أنه تزوج من مصرية. وقد يكون هذا الكلام صحيحاً. لأن المصادر العربية تورد قصة زواج إسماعيل من اثنتين وذلك بإشارة من أبيه إبراهيم عندما زاره ولم يجده ووجد زوجته وأبدت بخلها وأخبرت إسماعيل بعد أن رجع إلى بيته بأن رجلاً أوصافه كذا وكذا يوصيه بأن يغير عتبة بيته. ولم تدرك معنى ذلك فعرف إسماعيل ذلك فطلقها وتزوج من أخرى أبدت كرمها وخيريتها عندما زاره أبوه مرة أخرى ولم يجده ووصى زوجته الثانية أن يحافظ على عتبة بيته، أي أن يحافظ على زوجته، ومن الطبيعي أن إسماعيل سينجب ممن بقيت عنده ودامت ويجدر بنا أن نلاحظ في هذا الصدد الخلاف في عمر إسماعيل عندما ارتحلت أمه به ما بين ما أوردته التوراة وما أورده القرآن. فالتوراة ترى أن إسماعيل أخذ يمزح مع سارة فطلبت من إبراهيم

طرده وأمه وهذا يعني أنه كان كبيراً. بينما نستدل من آيات الكتاب المبين أن إسماعيل كان طفلاً صغيراً عندما أخذ يضرب الأرض برجليه وهو لا يعي ما يفعل. ولو كان إسماعيل كبيراً وفتى في مقتبل العمر لتصرف تصرفاً آخر. فقد يبحث عن البشر. قد يتحدث مع أمه يحثها على الصبر. قد يفعل أي شيء آخر يتناسب مع سنة. هذا من جانب ومن جانب آخر لا تورد التوراة رحلة هاجر وإسماعيل إلى وادي مكة بل ذكرت أنها وصلت بئر السبع فقط. إذاً فأين الكعبة وبنائها؟ أين إبراهيم من هذا العمل العظيم.

إن القرآن الكريم يركز على بناء الكعبة من قبل إبراهيم وإسماعيل. وقد جاء النبي إبراهيم إلى إسماعيل وأخبره أن الله أمره ببناء الكعبة وأشار عليه جبريل بالمكان الذي يبني فيه البيت وراحا يعملان وكلما بنيا حجراً كانا يقولان ربنا تقبل منا أنت السميع العليم. وقد استجاب الله سبحانه لدعاء إبراهيم فجعل الله مكة بلداً آمناً أفاض عليه بالرزق وقد استهوى أفئدة الناس الذين يحجون إليه والذين يودون الحج إليه ومن من المسلمين لا يرغب بأداء فريضة الحج وزيارة الكعبة والطواف حولها؟ ترى بعض الروايات أن النبي إبراهيم (ص) أراد أن يضع حجراً مميزاً ليكون علماً للناس فأوصى له جبريل أن يضع الحجر الأسود في ركن من أركان الكعبة. وهذا الحجر كان قد جاء به عليه السلام من الجنة وذلك حسب روايات كثيرة. ومنها ما أخرجه الأزرقى عن عبد الله بن عمر⁽¹⁾.

لقد بنيت الكعبة وسط تقاطع طرق وسقت المياه المارين الرحل ثم استقر حولها بعض الناس. وتكاثروا وجلبوا إليها آخرين حتى أصبحت مأوى عدة قبائل واتسع الحرم وساحته حتى أصبح كما نراه اليوم.

(1) السيوطي. الدر المنثور في التفسير المأثور ص 246.

أما لماذا لم تذكر التوراة رحلة إبراهيم إلى مكة وبناء الكعبة مع ابنه إسماعيل فهناك أسباب عديدة:

1 - إن محاربة إسماعيل تدخل في صلب المصالح اليهودية بعد غزوهم لفلسطين.

2 - إن الذين كتبوا التوراة لم يتمكنوا من طمس مآثر النبي إبراهيم لأن المسيرة المتعلقة بإبراهيم الخليل لا يمكن أن يضعها سوى أعداء إبراهيم وإلا كيف نفسر العاهات التي ألصقوها بإبراهيم الخليل بالنسبة إلى اتجاره بزوجته في مصر عند فرعون وفي فلسطين عند أبيمالك وبالنسبة إلى جعله شخصية عادية دون هوية حضارية لا بل راعياً في حل وترحال حتى مماته فأين الرسالة وأين مبدأ أصحاب العقائد الذين يقدمون نفوسهم للموت دون التنازل عن مبدئهم⁽¹⁾.

إن بناء الكعبة من قبل إسماعيل وإبراهيم لا يروق لليهود لأنهم لا يرغبون إلا في احتكار كل أمر هام وتبئيه، إن القبائل العربية تنتسب إلى إسماعيل وفي مقدمتهم كنعانيو فلسطين، وإسماعيل لم يذهب إلى مصر إنما ترعرع في الصحراء في قبيلة جرهم. لقد سفّه اليهود إسماعيل بداعي أنه ابن جارية⁽²⁾.

لقد بدأت محاولة التزييف اليهودي بنشر التوراة متصلة بالإنجيل على ما بينهما من اختلاف وتناقض وذلك لحمل المسيحية على تبني دعواهم الباطلة في الوعد الإلهي لإبراهيم الذي يحاولون قصره على إسحق وأبناء يعقوب وحجب إسماعيل أبي العرب والمسلمين وابن إبراهيم الكبير ثم محاولة إيجاد تاريخ لهم في فلسطين⁽³⁾.

(1) اللآلي مفيد عرنوق ص 174 - دار النهار - بيروت.

(2) اللآلي مفيد عرنوق ص 175 - دار النهار - بيروت.

(3) المخططات التلمودية، أنور الجندي ص 184 الطبعة الثانية دار الاعتصام 1977.

وقد أعلنت ألواح الطين التي كتبت بالخط المسماري والتي وجدت في أطلال بابل ونيينوى وبلاد ما بين النهرين أن بني إسماعيل كانوا حقيقة واقعة وأن أبناءه الإثني عشر صاروا قبائل قوية تناوئ بابل وآشور ومصر والإغريق والرومان⁽¹⁾.

لقد ركزت آيات القرآن الكريم على بناء الكعبة وذكر مكة. ولو أمعنا النظر في ذلك لعرفنا أن التركيز جاء ليدلنا على صلة نبي الله إبراهيم (ص) بالمنطقة العربية وليس للعبرانيين أية علاقة به ولو كانت لهم علاقة به حسب ما يدعون لكانوا أول من حج البيت الحرام لأن الذي بناه هو جدهم. لكن الحقيقة تقول إن بناء الكعبة وتقديسها لا يروقان لليهود كون هذا التقدير وهذا البناء تم من قبل إبراهيم وابنه البكر إسماعيل. لأن اليهود لا يعترفون ببناء الكعبة أو هم يعرفون ويخفون الحقائق.

ومكة أول بيت بني في الأرض ليعبد فيه الله سبحانه وهذا أيضاً لا يتوافق مع تعاليم التوراتيين الذين يحاولون طمس كل رمز لعقيدة التوحيد وإظهار هيكل سليمان الذي زعموه على أنه المعبد الأول الذي عبد فيه الله الواحد في كافة أنحاء الأرض.

وحتى تلغي التوراة أية معجزة مرتبطة بماء زمزم فقد أوردت بشكل مقتضب عن هاجر أم إسماعيل حين قالت: (قومي احملني الغلام وشدي يدك به لأنه سأجعله أمة عظيمة وفتح الله عينيه فأبصرت بئر ماء فذهبت وملاّت القربة ماء وسقت الغلام) الإصحاح 18.

فالأمر عادي بالنسبة للتوراة، عطش مؤقت ولا وجود لصحراء بل هناك شجر أيضاً وليست هناك معجزة بينما يأتي القرآن صريحاً حين يتحدث عن إبراهيم واسماعيل. فإبراهيم أسكن من ذريته بواد غير زرع ولا شجر ولا نبات.

(1) المخططات التنبؤية. أنور الجندي ص 122 الطبعة الثانية دار الاعتصام 1977.

وهنا يكمن سر المعجزة معجزة بئر زمزم، وطالما أن إسماعيل نبي اصطفاه الله فإن آية نبوته من واقعة بئر زمزم. وإلا لما كان هناك سبب آخر أو معجزة أخرى لتكون دلالة علي نبوته سوى ما بشر به القرآن الكريم عن تلك النبوة.

أما عن قصة ذبح إبراهيم لابنه فقد أوردت التوراة أن إسحق هو الذبيح.

جاء في الإصحاح 22: (وحدث بعد هذه الأمور أن الله امتحن إبراهيم فقال له يا إبراهيم فقال ها أنذا. فقال: خذ ابنك وحيدك الذي تحبه إسحق إلى أرض المريا وأصعده هناك فأخذ إبراهيم حطب المحرقة ووضع على إسحق ابنه وأخذ بيده النار والسكين وكلم إسحق إبراهيم أباه وقال يا أبي هوذا النار والحطب ولكن أين الخروف للمحرقة فقال إبراهيم الله يرى له الخروف للمحرقة يا ابني.... وربط إسحق ابنه ووضع على المذبح فوق الحطب ثم مد إبراهيم يده وأخذ السكين ليذبح ابنه...)

غير أن الحقيقة التي يمكن اكتشافها أن إسماعيل هو الذبيح. وهذا ما يدل عليه ظاهر الآيات القرآنية الكريمة. وما يدل عليه أيضاً ما قالته التوراة نفسها.

ففي سورة الصافات وبعد أن قال الله تعالى: (وفديناه بذبح عظيم) 107 يقول تعالى: (وتركنا عليه في الآخرين سلام على إبراهيم كذلك نجزي المحسنين إنه من عبادنا المؤمنين. وبشرناه بإسحق نبياً من الصالحين وباركنا عليه وعلى إسحق) 108-113.

ولاشك أن الضمير في (وعليه) في آخر الآية راجع إلى الذبيح إسماعيل فالإتيان بالبشرى بإسحق بعد ذكر القصة صريح في أن إسحق غير الغلام الذي ابتلى إبراهيم بذبحه (وفي اعتقادي أن لفظ إسحق حشر حشراً في غضون القصة

وذلك حرصاً من اليهود على أن يكون أبوهم هو الذبيح الذي جاد بنفسه في طاعة ربه وهو في حالة صغره⁽¹⁾.

والدليل على أن الذبيح هو إسماعيل من التوراة نفسها، أن الذبيح وصف بأنه ابن إبراهيم الوحيد أي الذي ليس سواه إذ سخاوة نفس إبراهيم بولده الوحيد يذبحه امتثالاً لأمر ربه له في المنام أدل على نهاية الطاعة والامتثال لأمر الله. وإذا رجعنا إلى إسحق لم نجد له وحيداً لإبراهيم في يوم من الأيام لأن إسحق ولد لإسماعيل نحو أربع عشرة سنة كما هو صريح في التوراة وأيضاً فإن ذبح إسحق يناقض الوعد الذي وعد به إبراهيم من إن إسحق سيكون له نسل. وحقيقة أخرى تقول إن مسألة الذبح وقعت في مكة لأن إسماعيل ذهب به أبوه إليها رضيعاً وكون إسماعيل هو الذبيح يؤكد كونه الابن الأكبر وكون الحادثة جرت في مكة المكرمة حسب ما قاله أكثر المفسرين.

وهذا ما ورد في صحيح البخاري عن ابن عباس حيث قال: (إن النبي صلى الله عليه وسلم قال... ثم جاء بها إبراهيم وبابنها إسماعيل وهي ترضعه حتى وضعها عند البيت عند دوحه فوق زمزم في أعلى المسجد) الخ... وهو حديث طويل يتحدث عن إسماعيل وإبراهيم عليهما السلام بشكل مفصل.

وروى سعيد بن جبير ويوسف بن مهران والشعبي ومجاهد وعطاء بن أبي رباح عن ابن عباس أنه قال: (إن الذبيح إسماعيل. وقال: زعمت اليهود أنه إسحق وكذبت اليهود).

قال محمد بن كعب القرظي: فذكرت ذلك لعمر بن عبد العزيز وهو خليفة إذ كنت معه بالشام فقال لي عمر إن هذا الشيء ما كنت أنظر فيه وإنني لأراه كما قلت: ثم أرسل إلى رجل كان عنده بالشام وكان يهودياً فأسلم وحسن إسلامه وكان يرى أنه من علماء اليهود فسأله عمر بن عبد العزيز عن ذلك وأنا

(1) عبد الوهاب النجار. قصص الأنبياء ص 131.

عنده فقال أي ابني إبراهيم الذي كان أمر بذبحه؟ فقال إسماعيل ثم قال : والله يا أمير المؤمنين إن اليهود لتعلم ذلك ولكنهم يحسدونكم معشر العرب على أن يكون أبوكم الذي كان أمر الله بذبحه لما فيه من الفضل الذي ذكر أنه كان منه بصبره على ما أمر به فهم يجحدون ذلك ويزعمون أنه إسحق⁽¹⁾.

أما سيرة إسحق فقد عرفنا من خلال التوراة أنها تسير على الشكل التالي :

فإسحق يأتي بعد ولادة إسماعيل بـ 15 سنة ، تحمل أمه سارة به بعد أن عجزت وكان إبراهيم قد شاخ. وختن إبراهيم إسحق وهو ابن ثمانية أيام. ولما كبر وطم صنع إبراهيم وليمة عظيمة احتفالاً باكتمال إسحق سن الفطام.

والسؤال الذي نطرحه حول هذه القصة لماذا لم يحتفل إبراهيم يوم ولادة إسماعيل أو يوم ختنه؟ أليس هو ابنه مثل إسحق. ألم يأت بعد شيخوخة طويلة وبعد يأس زوجته من الحمل؟ طبيعي أن التوراة تريد أن تركز على إسحق وترفع من شأنه أمام والده وأمام من حوله حتى يقال إن إبراهيم ورث ابنه إسحق عقيدته ووعد ربه في امتلاك الأرض حسب زعم التوراة.

ثم نتحدث التوراة عن قصة الذبيح وتنسبها إلى إسحق وقد ناقشنا هذه المسألة أثناء الحديث عن النبي إسماعيل.

وتتابع التوراة الحديث عن إسحق ، فتقول إن إبراهيم طلب من رئيس خدمه أن يذهب إلى أور الكلدانية ليخطب بنت أخيه لابنه إسحق. وقد أوصى إبراهيم بالآ يأخذوا لابنه زوجة من بني كنعان (واستحلفني سيدي قائلاً لا تأخذ زوجة لابني من بنات الكنعانيين الذي أنا ساكن في أرضهم بل إلى بيت

(1) عبد الوهاب النجار: قصص الأنبياء ص: 131- 132.

أبي تذهب وإلى عشيرتي وتأخذ زوجة لابني. ويتزوج إسحق إحدى قريباته وتدعى رفقة أخت لابان وبتوثيل).

ونتساءل مرة أخرى لماذا يطلب إبراهيم أن لا يتزوج ابنه من بنات الكنعانيين بينما تشير التوراة وبعض الأخبار أن زوجة إبراهيم الثالثة والتي تدعى قطورة هي كنعانية؟ لماذا لم يجد إبراهيم حرجاً من زواجه من كنعانية بينما يجد هذا الحرج في زواج ابنه. إن التوراة تريد أن تقول من وراء ذلك إن نسل إسحق نقي وهو جنس واحد. على الرغم من أن زواج إسحق من قريبته يعني حفاظه على عرقه الكلداني وليس لليهود شأن أو علاقة بالموضوع كله. لكن اليهود الذين يحاولون أن ينسبوا أنفسهم إلى يعقوب بن إسحق يريدون من وراء ذلك أن يثبتوا زعمهم بانتسابهم إلى عرق نظيف لم يخالط دمه دماء الشعوب الأخرى والتوراة نفسها التي تدعي أن إبراهيم رفض زواج ابنه من كنعانية لم تورد السبب لا من قريب ولا من بعيد. ولم يذم إبراهيم الكنعانيين أو يستاء منهم. وكيف يستاء منهم وهم الذين وجدوا في عقيدته التوحيدية ما يتناسب وعقائدهم.

وتتابع التوراة قولها: في الإصحاح 25 (وأعطى إبراهيم إسحق كل ما كان له وأما بنو السراري اللواتي كانت لإبراهيم عطايا وصرهم عن إسحق ابنه شرقاً إلى أرض المشرق) فالتوراة تصر على أن إبراهيم يميز بين أبنائه. وإبراهيم الذي بارك إسماعيل وبنى وإياه الكعبة يحرمه من ورثته بينما تقتصر الورثة على إسحق. ويحرم إبراهيم أولاده الآخرين أبناء السراري لأنهم أولاد جاريات. وكأن الله الذي اصطفى إبراهيم نبياً لا يعرف كيف ينتفي أنبياءه ليكونوا عادلين حتى بين أبنائهم. إن الله سبحانه منزه عن ذلك وإبراهيم منزه أيضاً عن ذلك. والقرآن لا يشير لا من قريب أو من بعيد إلى تفضيل إسحق على غيره من

أبناء إبراهيم وقال تعالى: (لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا
غفرانك ربنا وإليك المصير) سورة البقرة الآية 285.

يقول تعالى: (أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما
تعبدون من بعدي قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحق إلهاً
واحداً ونحن له مسلمون) البقرة 133.

فحكمة الله اقتضت أن لا يفرق بين رسله، فعلى لسان يعقوب وهو الذي
يدعي اليهود نسبتهم له يقول مخاطباً أبناءه ما تعبدون. قالوا نعبد إلهك وإله
آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحق. فقد ساوى الله سبحانه بين إسماعيل وإسحق
في وريثة إبراهيم. وهي وريثة عقيدة التوحيد وهي أهم ما ورث إبراهيم لبنيه.

وتقديم إسماعيل على إسحق في الآية الكريمة لا يعني التفضيل ولا تقديم
إسحق على إسماعيل يعني التفضيل. إنما أشارت الآية هنا إلى أن إبراهيم
أنجب إسماعيل أولاً فإسماعيل وعي عقيدة أبيه التوحيدية قبل إسحق بسبب
فارق السن الكبير وهو خمسة عشر عاماً. إذ لا أسبقية لأحد على الآخر سوى
في السن.

وتورد التوراة قولها (تكثيراً أكثر نسلك فلا يعد من الكثرة) والخطاب
لهاجر أم إسماعيل ثم تورد: (وأما إسماعيل فقد سمعت لك فيه ها أنا أباركه
وأثمه وأكثره كثيراً جداً إثني عشر رئيساً يلد وأجعله أمة كبيرة). إصحاح 17.

وتورد التوراة أيضاً والخطاب لإبراهيم من قبل الرب: (أباركك مباركة
وأكثر نسلك تكثيراً كنجوم السماء وكالرمل الذي على شاطئ البحر).

فإذا نظرنا ملياً إلى هذه الفقرات فإننا سنجد أن وعد الله لإبراهيم
وإسماعيل قد تحقق فقد كثر أبناؤهما حتى أصبحوا بمئات الملايين. ودعوة
النبي محمد صلى الله عليه وسلم جعلت مئات الملايين تعتنق الإسلام. هذا على

مستوى الجانب العقيدي وإذا كان الأمر على مستوى الجانب العرقي فالعرب وهم من نسل إسماعيل يبلغون 200 مليون نسمة. فوعد الله لإسماعيل تحقق على يد محمد صلى الله عليه وسلم وإذا أخذنا الجانب الآخر وهو وعد الله لإسحق بأنه سيكثر نسله حتى يصبح كرمل البحر الذي على الشاطئ فإننا سنجد هذا الوعد لم يتحقق في بني إسحق ويعقوب. فإذا ادعى اليهود أنهم من أتباعه ومن نسله وإذا ادعت التوراة أن الله وعد إسحق بتكثير نسله فأين نسله منذ ظهر اليهود حتى اليوم؟ وحسب النص التوراتي فإن نسل إسحق يجب أن يكون على أقل تقدير كنسل اسماعيل إن لم يكن أكثر منه. لكن أتباع العقيدة اليهودية فرضوا على عقيدتهم ستاراً حديدياً فلا يقبلون من يتهود إلا لغايات يهودية خاصة جداً ولذلك ظل الدين اليهودي ديناً غير عالمي كالإسلام.

على أية حال نحن لسنا بصدد عمل إحصائي نحصي فيه اليهود حتى نقارب أعدادهم بأبناء إسماعيل أو أتباع العقيدة الإسلامية. والمسألة لا تؤخذ في هذا الاتجاه إلا من جانب التوراة، أما الجانب القرآني فلا تقرر الآيات الكريمة ولا جوهر العقيدة الإسلامية بكثرة النسل والاعتزاز به إنما يقر المنهج القرآني الرباني بعدد الذين يتبعون عقيدة إبراهيم والذين لا يشركون بالله شيئاً. والذين يؤمنون بأنبياء الله وتعاليم الخالق، فالآيات القرآنية جميعها تتناول المسألة من باب العقيدة التوحيدية. ومن باب من يتبع هذه العقيدة. ولو كان الأمر مرتبطاً بالنسب العرقي واقتصر تعاليم الله على جنس دون جنس لانتفى عدل الله وحاشى له أن لا يكون عادلاً. وهذا بالطبع مرفوض عقيدياً ومرفوض في تعاليم القرآن. إن الرسول محمد صلى الله عليه وسلم قال لسلمان الفارسي أنت من أهل بيتي ونسبه إلى بيته لتقواه وليس لنسبه. ومعلوم أن سلمان فارسي الأصل والمنبت.

وحيث نتابع التوراة وهي تتحدث عن النبي إسحق عليه السلام سنرى مزيداً من الحس العنصري العرقي الذي تنسبه التوراة إلى الرب تارة وتارة أخرى إلى الأنبياء.

ففي سفر التكوين الإصحاح 25 (وصلى إسحق إلى الرب لأجل امرأته لأنها كانت عاقراً فاستجاب له الرب فحبلت رفقة امرأته وتزاحم الولدان في بطنها فقال إن كان هكذا فلماذا أنا فمضت لتسأل الرب فقال لها الرب في بطنك أمتان ومن أحشائك يفترق شعبان. شعب يقوى على شعب وكبير يستعبد الصغير).

فلما كملت أيامها لتلد إذا في بطنها توأمان فخرج الأول أحمر كله كفروة شعرة فدعوا اسمه عيسو وبعد ذلك خرج أخوه ويده قابضة بعقب عيسو فدعي اسمه يعقوب، نلاحظ هنا أن مسألة عقم الزوجة يتكرر. فإبراهيم لا تحبل امرأته إلا بعد أن عجزت وتلك معجزة أقرها القرآن الكريم وأقرتها التوراة، ومرة أخرى تأتي زوجة إسحق عاقراً ثم تحبل بمعجزة من الله بتوأم أحدهما يعقوب والآخر عيسو أو العيص.

وهذا يعني حسب تركيبة الأخبار في التوراة أن ولادة الأنبياء الذين ينتسبون إليهم لن تتم إلا بمعجزة من الله. فلماذا زوجة إسحق فقط؟ لماذا لم تكن زوجة إسماعيل عاقراً هي أيضاً؟ بالطبع حتى يقول اليهود إن الله بارك نسل إسحق بعد عقم زوجته. فالمسألة ترتبط بمعجزة ولم يأت يعقوب إلا بعد معجزة وهكذا أصل بني يعقوب منذ إبراهيم ومن ثم إسحق.

والقرآن الكريم لم يتعرض لقصة إسحق كما أوردتها أخبار التوراة إن الآيات القرآنية تركز على إيمان إسحق واتباعه ملة أبيه إبراهيم حنيفاً مسلماً.

يقول تعالى في سورة النساء: (وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق

ويعقوب) 164.

ويقول تعالى في سورة البقرة: (يا بني إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون) 132.

وعلى أية حال فإن قصة إسحق حسب ما جاء من كلام الحق في القرآن الكريم ترتبط بالتعاليم التي تلقاها على يد أبيه وهي تعاليم الوحدانية ومن ثم ترتبط بتعليمه أولاده من بعده تلك التعاليم.

وتنص التوراة على أن جوعاً حدث فذهب إسحق ومعه زوجته إلى أبيمالك وهو أحد ملوك مدينة جرار الفلسطينية وحدثت نفس ما حدث لإبراهيم من ادعائه أن رفقة أخته وليست زوجته وتصير التوراة على تكرار ما حدث لإبراهيم مع إسحق. ومخالفة الواقع والمنطق في ذلك واضحة لا تخفى على أحد.

تقول التوراة في الإصحاح 26 (وكان في الأرض جوع غير الجوع الأول الذي كان في أيام إبراهيم فذهب إسحق إلى أبيمالك ملك الفلسطينيين إلى جرار وظهر له الرب وقال له لا تنزل إلى مصر وسأله أهل المكان عن امرأته فقال هي أختي لأنه خاف أن يقول امرأتي لعل أهل المكان يقتلونني من أجل رفقة لأنها كانت حسنة المنظر).

ولعلنا نتذكر جميعاً حادثة مشابهة لإبراهيم مع نفس الملك المدعو أبيمالك، والتي وردت أيام تغرب إبراهيم بسبب الجوع الذي حدث في الأرض. فالملفت للنظر أن كاتب التوراة نسي أن ما حدث لإبراهيم أيام أبيمالك سبق ما حدث لإسحق عند نفس الملك بأكثر من سنتين عاماً فهل يعقل أن يظل أبيمالك من أيام إبراهيم حتى أيام إسحق وقد بلغ من العمر أربعين عاماً.

ثم لماذا يتغرب إسحق إلى جرار وفيها ملك ليس له به معرفة ولماذا لم يذهب إلى أخيه إسماعيل وهو الأقرب عطفاً وعطاءً من أي إنسان آخر على أخيه؟ وهل ليس ثمة علاقة تربط إسحق بإسماعيل؟ ألا يستحق إسماعيل أن يسأل عن أحواله من قبل أخيه. وهل لاحقاً أن إسحق لم يزر أخاه إسماعيل أو

أن إسماعيل لم يزر أخاه إسحق؟ وطالما حدث جوع في الأرض فأول ما يتبادر إلى ذهن إسحق هو السفر بأهله إلى بلاد أخيه التي قد يكون فيها زرع وخيرٌ. تريد التوراة أن تقطع صلات الأخوة بين إسحق وإسماعيل وهما نبيان مرسالن كما قرر القرآن الكريم، وهذا القصد التوراتي ينطوي على أهداف أهمها أن يظهر إسحق وحيداً في مخصوصية الوعد الإلهي المزعوم بامتلاك الأرض ثم لتقول إن عقيدة إسحق وما سينبثق عنها في الأجيال التالية متفردة ليس لها علاقة بعقيدة إسماعيل.

وتنفرد التوراة دون القرآن في الحديث عن زوجة إسحق وحملها بولدين هما عيسو ويعقوب، وباعتبار أن القرآن لم يورد شيئاً عن أحداث هذه الأمور فسنتكفي بإيراد ما أورده التوراة بشكل مختصر.

تقول التوراة في سفر التكوين الاصحاح 25 - 27 (فكبر الغلامان وكان عيسو إنساناً يعرف الصيد إنسان برية ويعقوب إنساناً كاملاً يسكن الخيام. فأحب إسحق عيسو لأن في فمه صيداً وأما رفقة فكانت تحب يعقوب).

(ولما كان عيسو ابن اربعين سنة اتخذ زوجة يهوديت ابنة بييري الحثي وبسمة ابنة إيلون الحثي فكانتا مرارة نفس لإسحق ورفقة).

وتقول التوراة: (والآن خذ عدتك وجعبتك وقوسك واخرج إلى البرية وتصيد لي صيداً واصنع لي أطعمة كما أحب لآكل حتى تباركك نفسي قبل أن أموت. وكانت رفقة سامعة).

(وأما رفقة فكلمت يعقوب ابنها قائلة: فالآن يا إبني اسمع لقولي في ما أنا آمرك به اذهب إلى الغنم وخذ لي من هناك جديدين جيدين من المعزى فاصنعهما أطعمة لأبيك كما يحب فتحضرها إلى أبيك ليأكل حتى يباركك قبل وفاته).

(وأخذت رفقة ثياب عيسو ابنها الأكبر الفاخرة وألبست يعقوب ابنها الأصغر وألبست يديه وملامة عنقه جلود جديي المعزى).

(فدخل إلى أبيه وقال يا أبي فقال ها أنذا من أنت يا بني فقال يعقوب لأبيه أنا عيسو برك قد فعلت كما كلمتني. قم إجلس وكل من صيدي لكي تباركني نفسك. فقال إسحق لابنه ما هذا الذي أسرعت لتجد يا إبنني. فقال إن الرب إلهك قد يسّر لي. فقال إسحق ليعقوب تقدم لأحبك يا إبنني أنت هو إبنني عيسو أم لا. فتقدم يعقوب إلى إسحق أبيه فحسّه فقال الصوت صوت يعقوب ولكن اليبدين يدا عيسو. فباركه ثم دعا إسحق فليعطك الله من ندى السماء ومن دسم الأرض ليستعبد لك شعوب وتسجد لك قبائل. كن سيداً لأخوتك وليسجد لك بنو أمك ليكن لاعنوك ملعونين ومباركوك مباركين).

(ولما عاد عيسو فقال لإسحق أنا ابنك برك عيسو فارتعد إسحق ارتعاداً عظيماً جداً وقال فمن هو الذي اصطاد صيداً وأتى به إلي. فعندما سمع عيسو كلام أبيه صرخ صرخة عظيمة).

(وقال لأبيه باركني أنا أيضاً يا أبي فقال قد جاء أخوك بمكر وأخذ بركتك).

(فحقد عيسو على يعقوب من أجل البركة، وهرب يعقوب بأمر من أمه فذهب إلى أخواله في فاران ومكث هناك عشرين سنة يخدم خاله ويتزوج من ابنتيه ليثة وراحيل).

فالواضح مما ورد أن إسحق يحب عيسو ويفضله على يعقوب.

وأمه تحب يعقوب وتفضله على عيسو.

تقوم الأم بالتعاون مع ابنها يعقوب بخداع إسحق الأعمى ويتنكر بثياب أخيه. أما كيف يُخدع إسحق وقد عرف صوت يعقوب فهذا شأن توراتي خالص.

وتتم المباركة ولكن السؤال الذي يطرح نفسه هو هل بمجرد تغيير يعقوب لثيابه وخذاع أبيه يستأثر بالبركة وينتزعها انتزاعاً. وما المانع أن يُبارك يعقوب وبيبارك عيسو. وهل البركة إرث مادي أو وعد بالإرث المادي المحصور بابن دون آخر؟

ولعلنا بصدد الحديث عما قالته التوراة عن إسحق نرى أن النبي إسحق عليه السلام لا يمكن أن يخذع في مسألة كهذه لأن الأنبياء موحى لهم. ثم إنهم لا يحصرون بركة الله على إنسان دون آخر.

لكنه الحس التوراتي الذي يرتب الأحداث والشخصيات حسب منظار خاص يخدم الفكرة اليهودية المبنية على قانون الانتقاء والاصطفاء الذي صنعه اليهود.

عيسو لن يكون له شأن في مجريات الأحداث الآتية. فهو أولاً غير مبارك من أبيه وثانياً تزوج من غير قومه. أما يعقوب فهو مبارك من قبل أبيه وهو سيتزوج من جنسه ولا يختلط الدم فيضيع شعب الله المختار!! وسنرى فيما بعد أن يعقوب سينجب أولاده من أختين هما ليئة وراحيل وسيكون أولاده يوسف وبنيامين وبقية الأسباط هم أساس بني إسرائيل الذين يزعمون الانتساب إلى يعقوب. أما يعقوب عليه السلام فله شأن آخر في القرآن كما أن له شأناً آخر في التوراة باعتباره الشخصية المركزية في التراث العبراني.

وما نراه من صفات شخصية لدى يعقوب في القرآن أنه نبيٌ عظيمٌ صابرٌ أخلاقه أخلاق الأنبياء وليست أخلاق أناس عاديين. وهذا ما يناقض ما قصته التوراة عما فعله يعقوب بأخيه عيسو.

يقول تعالى في سورة يوسف: (قال يا بني لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيدا إن الشيطان للإنسان عدو مبين) آية 5.

ويقول تعالى: (وجاءوا على قميصه بدم كذب قال بل سولت لكم أنفسكم
أمرأً فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون) 18.

وقال تعالى (يا بني لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة
وما أغني عنكم من الله من شيء إن الحكم إلا لله عليه توكلت وعليه فليتوكل
المتوكلون) 67.

وقال: (إنما أشكو بثي وحزني إلى الله) 86.

فهذا هو النبي يعقوب عليه السلام يتصف بصفات الأنبياء المرسلين.
يرفض أن يقص ولده يوسف رؤياه على إخوته لئلا يمكروا به. ويدرك يعقوب
أن الشيطان الذي يسول للنفس أن تعمل الشر لا بد من مقاومته ورفض وسوسته.

إذا فكيف به وهو الذي يتصف بهذه الصفات يقوم بخداع أبيه والكذب
عليه. إن حديث التوراة كدأبها تشوه الأنبياء وتمس كرامتهم. يعقوب يتوكل
الله ويشكو حزنه له وهو الصابر على بلاء صعب وامتحان قاسٍ. فهذه هي
صفات الأنبياء وليست تلك الصفات التي وصفتها إياه التوراة.

إن ما ذكره القرآن الكريم عن يعقوب يضعه في مكانة سامية من الحكمة
واليقين⁽¹⁾.

ويعلق الباحث سميت على تصرفات يعقوب كما وردت في التوراة بقوله:
ولا نجد بحال من الأحوال وسيلة لقبول تصرفات يعقوب فقد كان واضحاً أنها
غير عادلة. وكان يسلك مختلف السبل وينتهز كل الفرص لينال حقوق أخيه.
كان مستعداً أن يستعمل أساليب المكر والختل والحيل ليحقق أهدافه. فيعقوب
هذا يعتبر نموذجاً حقيقياً لأخلاق اليهود. وعلى هذا تعتبر تسميتهم باسمه

(1) أحمد شلبي مقارنة الأديان اليهودية ص 134.

ميراثاً دقيقاً. فقد ورثوا عنه أكثر مما ورثوا عن إبراهيم الذي كان رجل عقيدة وإيمان أكثر منه رجل ختل ودين⁽¹⁾.

وطبيعي أن القرآن الذي يرفض أن يتصف نبي من أنبياء الله بهذه الصفات يوضح أن يعقوب النبي ما كان كذلك. بل كان نبياً صادقاً صابراً حافظاً لوصايا أبيه وجده إبراهيم وعقيدة التوحيد إنما أرادت التوراة أن تقول كان يعقوب بصفات كذا وكذا وهم يجهلون أن البحوث المقارنة والدراسات ستكشف عن انحرافهم التام عن عقيدة يعقوب وبقية الأنبياء.

يقول الدكتور أحمد شلبي معلقاً على الحياة في بيت يعقوب قائلاً: (قارئ التوراة يجد أحداثاً عجيبة يدهش الإنسان أن تجري في بيت رسول. ومن هذه الأحداث أن زوجة يعقوب راحيل كانت وثنية وقد بلغ من وثنيته أنها سرقت أصنام أبيها وفرت بها هاربة من بيت أبيها مع زوجها إلى مكان سكنه. ومن هذه الأحداث أيضاً أن راوبين بن يعقوب البكر قد زنى ببلهة زوجة أبيه وأمام أخويه دان ونفتالي وشاع هذا الخبر حتى سمعه يعقوب)⁽²⁾.

وقد جاء في سفر التكوين الإصحاح الحادي والعشرين: فسرقت راحيل أصنام أبيها وخذع يعقوب قلب لابان الأرامي إذ لم يخبره أنه هارب. وفي نفس الإصحاح يقول لابان مخاطباً يعقوب والآن أنت ذاهب لأنك اشتقت إلى بيت أبيك ولكن لماذا سرقت آلهتي.

وهذا دليل على أن راحيل لم تستطع الاستغناء عن ديانة أبيها لابان وقومها. فحباً بهذه الأصنام وعبادتها سرقتها وهي ملك أبيها وأرادت أن تحافظ

(1) God and man in early Israel نقلاً عن كتاب مقارنة الأديان أحمد شلبي ص 260.

(2) مقارنة الأديان. أحمد الشلبي ص 261.

عليها لاسيما أنها ستهاجر مع زوجها إلى منطقة أخرى قد لا يكون فيها آلهة
متمثلة بالأصنام التي كانت تعبدها.

وإذا تساءلنا ما هي تلك الأصنام وماذا تعني بالنسبة للآلهة الآرامية التي
يعبدها لابان خال يعقوب وابنته راحيل؟.

إذا درسنا الزمن الذي وجد فيه يعقوب عرفنا أنه يقع تقريباً في 1600 -
1700 ق.م وهذا يعني أيضاً أن الآراميين في تلك الفترة وجدوا في (كركاميش) أي
جرابلس وفي شمال زنجري وفي حلب ودمشق وكان أهم إله عندهم هو حدد أو
حداد وهو في الأصل إله الزوابع والعواصف وقد صنعوا له رمزاً بشكل صنم
يضعونه في بيوتهم وينقلونه في حلهم وترحالهم كما كان يفعل الأقوام المتنقلون
من مكان إلى مكان أو تلك الأقوام التي تنتقل لأجل المرعى والأمن. وقد كان
لابان خال يعقوب يسكن فدان آرام التي هي مدينة آرامية في شمال سوريا أو
بين النهرين.

وعندما لم يستطع لابان إعادة أصنامه بسبب إخفائها من قبل ابنته
زوجة يعقوب يئس من محاولته وعقد عهداً بينه وبين يعقوب. وتقول التوراة إن
لابان ويعقوب صنعا رجمة من حجارة وجعلها شاهدة على العهد. وهذا التقليد
العقيدى يرتبط بالخرافة والأسطورة والمعتقد الأسطوري أكثر مما يرتبط بديانة
توحيدية. وقد اتفق لابان ويعقوب على تحكيم إله إبراهيم وآلهة ناحور آلهة
أبيهما أي آلهة والد لابان ووالد يعقوب فقالت التوراة (إله إبراهيم وآلهة ناحور
آلهة أبيهما يقضون بيننا).

وعلى هذا فأين عقيدة يعقوب التي أخذها عن أبيه إسحق وجده إبراهيم
عليهم السلام وهل حقاً يقبل نبي مرسل أن يحكم آلهة وثنية وهو بها كافر
أصلاً. وكيف يقبل يعقوب السكوت على سرقة زوجته لأوثان أبيها وهو يرفضها
طالما هو على ديانة أبيه و جده وجاء في سفر التكوين الإصحاح 35 أيضاً (فقال

يعقوب لبنيه ولكل من كان معه اعزلوا الآلهة الغريبة التي بينكم فأعطوا يعقوب كل الآلهة الغريبة التي في أيديهم) وهذا يعني أن يعقوب يعترف بوجود إله غير إلهه ولكنها آلهة غريبة وله إله خاص ولغيره من الناس آلهة خاصة بهم ولكل ميله واعتقاده. وهذا لا يعني أن الآلهة الغريبة مرفوضة لأنها أقل شأنًا من إله يعقوب. وإذا كانت مهمة يعقوب كنبي نشر ديانة التوحيد ورفض الوثنية فما مبرر طلبه من أهله جمع الآلهة الغريبة لديه، إنَّ هذا إن دل على شيء فإنه يدل على الأمور التالية:

1 - إن أولاد يعقوب وهم الأسباط إضافة لابنه يوسف حملوا معهم من فدان آرام عقائد قومهم الذين عاشوا بينهم وهي عقائد وثنية تعتمد الآلهة الوثنية الصنمية المجسدة.

2 - إن راحيل زوجة يعقوب حملت معها أوثان أبيها لتعبدتها ولكنها لم تكن وحدها التي اهتمت بأوثانها.

3 - إن يعقوب أراد إبعاد الآلهة غير المختصة به فهو له إله خاص وبقية الآلهة غريبة.

4 - يحاول اليهود القول بأن لنبي إسرائيل إلهًا خاصًا هو لهم وحدهم دون سواهم وعلى هذا فإن هذا الإله قبلي خاص بهم كما للقبائل آلهة خاصة.

بينما تقول التوراة ذلك يصرح القرآن الكريم بما يفضح زيفهم، يقول تعالى في سورة البقرة الآيتان 132 - 133: (أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم واسماعيل وإسحق إلهًا واحدًا ونحن له مسلمون تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون).

ويقول تعالى في سورة البقرة الآية 131: (وأوصى بها إبراهيم بنبيه ويعقوب
يا بني إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون).

ونحن نتذكر جميعاً أن إبراهيم لما هاجر هو ولوط بأمر ربه من بلده إلى
الأرض المباركة كان أهم سبب في هذه الهجرة الخلاف والتناقض الكامل بين
عقيدته التوحيدية وعقيدة قومه الوثنية. فكيف يتوافق يعقوب وهو حفيد إبراهيم
مع ديانة رفضها مع ديانة جده وأبيه؟ كيف يقبل على نفسه وهو يعرف كيف
رفض جده الوثنية أن يغطي على سرقة زوجته للأوثان وجلبها معها حيث هو
ذاهب؟

إن الحقيقة تقول إن يعقوب لم يعبد آلهة وثنية وكذلك أبناؤه. فلا تعدد
للآلهة وليس هناك إلهٌ خاصٌ قبلي. إن يعقوب وبنيه لم يعبدوا سوى الله
الواحد الذي عبده الموحدون إبراهيم وأبناؤه والذي سيعبده كافة الأنبياء حتى
محمد صلى الله عليه وسلم وهو خاتم الرسل والنبیین.

لقد أشارت كل المصادر ومن بينها التوراة أن يعقوب عاش غربياً عن
أرض فلسطين أي مكان تواجد أبيه. ومكث عند أخواله في فدان أرام عشرين
عاماً وتزوج هناك من ابنتي خاله لابان. وقد أنجب هناك كافة أبنائه إلا
الأصغر منهم المدعو بنيامين. وبعد انقضاء العشرين عاماً. أتى إلى مكان تواجد
أبيه وكان يخشى أن يقتله أخوه عيسو لكن أخاه استقبله ورحب به وعفا عنه.

وما يلفتُ النظر في الإصحاح الثاني والثلاثين قول التوراة (فيقي يعقوب
وحده وصارعه إنسان حتى طلوع الفجر ولما رأى أنه لا يقدر عليه ضرب حق
فخذه فانخلع حق فخذ يعقوب في مصارعة معه وقال أطلقني لأنه قد طلع
الفجر. فقال لا أطلقك إن لم تباركني فقال له ما اسمك فقال يعقوب فقال لا
يدعى اسمك في ما بعد يعقوب بل إسرائيل لأنك جاهدت مع الله والناس
وقدرت.. فدعا يعقوب اسم المكان فنيئيل قائلاً لأنني نظرت الله وجهاً لوجه).

وفي الإصحاح الثالث والثلاثين: (وأما هو فاجتاز قدامهم وسجد إلى الأرض سبع مرات حتى اقترب إلى أخيه).

فبصريح العبارة ترى التوراة أن يعقوب صارع الله وظل قابضاً عليه حتى باركه ثم اختار له اسماً آخر غير يعقوب هو اسم إسرائيل وقال يعقوب (لأنني نظرت الله وجهاً لوجه)، فإضافة لما رأيناه من عقائد وثنية في سيرة يعقوب تغرق التوراة في الوثنية فتلصق بـيعقوب قصة صراعه مع الله يداً بيد حتى الفجر.

ثم إن يعقوب يسجد لأخيه عيسو سبع مرات وهو الذي حمل بركة أبيه دون أخيه ثم إن نساء يعقوب الأربع ليثة وجاريتها وراحيل وجاريتها وأولاده جميعهم يسجدون أمام عيسو. وكل ذلك تابع من الخوف وليس بسبب حب أو احترام. فيعقوب ومن معه لم يجد وسيلة يرضي بها أخاه سوى السجود. وهذا ما ينافي طبيعة النبوة التي خصها الله ليعقوب وهذا يذكرنا بسجود إبراهيم للملائكة حين أتوا يندرونه بأنهم سيدمرون قوم لوط حسب قول التوراة إلا إذا كان السجود سجود تحية.

على أية حال سنعود لدراسة العقائد الوثنية في العقيدة اليهودية في فصول قادمة لنذكر حقيقة هذه العقيدة وما يتلبسها من وثنية تخالف جميع خصائص العقائد التوحيدية.

أما عن الوعد الإلهي المستمر والذي يصل إلى يعقوب بأن يمتلك أرض كنعان ومن ثم أولاده من بعده فإننا سنفرد له صفحات خاصة لما له من أهمية على مستوى الصراع العقيدي بين المسلمين والصهاينة.

وحين نتابع سيرة يعقوب عليه السلام فإننا نجد أنفسنا مع النبي يوسف وقصته مع إخوته الذين يطلق عليهم الأسباط.

بشكل عام تتوافق الخطوط العريضة لقصة يوسف في التوراة والقرآن وهذا التوافق يمكن أن نلخصه بالنقاط التالية :

- 1 - يوسف ابن نبي مرسل يدعى يعقوب .
- 2 - يوسف أصغر من إخوته باستثناء واحد .
- 3 - اخوة يوسف يغارون منه ويحسدونه فيتآمرون عليه لقتله أو لإلقاءه في بئر .
- 4 - يوسف يُباع في مصر بعد أن يلتقطه بعض رجال القوافل التجارية .
- 5 - الحوادث التي تحدث ليوسف مع امرأة سيده ثم سجنه وخروجه وتملكه على خزينة الدولة هي واحدة في التوراة والقرآن .
- 6 - لقاء يوسف بإخوته وحجزه لأخيه ثم تعرفهم إليه واعترافهم بذنبهم وعودة جمع شمله مع أبيه .
- 7 - وفاة يعقوب .

ومع هذا التوافق في الخطوط العريضة للقصة بين التوراة والقرآن إلا أننا سنجد اختلافات جذرية أيضاً في الغايات والأهداف وبعض الزيادات التوراتية التي أضيفت لتضفي على القصة أسلوباً خيالياً أسطورياً .

تقول التوراة في سفر التكوين الإصحاح 27 (ومضى إخوته ليرعوا الغنم غنم أبيهم عند شكيم فقال إسرائيل (يعقوب) ليوسف أليس إخوتك يرعون عند شكيم تعال فأرسلك إليهم، اذهب انظر سلامة إخوتك وسلامة الغنم ورد لي خيراً فأرسله من وطاء حبرون إلى شكيم).

(فذهب يوسف وراء إخوته فوجدهم في دوثان).

(فلما أبصروه من بعيد قبلما اقترب إليهم احتالوا له ليميتوه.. هلم نقتله ونطرحه في إحدى الآبار ونقول وحش رديء أكله).

وفي الإصحاح 39: (ثم حدث نحو هذا الوقت أنه دخل البيت ليعمل عليه ولم يكن إنسان من أهل البيت هناك في البيت. فأمسكته بثوبه قائلة اضطجع معي. فترك ثوبه في يدها وهرب وخرج إلى خارج وكان لما رأت أنه ترك ثوبه في يدها وهرب إلى خارج أنها نادت أهل بيتها وكلمتهم قائلة انظروا قد جاء رجل عبراني ليداعبنا. دخل إلي ليضطجع معي فصرخت بصوت عظيم وكان لما سمع أنني رفعت صوتي وصرخت أنه ترك ثوبه بجانبه هرب وخرج إلى خارج فوضعت ثوبه بجانبها حتى جاء سيده إلى بيته).

وفي الإصحاح 42 (فذكر يوسف الأحلام التي حلم عنهم وقال لهم جواسيس أنتم لتروا عورة الأرض جنتم. أرسلوا واحداً منكم ليجيء بأخيكم وأنتم تحبسون فيمتحن كلامكم هل عندكم صدق وإلا فوحياة فرعون إنكم لجواسيس بهذا تمتحنون. وحياة فرعون لا تخرجون من هنا إلى بمجيء أخيكم الصغير إلى هنا).

وفي الإصحاح 46 (وولد ليوسف في أرض مصر منسى وإفرايم اللذان ولدتهما له أسنات بنت فوطي فارع كاهن أون).

(فصعدوا من مصر وجاءوا إلى أرض كنعان إلى يعقوب أبيهم وأخبروه قائلين يوسف حي بعد. فجمد قلبه لأنه لم يصدقهم ثم كلموه بكل كلام يوسف الذي كلمهم به).

وفي الإصحاح 46. (جميع نفوس بيت يعقوب التي جاءت معه إلى مصر سبعون.

وفي الإصحاح الخمسين: (فوقع يوسف على وجه أبيه وبكى عليه وقبله وأمر يوسف عبيده الأطباء أن يحنطوا أباه. فحنط الأطباء إسرائيل وكمل له أربعون يوماً لأنه هكذا تكمل أيام المحنطين. ومات يوسف وهو ابن مئة وعشر سنين فحنطوه ووضع في تابوت في مصر).

أما في القرآن الكريم فقد أفرد الله سبحانه وتعالى سورة تضم 111 آية اختصت بالحديث عن يوسف وأبيه وإخوته والعزيز وإمراته. إضافة إلى آية من سورة الأنعام وآية في سورة غافر.

وسبب نزول هذه السورة في القرآن الكريم أن كفار مكة لقي بعضهم اليهود وتباحثوا في ذكر محمد صلى الله عليه وسلم فقال لهم اليهود: سلوه لم تنتقل آل يعقوب من الشام إلى مصر وعن قصة يوسف فنزلت. وهذا ما قاله النسفي في تفسيره.

ونستعرض الآيات التي تشير إلى بداية صراع بين يوسف وإخوته ومن ثم مسيرة حياة يوسف كما يراها القرآن الكريم.

يقول تعالى: (إذ قال يوسف لأبيه يا أبت إنني رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين. قال يا بني لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيداً إن الشيطان للإنسان عدو مبين) آية 4 - 5.

ويقول تعالى: (إذ قالوا ليوسف وأخوه أحبُّ إلى أبينا منا ونحن عصبة إن أبانا لفي ضلال مبين⁸. اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً يخل لكم وجه أبيكم وتكونوا من بعده قوماً صالحين⁹. أرسله معنا غداً يرتع ويلعب وإنا له لحافظون¹²).

(فلما ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه في غيابة الجب وأوحينا إليه لتنبئهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون¹⁵).

(وجاءت سيارة فأرسلوا واردهم فأدلى دلوه قال يا بشراي هذا غلام وأسروه بضاعة والله عليم بما يعملون¹⁹).

(ولما بلغ أشده أتيناه حكماً وعلماً وكذلك نجزي المحسنين²²).

(وقال الذي اشتراه من مصر لامرأته أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً) 21.

(وراودته التي هو في بيتها عن نفسه وغلقت الأبواب وقالت هيت لك قال معاذ الله إنه ربي أحسن مثواي إنه لا يفلح الظالمون) 23.

(يا صاحبي السجن أرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتها وأنتم وآبائكم ما أنزل الله بها من سلطان إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون) 39-40.

(وقال الملك ائتوني به أستخلصه لنفسي فلما كلمه قال إنك اليوم لدينا مكين أمين) 54.

(قالوا يا أيها العزيز إن له أباً شيخاً كبيراً فخذ أحدنا مكانه إنا نراك من المحسنين) 78.

(واسأل القرية التي كنا فيها والعير التي أقبلنا فيها وإنا الصادقون) 82.

(فلما دخلوا عليه قالوا يا أيها العزيز مسنا وأهلنا الضر وجئنا ببضاعة مزجاجة فأوف لنا الكيل وتصدق علينا إن الله يجزي المتصدقين) 88.

(ورفع أبويه على العرش وخروا له سجداً وقال يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقاً وقد أحسن بي إذ أخرجني من السجن وجاء بكم من البدو من بعد أن نزع الشيطان بيني وبين إخوتي إن ربي لطيف لما يشاء إنه هو العليم الحكيم) 100.

(رب قد أتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث فاطر السموات والأرض أنت وليي في الدنيا والآخرة وتوفني مسلماً وألحقني بالصالحين) 101.

ضمن الخطوط العامة نرى توافقاً في الأحداث التي جرت مع النبي يوسف في التوراة والقرآن وقد أوردنا ملخصاً لهذه الخطوط.

تورد التوراة أن يوسف كان قد بلغ من العمر سبعة عشر عاماً عندما كاد له إخوته بينما يورد القرآن أنه كان غلاماً صغيراً وذلك في قوله تعالى يا بشراي هذا غلام. ومن كان في السابعة عشرة من عمره يبعد أن يصنع معه ما صنع يوسف. ولو كان فعلاً في هذا السن لقاوم أو صرخ أو تصرف أي تصرف مدافعاً عن نفسه حين هم إخوته بإلقائه في الجب.

ويوسف حسب ما أوردته التوراة بشأن عمره أصبح يشكل خطراً على إخوته بسبب حب أبيه المميز له وبسبب صفاته الخاصة التي افتقدوها والتي تؤهله كي يصبح ذا شأن.

ويفيدنا القرآن الكريم أن قصة الرؤيا لدى يوسف وحديثه لأبيه بشأنها حدث أثناء غياب إخوته وتفيد التوراة أن قصة الرؤيا حدثت بحضرة إخوته وتقول إن أباه انتهره على هذا القول وقال له متهمكاً (لعلنا نسجد لك أنا وأمك وإخوتك).

وهناك اختلاف في قول التوراة إن يعقوب هو الذي بعث بيوسف ليرى شأن إخوته ولو كان يعقوب يخاف على ابنه من إخوته لما بعثه خشية أن يدبروا له أمراً مكروهاً بينما القرآن يقول إن المؤامرة قد تمّ تصورها وأنهم طلبوا لأبيهم أن يبعث معهم يوسف ليرتع ويلعب وقد كان يخشى يعقوب على ابنه من كيدهم.

وفي الروايات الإسلامية أن يوسف بعدما ترك في الجب جاءت قافلة فأرسلوا واردهم فأدلى دلوه في البئر فتعلق به يوسف فلما نزع الدلو يحسبها قد امتلأت ماء فإذا غلام وسيم قد تعلق بها فاستبشر الرجل وقال يا بشراي هذا

غلام ويقول المفسرون فسحبوا يوسف وباعوه لقافلة فيها إسماعيليون عرب. ويصل يوسف مع القافلة إلى المصريين.

وتورد التوراة أن يوسف دخل مصر وأحد الفراعنة يحكم مصر. بمعنى أن الزمن الذي جاء به يوسف إلى مصر كان زمن إحدى الأسر الفرعونية الحاكمة. وترى الدراسات التاريخية ومنها دراسة الدكتور أحمد سوسة العرب واليهود في التاريخ أن الذين كانوا يحكمون مصر آنذاك هم الهكسوس.

والقرآن الكريم لم يأت على ذكر كلمة فرعون خلال سورة يوسف إنما ذكر كلمة الملك بينما ذكر فرعون في قصة سيدنا موسى عليه السلام. وهذا دليل على أن القرآن الكريم يساعد في معرفة الزمن الذي نزل فيه يوسف في مصر.

ويرد في التوراة أن يوسف حلف بحياة فرعون. (وحياة فرعون لا تخرجون من هنا إلا بمجيء أخيكم الصغير إلى هنا) وتكرر هذا القسم أكثر من مرة. وظاهر الكلام أن يوسف سار على نهج الناس هناك حيث ألها ملوكهم. والحقيقة أن يوسف راح يدعو إلى ديانة التوحيد وهو في السجن، ومن كان يعرف حقيقة التوحيد لا يمكن أن يقسم الإيمان بحياة أشخاص ولا سيما إذا كانوا ملوكاً يدعون الألوهية أو أنصافها وتتفق التوراة مع القرآن على أن يعقوب وأولاده كانوا يعناشون من رعي الغنم وكانوا بدأً رحلاً بيوتهم من الخيام ليس لهم مستقر. ولا تربطهم بأرض كنعان أية رابطة.

أما بالنسبة لقبر يوسف فهناك رواية يهودية تقول إنه بين جبلي عيبال وجرزيم وفي واد منخفض يقع تل بلاطة الذي ورد اسمه في الكتب الدينية وفي وسطه مبنى صغير من حجرتين. يقع قبر النبي يوسف ويعتبره المسلمون واليهود أخطر بؤرة بعد الحرم الإبراهيمي في الخليل بسبب الاحتكاك اليومي بين المسلمين والمستوطنين.

وقد توسع المستوطنون اليهود من مستعمرة (إيلون موريه وبدأوا بزيارة قبر يوسف وسط بلاطة. وفي عام 1985 أقاموا في الحجرة المجاورة للمقام التي كان يسكن فيها العجوز فياض الدويك الذي كان القائم عليها حتى وفاته مدرسة دينية يؤمها الطلاب اليهود من الصباح حتى المساء وعززهم الجيش الصهيوني بحراسة دائمة من جنوده).

يبدو المكان الذي تحيط به الأسلاك الشائكة وكأنه مكان لا يمت إلى المسلمين بصلة. ففي وسطه حجر كبير مغطى بقماش بلاستيكي أخضر كتب عليه بالعبرية (قبر يوسف الصديق) وعلى جانبه حجران دائريان يعتبر اليهود أحدهما قبر إفرام بن يوسف والآخر منسى بن يوسف وتغطي كتابات عبرية كل زاوية في الحجرة الصغيرة إضافة إلى باب واحد في جدرانها تعلوه نجمتا داود ويؤكد حارس المكان الشاب فياض الدويك أن المكان الذي تعلوه نجمتا داود هو مكان المحراب الذي أغلقه المستوطنون بباب حديد واحتفظوا بمفتاحه. هذا المكان يعتبره اليهود المكان الذي دفنت فيه عظام يوسف بعد أن أحضرت من مصر. ويقول المسلمون مؤكدين أن هذا المكان ليس سوى مقام أقيم له. وبعض الروايات تقول إن المكان الذي يعتبره بعضهم قبر يوسف لا يتجاوز عمره المائتي عام وهو مكان بناه رجل تقي صالح يدعى يوسف وذلك في العهد التركي.

أما بالنسبة للرواية اليهودية فإن أحداث التوراة تشير إلى استحالة نقل عظام يوسف من مصر إلى فلسطين. ففي سفر الخروج تورد التوراة أن العبرانيين حفروا قبر يوسف ونقلوا عظامه معهم عبر سيناء. ومن المعروف توراتياً أن العبرانيين ظلوا في سيناء أربعين عاماً ومات النبي موسى ولم يدخلوا فلسطين ودخلوها غازين أيام يوشع بن نون والسؤال الذي يطرح نفسه في هذا المجال أين كانت عظام يوسف أثناء التيه في سيناء لمدة أربعين عاماً هل احتفظ بها

ومن الذي احتفظ بها وهل حافظت على شكلها ولم تتفتت وسؤال آخر يطرح نفسه أيضاً. إن التوراة تورد أن يوسف لما مات حنطوه ودفن في قبر كما فعلوا بيعقوب. فلماذا حافظت مومياء الفراعنة على شكلها حتى عصرنا الحاضر بينما أصبحت جثة يوسف عظماً نخرة في أقل من أربع مئة سنة.

وبالنسبة إلى المزاعم التوراتية عن نقل عظام يوسف إلى فلسطين من مصر، نقول إن الأحاديث النبوية الصحيحة تشير إلى أن الأنبياء لا تتغير أجسادهم بعد الموت وتبقى كما هي. وهذا النبي سليمان يموت وهو متوكئ على عصاه ويبقى سنة كاملة كأنه واقف في معبده حتى تنخر الدودة عصاه فتسقط جثته على الأرض فما بال جسده لا يتأثر بالانحلال أو النخر أو الاهتراء رغم مرور سنة على وفاته؟

إذا يوسف ظل مدفوناً في مصر ولم تنقل عظام ولا جثة. وادعاهم باطل ومرفوض.

مسألتان يجدر الإشارة إليهما:

في سياق التوراة يرد أن يوسف حنط أباه واحتفظ بجثته أربعين يوماً كما يفعل المصريون ثم يرد أن يوسف لما مات حنط الآخر ودفن بأرض مصر.

والتحنيط عادة مصرية أو هي تدخل في صلب العقائد المصرية. وكانوا يحنطون الملوك ومن جاراتهم من الوزراء والقادة. اعتقاداً منهم أنهم سيرجعون إلى عالم آخر يطلقون عليه العالم السفلي حيث تحاسبهم الآلهة وكانوا يضعون إلى جانب الجثة ما يحتاجه المرء من أكل وشراب ويعقوب عليه السلام حنط ونفذت وصيته بأن يدفن إلى جانب أبيه إسحق وجده إبراهيم. أما يوسف فيموت ويدفن في مصر ولم يرد أنه وصى أن يدفن مباشرة إلى جانب أبيه

وأجداده. إنما وصى أن تنقل عظامه. وهذا حسب ما ورد في سفر التكوين
24: 50 - 25.

المسألة الثانية تورد التوراة أن يوسف قد تزوج من أسنات بنت فوطي
فارع الكاهن الأكبر لدى المصريين. والكهنة في زمن يوسف ولا سيما في مصر
كانوا خداماً للمعابد الوثنية. فهل حقيقة أن يوسف تزوج ابنة هذا الكاهن؟
وكيف كانت العلاقة الدينية إذاً بين يوسف وبين والد زوجته؟ هل كان يوسف
يذهب معه إلى المعابد الوثنية أم أن يوسف وهو نبي دعا هذا الكاهن إلى ديانة
التوحيد؟ وحقيقة الأمر أن التوراة لا تجيب على هذه التساؤلات المفترضة بناءً
على ما جاء من حيثيات ووقائع في النص التوراتي. وقد يحتمل أن تكون
زوجته موحدة. والله أعلم.

ثم تقول التوراة إن يوسف أنجب من أسنات بنت الكاهن ولدين وسماههما
منسى وإفرايم وباعتبار أن أمهما مصرية ظلًا يعيشان في مصر وتزوجا مصريتين
وأنجبا أولادا وأحفاداً في مصر. وحسب التشريع اليهودي فإن من كانت أمه
غير يهودية لا يعتبر يهودياً. وعلى هذا فإن ولدي يوسف لا يمتان بصلة إلى
عقيدة أعمامهما وهما غريبان حتى في النسب والعرق إذ اختلط الدم وهذا أيضاً
ينفي نظرية العرق النقي للشعب العبراني التي يقول بها اليهود.

وبانتهاء دور يوسف وموته لا نجد أي أثر لأولاده في مكانة أبيهم. فلا
نرى مثلاً منسى أو إفرايم أو أي حفيد يتسلم منصباً مماثلاً لمنصب يوسف أو
لأي منصب آخر. وكأن موت يوسف كان نهاية حقبة وبداية حقبة في الحياة
المصرية السياسية والدينية.

ويظهر أن حكم الهكسوس الذي عاش في كنفه النبي يوسف قد انتهى
بالاندحار وعودة الفراعنة المصريين إلى شمال مصر بعد أن انكفأوا في الجنوب
وظلوا يحاربون الهكسوس حتى أخرجوهم من ديارهم. وباعتبار أن أحفاد

يعقوب عاشوا بنعيم واستقرار أثناء حكم الهكسوس فإن المصريين نقموا منهم وراحوا يذيقونهم أصناف العذاب. وكل ذلك بسبب ما ظهر من تعاون وثيق بينهم وبين الهكسوس الذين استعمروا مصر حقبة من الزمن.

وبانتهاء حقبة يوسف نكون قد أتينا على نهاية فترة زمنية امتدت من إبراهيم وحتى يوسف اختلفت وستختلف عما نراه من شخصيات وأحداث في الأزمان التالية.

الفصل الرابع

من غياب يوسف إلى موسى والخروج

من يوسف إلى موسى - الحلقة التوراتية المفقودة

من غياب يوسف إلى موسى والخروج

من يوسف إلى موسى — الحلقة التوراتية المفقودة.

من يستقرئ التوراة يرى أن وفاة يوسف تعني انتهاء عهد له خصائصه ومميزاته. وحين يموت هذا النبي الذي هو آخر الآباء الأولين أو الأنبياء الموحدين. تنهي التوراة مرحلة يتشابك فيها الوهم والحقيقة والأسطورة بالواقع وكلما تقترب الأحداث زمنياً من زمن تدوين التوراة يدرك المدقق في الأسفار التوراتية أن كتبة التوراة يقتربون أكثر فأكثر من تزييف الحقائق وطمس كثير من الأمور التي هي في غاية الأهمية لأي باحث أو قارئ للتاريخ.

ولعل ما يلفت النظر أن التوراة حين تنهي سفر التكوين وتبدأ بسفر الخروج تقفز قفزاً زمنياً يقلب الأمور قلباً مدهشاً وتنقلب الأحداث بمجرياتها ومعانيها انقلاباً غريباً. يدرك أي قارئ أن هناك أسباباً كثيرة تقف وراء هذا القفز الزمني المخيف.

ولعل ذلك يدفع للتساؤل ما الزمن المفقود بين يوسف وموسى؟

هل هناك أحداث وقعت لم تشر لها التوراة؟

وهل هناك أنبياء بعثهم الله لأقوامهم أغفلتهم التوراة أو تغافلت عن

ذكرهم؟

ما مصير أحفاد يوسف والأسباط أي أخوة يوسف بعد وفاته؟ هل ظلوا في مصر أم هجروها أم انخرطوا بالشعب المصري وانتهوا فيه مثل ما انتهت الحقبة الزمنية تلك؟

ماذا يخبرنا القرآن الكريم؟ كيف مهدت الأمور لظهور موسى على مسرح الأحداث؟

لنقف طويلاً متأملين...

تقول التوراة في الإصحاح الأول من سفر الخروج: ومات يوسف وكل إخوته وجميع ذلك الجيل. وأما بنو إسرائيل فأثمروا وتوالدوا وكثروا كثيراً جداً وامتلات الأرض بهم. ثم قام ملك جديد على مصر لم يكن يعرف يوسف. فقال لشعبه هوذا بنو إسرائيل شعب أكثر وأعظم منا هلم نحتال لهم لئلا ينموا فيكون إذا حدثت حرب أنهم ينضمون إلى أعدائنا ويحاربوننا ويصعدون من الأرض. فجعلوا عليهم رؤساء تسخير لكي يذلّوهم بأثقالهم فبنوا لفرعون مدينتي مخازن فيثوم ورعمسيس.

ففي بضعة سطور تتحدث التوراة باختصار شديد عن موت يوسف وإخوته وبروز جيل جديد من بني إسرائيل تكاثروا حتى ضاق بهم المصريون وتولى السلطة ملك جديد ما سمع قط بيوسف وراح المصريون يذلّون بني إسرائيل خوفاً من أن يكونوا أقوياء ويتحالفوا مع الأعداء وقد قالت التوراة إن اليهود بنوا لفرعون مدينتين.

ولعلنا نتساءل ما الذي حدث خلال الفترة الزمنية الفاصلة بين يوسف وموسى. ولماذا أدخلتنا التوراة في سفر الخروج هكذا فجأة؟ وكم هي المدة الحقيقية التي فصلت بين الزمنين؟

التوراة تقول إن الفاصل حوالي أربع مائة سنة وثلاثين.

وقد رد كثير من العلماء والباحثين على ذلك فشككوا بهذه المدة واعتبروا
كتبة التوراة مزورين للتواريخ، وقد رد على ذلك ابن حزم الأندلسي الظاهري
بقوله :

يقول ها هنا إن مسكن بني إسرائيل بمصر أربع مائة سنة وثلاثون سنة
وقد ذكر قبل أن فاهات بن لاوي دخل مصر مع جده يعقوب ومع أبيه لاوي
ومع سائر أعمامه وبني أعمامه وأن عمر فاهات بن لاوي المذكور كان مئة سنة
وثلاثة وثلاثين سنة وأن عمران بن فاهات بن لاوي المذكور كان عمره مائة سنة
وسبعاً وثلاثين سنة وأن موسى بن عمران بن فاهات بن لاوي المذكور كان إذ
خرج ببني إسرائيل من مصر مع نفسه ابن ثمانين سنة.

هذا كله منصوص كما نذكره في الكتاب الذي يزعمون أنه التوراة. فهبك
أن فاهات دخل مصر ابن شهر أو أقل وأن عمران ابنه ولد بعد موته وأن موسى
بن عمران ولد بعد موت أبيه ليس يجتمع من كل ذلك إلا ثلاثمائة عام
وخمسون عاماً فقط فأين الثمانون عاماً الباقية من جملة أربعمائة سنة وثلاثين
سنة.

فإن قالوا نضيف إلى ذلك مدة بقاء يوسف بمصر قبل دخول أبيه وإخوته
قلنا قد بين في التوراة أنه كان إذ دخلها ابن سبع عشرة سنة وأنه كان إذ
دخلها أبوه وأخوته ابن تسع وثلاثين سنة فإذن: كان مقامه بمصر قبل أبيه
وإخوته اثنين وعشرين سنة ضمها إلى ثلاثمائة سنة وخمسين سنة يقوم من
الجميع بلا شك ثلاثمائة واثنان وسبعون سنة أين الثماني والخمسون الباقية من
أربعمائة وثلاثين سنة. والصحيح الذي يخرج على نصوص كتبهم أن مدة بني
إسرائيل قد دخل يعقوب وبنوه مصر إلى أن خرجوا منها مع موسى عليه السلام

لم تكن إلا مائتي سنة وسبعة عشر عاماً فهذه كذبة في مائتي عام وثلاثة عشر عاماً⁽¹⁾.

وإذا خلصنا إلى قول ابن حزم وغيره ممن حققوا في مدة بقاء بني إسرائيل في مصر نستطيع أن نلقي الضوء على بعض الأحداث والشخصيات التي ذكرها المؤرخون والمفسرون والتي طمسها كتاب التوراة أو حاولوا تأجيل الحديث عنها لأسباب نذكرها في السياق العام.

فإذا أمعنا النظر وجدنا أن عدداً من الأنبياء وجدوا في هذه الفترة أي الفترة التي تفصل بين يوسف وموسى. وهؤلاء هم أيوب. وذو الكفل وشعيب وقد ذكروا في القرآن الكريم وتناولتهم الأخبار.

وقد قيل إن زوجة أيوب هي رحمة بنت النبي يوسف وقد ذكر ذلك الثعلبي في كتابه قصص الأنبياء. وقيل أيضاً أن أم أيوب من ولد لوط. وهذه أخبار ليست محل ثقة. إنما المعول عليه هنا أن هذا النبي وجد في تلك الفترة الواقعة بين يوسف وموسى.

وتنص التوراة أن موسى قد صاهر صاحب مدين المدعو يثرون. ويشير القرآن بوضوح إلى أن شعيب بعث لأهل مدين. وتتفق الروايات على أن شعيباً كان شيخاً كبيراً عندما التقى بموسى وهو ما يزال في ريعان شبابه.

أما ذو الكفل فيشير الإخباريون أنه ابن أيوب النبي ويدعى بشراً بعث رسولا إلى أرض الروم.

وهذه الأخبار لا تؤكد أياً من مصادر أخرى إنما ما جاء في القرآن الكريم هو خطوط عامة تتحدث عن دعوة هؤلاء الأنبياء للتوحيد والأخلاق الحميدة.

(1) الفصل بين الملل والأهواء والنحل ص 253.

وما يهمننا في هذا السياق هو أن شعيباً النبي بعث لقومه في مدين والتقى به النبي موسى وقلنا إن الأول كان شيخاً عجوزاً والثاني كان شاباً. وهذا يعني أن نبوة شعيب سبقت نبوة موسى ، ويعني أيضاً أن الحلقة الزمنية المفقودة بين يوسف وموسى لم تكن خالية من الرجال الأنبياء الذي يمهدون لبعضهم الرسالة ويكملونها.

ولهذا سنتوقف عند شخصيتي أيوب وشعيب باعتبار أنهما ذكرا في التوراة والقرآن لنرى مدى التوافق والاختلاف بين ما جاء فيهما. وأين نجد الباطل وكيف توضح الحق آيات الكتاب المبين.

أما في المنحى العام فإن أيوب ابتلي من الله بنقص بالمال والبنين والمرض وهذا ما تتفق التوراة مع القرآن به.

أما في القرآن الكريم فيقول تعالى في سورة الأنبياء الآية 83 - 84 (وأيوب إذ نادى ربه أني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين. فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضر وآتيناه أهله ومثلهم معهم رحمة من عندنا وذكرى للعابدين).

ويقول تعالى في سورة ص الآيات 41 - 44: (واذكر عبدنا أيوب إذ نادى ربه أني مسني الشيطان بنصب وعذاب. أركض برجليك هذا مغتسل بارداً وشراباً. ووهبنا له أهله ومثلهم معهم رحمة منا وذكرى لأولى الألباب. وخذ بيدك ضغثاً فاضرب به ولا تحنث إنا وجدناه صابراً نعم العبد إنه أواب).

ويفهم من سياق الآيات أن أيوب كان قد ابتلي وأصابه المرض فصبر طويلاً ثم دعا ربه أن يرفع عنه البلاء فاستجاب له وعوض له عما فقد من مال وبنين وصحة ، ويدرج ضمن قائمة الأنبياء الذين أتوا من نسل إبراهيم عليه السلام. إذ يقول تعالى في سورة الانعام: (وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء إن ربك حكيم عليم) 83. (ووهبنا له إسحق ويعقوب كلاً

هدينا ونوحاً هدينا من قبل. ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى
وهارون وكذلك نجزي المحسنين (84).

ويقول في الآية 89: (أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة...).

والآية تشير إلى الأنبياء الذين ورد ذكرهم في الآيات السابقة وأيوب نبي
منهم، أما التوراة فإنها تخصص سفرًا مستقلاً لأيوب وهو السفر الثامن عشر،
حسب الترتيب التوراتي.

وأهم ما يلتفت النظر هنا أن السفر جاء بصيغة شعرية فهو أشبه بقصيدة
طويلة لما فيه من اللغة الوجدانية والصور البلاغية وسنعود لدراسة هذا السفر
فنياً في سطور لاحقة غير أن ما يمكن أن نراه في شخصية أيوب يدلنا عل
الاختلاف الجذري بين التوراة والقرآن.

يأتي في سفر أيوب: وكان ذات يوم أنه جاء بنو الله ليمثلوا أمام الرب
وجاء الشيطان أيضاً في وسطهم فقال الرب للشيطان من أين جئت فأجاب
الشيطان الله وقال: من الجولان في الأرض (1: 6 - 7).

ويطلب الشيطان من الله أن يمتحن أيوب فيستجيب له (يقول له ابسط
يدك الآن ومس كل ماله فإن في وجهك يجدف عليك (1: 11)).

وفي الإصحاح 9 يقول (الله لا يرد غضبه ينحني تحته أعوان رهب).

ثم يقول (لو دعوت ما استجاب لي لما آمنت بأنه سمع صوتي ذاك الذي
يسحقني بالعاصفة ويكثر جروحي بلا سبب إذا قتل السوط بغتة يستهزئ
بتجربة الأبرياء).

يقول: (أحسنُ عندك أن تظلم أترذل عمل يديك وتشرق على مشورة
الأشرار ويقول: متسائلاً ألك عينا بشر أم كنظر الإنسان تنظر أمامك كأيام

الإنسان أم سنوك كأيام الرجل حتى تبحث عن إثمي وتفتش عن خطيئتي) 3-
.6

ويقول: (إلى أرض ظلمة وظل الموت أرض ظلام مثل دجى ظل الموت وبلا ترتيب وإشراقها كالدجى) 10 : 20 - 22.

ويقول: (هو ذا يهدم ولا يبني يخلق على إنسان ولا يفتح) 12 : 14.

ويقول: (أترعب ورقة مندفعة وتطارد قشا يابسا) 13 - 25.

ويقول: (أما الرجل فيموت ويبلى. الإنسان يسلم الروح فأين هو والإنسان يضطجع ولا يقوم) 14 : 10 - 12.

ويقول: (وكذلك أنت تبديد رجاء الإنسان تتجبر عليه أبدا فيذهب) 14 :

19 - 20 (هو ذا قد يسوه ولا يأتهمهم والسموات غير طاهرة بعينيه) 15 - 15.

ثم يقول: (فحطمني ونصبني له غرضا. سفك مرارتي على الأرض ويعدو

علي كجبار طرحني كنت مستريحا فزعزعني وأمسك بقفائي فحطمني). 16 : 12
.14 -

ويقول: (فاعلموا) (21 - 15) (إذا أن الله عوجني ولف علي أحبولته) 19

- 6 (من هو القدير حتى نعبده وماذا ننتفع إن التمسناه. الله يخزن إثمه لبنيه)
21 : 9.

ويقول أخيرا (هأنذا أذهب شرقا فليس هو هناك وغربا فلا أشعر به شمالا

حيث عمله فلا أنظره يتعطف وإلى الجنوب فلا أراه) 23 : 8 - 9.

فإذا ما حاولنا المقارنة بين ما جاء في التوراة وما جاء في القرآن الكريم

سنجد أن شخصية أيوب تختلف بين هذا وذاك. فأيوب في القرآن الكريم نبي

ابتلاه الله فصبر صبيرا ضرب به المثل وجزاء صبره فقد عوضه الله عما فقده من

مال وصحة وبنين.

بينما هو كذلك في القرآن الكريم نجده في التوراة رجلا مجدفا على الله يائسا من رحمته. وسنرى تتابعا سيرة أيوب في التوراة حسب النصوص التي وردت :

ففي النص الأول نلمس أن كتبة التوراة قد جعلوا لله أبناء إن كان ذلك على الحقيقة أو المجاز وهذا يؤكد أن كلمة أبناء الله تدل على جزء من عقائد الوثنية لدى التوراتيين ولعلنا نتذكر قول التوراة في سفر التكوين بأن أبناء الله رأوا بنات الناس حسناوات فراحوا يتزوجونهن وينجبون رجلا عظاما منهم.

والحوار الذي يدور بين الله والشیطان لا يدل إلا على حوار مجسد مشخص ويرى القارئ أن هذا الإله المحاور ليس إلا زعيم قبيلة له أبناء يلتفون حوله. وإلا لماذا يدخل الشيطان في وسطهم وكيف يدخل؟ هل هذا الرب غافل عن رؤية دخول الشيطان إلى ملكه وعرشه وهل هناك ثمة علاقة بين الرب والشیطان بعد اللعنة الأبدية التي لعن فيها إبليس؟

ويطلب الشيطان من الرب أن يمتحن أيوب فيستجيب له عندما يقول له (أبسط يدك الآن.. الخ) ويمتحن الرب أيوب فتسرق جماله وخرافه وممتلكاته ويموت أولاده، كل ذلك ليثبت الشيطان للإله أن أيوب لن يصبر على امتحان الرب، وكأن الرب لا يعلم الغيب ولا يدرك ماذا سيحدث مع أيوب.

وبعد الامتحان الأول يطلب الشيطان من الرب أن يزيد في ابتلاء أيوب حتى أنه يهيج الله على أيوب حتى يكاد يبتلعه. إذا ما هذا الرب وما طبيعته الغريبة حتى يستطيع شيطان أن يهيجه وأن يرميه في عداء مع عباده وأنبيائه؟ وتقع المصيبة على أيوب فينهار إيمانه بربه من ساعتها بالتجديف على ربه في جميع الإصحاحات الموجودة في السفر.

وإذ لاحظنا ما جاء في الإصحاح الرابع نرى أن التوراة تنسب الحماسة للملائكة على لسان أيوب. ومن المعروف حسب عقائد التوحيد أن الملائكة ينفذون ما يأمرهم الله ولا يخطئون لأنهم خلقوا ليكونوا أمناء على تنفيذ أحكام الله إنهم يسبحون ربهم ولا يحيدون عن أوامره، فلا حماقة يرتكبونها ولا الرب يخطئ أو تصيبه الحماسة فينسبها إلى ملائكته تخلصا من خطئه.

وفي الإصحاح السادس يصب الله كل سهامه ضد أيوب وتحيط به أهواله وكأن الله الرحيم يتحول إلى منتقم جبار حاقد.

ويطلب أيوب من الله إن كان ربا حقيقيا أن يسحقه ويقطعه ويخلصه من هذا الداء الوباء. ويطلب منه الموت. وحسب رأي التوراة فإن الموت نهاية الإنسان ولا قيامة ولا نشور. ولذلك تنفي التوراة عن نبي الله أيوب إيمانه بالنشور والحساب والعذاب وتجعله يطلب الفناء والموت نهاية لهذه الآلام.

ويتضايق أيوب من الله إلى أقصى حد حتى أنه يطلب منه أن يكف يده عنه ويبعد تسلطه عنه وفي الإصحاح التاسع إشارة لعدم استجابة الله لعبيده وأنبيائه حسب ما تزعم التوراة على لسان أيوب. فإذا أراد العبد أن يحتاج ربه لا يجيبه هذا الرب ولو على واحد من ألف مما يطلبه العبد. ثم يقول الباسط السموات وحده والماشي على البحار هو ذا يمر علي ولا أراه فلا أشعر به.

ففي هذا النص عبارة صريحة عن وثنية التوراة. فالله يتجسد كالإنسان يتمشى على أعالي البحار، ويمر قرب أيوب فلا يشعر به ولا يراه. لا هذا يشعر بربه ولا الرب يشعر بعبده المتألم. فهذا الرب سادي يتلذذ بمصائب الآخرين ويفرح لعذاباتهم.

وفي الإصحاح التاسع يقول (الله لا يرد غضبه ينحني تحته أعوان رهب).

فالله الغاضب دوما يجند أتباعه للرعب والرهب والخوف، أعوانه ينحنون خوفا منه وينفذون رعبهم ورعبه على بني البشر وهنا نرى أيضا إلغاء صفات الله الرحيم على الخالق ثم يقول: لو دعوت فاستجاب لي لما آمنت بأنه سمع صوتي ذاك الذي يسحقني بالعاصفة ويكثر جروحي بلا سبب إذا قتل السوط بغتة، يستهزئ بتجربة الأبرياء.

صفة الله أنه يكثر آلام البشر بلا سبب ويسحقهم بالعاصفة حبا بالقتل والتعذيب ثم يقول مخاطبا ربه: فهمني لماذا تخاصمني. وهنا يضيق بأيوب الحال ويطلب من ربه أن يوضح له لماذا ابتلاه بهذا المرض. لكن ربه لا يجيبه بل يظل على تعذيبه له.

وفي الإصحاح العاشر: (أحسن عندك أن تظلم أن ترذل عمل يديك وتشرق على مشورة الأشرار). وهنا تساؤل واضح من أيوب لربه يستنكر فيه عمل ربه حيث يعترف أنه خلق الإنسان ليسعده فلماذا يشقيه ثم لماذا يستمع هذا الرب لمشورة الأشرار والشياطين ويتسلط على عباده؟

وفي الإصحاح العاشر نفسه يقول أيوب متسائلا (ألك عينا بشر أم كنظر الإنسان تنظر أيامك كأيام الإنسان أم سنوك كأيام الرجل حتى تبحت عن إثمي وتفتش عن خطيئتي) فلا يفتش عن الإثم أو الخطيئة إلا البشر أما الله فيتنزّه عن ذلك، وهذا ما يؤكد اقتراب عقيدة أيوب التوراتي من عقيدة الإنسان الوثني الذي يرى في ربه مثلما يرى في البشر. وهذا بالطبع ما تزعمه التوراة.

ويظهر عدم إيمان أيوب باليوم الآخر في نفس الإصحاح حيث يقول (إلى أرض ظلمه وظل الموت أرض ظلام مثل دجى ظل الموت وبلا ترتيب وإشراقها كالدجى). وفي فقرات أخرى تظهر حدود الله في عقل أيوب فهو كما ورد في الإصحاح الحادي عشر أطول من الأرض طوله وأعرض من البحر.

ويسود شعور أيوب إحساس بأن الرب ظالم لئيم لا يرحم وهو يتعقب الضعفاء ولا يقدر على الأقوياء بل يتسلط على الناس بلا شفقة ولا هوادة.

والحوار الذي يدور بين أيوب وبين (يلدد الشوحي) و (أليفاز الثيماني) وغيرهما ممن حاورهم بشأن بلاء الرب ومصائبه يظهر أيضا أن الرب حسب زعمهم لا يأتمن ملائكته ولا قديسيه ولا رسله. بل هو يشكك في كل من خلقه في السموات والأرض.

يقول (وكذلك أنت تبديد رجاء الإنسان تتجبر عليه أبدا فيذهب هوذا قديسوه لا يأتمنهم والسموات غير ظاهرة بعينيه) إن ذلك يذكرنا بمميزات يهوه الممتاز بالرعونة.

ثم يلقي أيوب التهم الكثيرة على ربه فهو برأي التوراة قد خرب كل بيته وجماعته ودفعه إلى الظالم وفي أيدي الأشرار (فحطمني ونصبني له غرضا، سفك مرارتي على الأرض يعدو علي كجبار طرحني كنت مستديما فزعزعني وأمسك بقفائي فحطمني).

والتوراة في هذا السفر كما في بقية الأسفار لا تكاد تخرج عن تصور كهنتها وكتابها وتأثيرهم بأساطير الشعوب القديمة وتراثها.

يقول أيوب (فاعلمو أن الله عوجني ولف علي أحبولته من هو القدير حتى نعبده وماذا ننتفع إن التمسناه الله يخزن إثمه لبنيه).

وأخيرا يفتش أيوب عن ربه فلا يجده في أي مكان. (هاأنذا أذهب شرقا فليس هو هناك وغربا فلا أشعر به شمالا حيث عمله فلا أجده يتعطف، وإلى الجنوب فلا أراه).

هذه شخصية أيوب كما وردت في التوراة فأين هذا مما جاء في القرآن الكريم وأين هذا من صبر الأنبياء وتحملهم وعقيدتهم؟.

لقد اعتبر بعض الأدباء والنقاد الغربيين أن سفر أيوب لوحة شعرية عظيمة بل هو سفر شعري كتب في وقت متأخر من حياة اليهود.

وواقع الأمر يقول حتى لو كان هذا السفر شعرا فهو ذو مضمون لا أخلاقي وقد عرفنا أن للأدب وظيفة أخلاقية بغض النظر عن الشكل الفني. وإذا كان التجديف على الخالق وشمته أو تجسيده كوثن أو كإله بشري يعني روعة الفن الشعري فلا بأس ساعتها أن نسقط من حسابنا ومن معارفنا وثقافتنا كل ما هو شعري أو كل ما هو رائع فنيا.

ليس بالضرورة أن يكون التجديف على الخالق وإن كان في قالب فني - فنا رائعا. ولو كان أصحاب التوحيد الحقيقيون من اليهود يثقون بما كتب في التوراة لما رفضوا جميع أسفارها باستثناء الأسفار الخمسة الأولى. لكنهم يرفضون تلك الأسفار لأن فيها من التأليف والوهم ومناقضة الواقع والحقائق ما هو مناف للعقل والمنطق وما هو مناف لعقيدة التوحيد الحقيقية. وما ينطبق على سفر أيوب ينطبق على غيره من الأسفار.

قلنا قبل صفحات سابقة إن النبي شعيب أسبق وجودا من النبي موسى. وأيوب وذو الكفل وقد يكون غيرهم أيضا غطوا المسافة الزمنية الفارغة في التوراة وهي التي تقع بين موت يوسف ونبوذة موسى.

حين نعود إلى ما تعارف عليه الناس نرى أن شعيبا هو الذي صاهر موسى والتقى به لكن التوراة لا تورد اسم شعيب بل تورد أن صاحب مديان يدعى مرة رعوثيل ومرة يثرون وتشير إلى أن يثرون من نسل عيسو أو من نسل إبراهيم وبالتحديد من زوجته الكنعانية قطورة. وتذكر التوراة أن موسى تزوج ابنته المدعوة صفورة وارتبط به مدة زمنية كبيرة.

جاء في سفر الخروج آخر الإصحاح الثاني (فهرب موسى من وجه فرعون وسكن في أرض مديان وجلس عند البئر).

ثم تقول: (وكان لكاهن مدين سبع بنات فأتين واستقين ومالأن الأجران ليستقين غنم أبيهن. فلما أتين إلى رعوثيل أبيهن قال ما بالكن أسرعتن في المجيء اليوم... وأما موسى فكان يرعى غنم يثرون حميه كاهن مديان).

وتقول في الإصحاح الرابع: (فمضى موسى ورجع إلى يثرون حميه وقال له أنا أذهب وأرجع إلى إختوتي الذين في مصر لأرى هل هم بعد أحياء فقال يثرون لموسى اذهب بسلام. فأخذ موسى امرأته وبنيه وأركبهم على الحمير ورجع إلى أرض مصر وأخذ موسى عصا الله في يده).

وجاء في الإصحاح الثامن عشر: (فسمع يثرون كاهن مديان حمو موسى كل ما صنع الله إلى موسى وإلى إسرائيل شعبه. أن الرب أخرج إسرائيل من مصر. فأخذ يثرون حمو موسى صفورة امرأة موسى بعد صرفها وابنيها اللذين اسم أحدهما جرثوم لأنه قال كنت نزيلا في أرض غريبة واسم الآخر أليعازر لأنه قال إله أبي كان عوني وأنقذني من سيف فرعون. وأتى يثرون حمو موسى وابناه وامرأته إلى موسى في البرية حيث كان نازلا عند جبل الله. فقال لموسى أنا حموك يثرون آت إليك وامرأتك وابناها معها فخرج موسى لاستقبال حميه وسجد وقبله وسأل كل واحد صاحبه عن سلامته ثم دخلا إلى الخيمة).

فقص موسى على حميه كل ما صنع الرب بفرعون والمصريين من أجل إسرائيل ففرح يثرون بجميع الخير الذي صنعه لإسرائيل الرب. وقال يثرون مبارك الرب الذي أنقذكم من يد فرعون. الآن علمت أن الرب أعظم من جميع الآلهة. فأخذ يثرون حمو موسى محرقة وذبائح لله وجاء هارون وجميع شيوخ إسرائيل ليأكلوا طعاما من حمي موسى أمام الله وحدث في الغد أن موسى جلس ليقضي للشعب فوقف الشعب عند موسى من الصباح إلى المساء. فلما رأى حمو موسى كل ما هو صانع للشعب قال ما هذا الأمر الذي أنت صانع للشعب. ما بالك جالسا وحدك وجميع الشعب واقف عندك من الصباح إلى المساء. فقال

موسى لحميه إن الشعب يأتي إلي ليسأل الله إذا كان لهم دعوى يأتون إلي فأقضي بين الرجل وصاحبه وأعرفهم فرائض الله وشرائعه. فقال حمو موسى له ليس جيدا الأمر الذي أنت صانع. إنك تكل أنت وهذا الشعب الذي معك جميعا لأن الأمر أعظم منك، لا تستطيع أن تصنع وحدك الآن اسمع لصوتي فأضحك فليكن الله معك كنت أنت للشعب أمام الله وقدم أنت الدعوى إلى الله علمهم الفرائض والشرائع وعرفهم الطريق الذي يسلكونه والعمل الذي يعملونه وأنت فانظر من جميع الشعب أناسا أقوياء أتقياء لله مستقيمين. يكرهون الطمع وول منهم عليهم رؤساء: فيكون أنهم يقضون للشعب في كل وقت كل أمر عظيم. وكل أمر صغير. يحكمون فيه هم. وخفف عن نفسك. وهم يحملون معك. فسمع موسى لصوت حميه وفعل كل ما قال.

يقول قاموس الكتاب المقدس: يثرون اسم مدياني معناه فضل. كاهن مديان وحمو موسى ويدعى رعوثيل أي صديق أو خليل الله. ويظهر أن هذا الاسم كان اسمه الشخصي ويثرون لقب شرف أطلق عليه. ورعى موسى أغنام حميه سنين طوال ثم دعاه الله فرجع إلى مصر، ويرجح أن يثرون كان من نسل إبراهيم وقطورة.

ويقول عن مديان: اسم سامي معناه محكمة وهو أحد أولاد إبراهيم من قطورة وقال بعضهم إن أرض مديان كانت تمتد من خليج العقبة إلى موآب وطور سيناء وكان شعبها يتاجرون مع فلسطين ولبنان ومصر. وكان الاسماعيلون من سكان مديان. وسكن موسى مدة في مديان⁽¹⁾.

أما في القرآن الكريم ففي آياته قصتان مختلفتان. القصة الأولى وتتعلق بمديان والشيخ الكبير دون التصريح باسمه.

(1) قاموس الكتاب المقدس ص 850.

وهي في قوله تعالى في سورة القصص من 22 - 25: (ولما توجه تلقاء مدين قال عسى ربي أن يهديني سواء السبيل ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون ووجد من دونهم امرأتين تذودان قال ما خطبكما قالتا لا نسقي حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير فسقى لهما ثم تولى إلى الظل فقال رب إنني لما أنزلت إلي من خير فقير. فجاءته إحداهما تمشي على استحياء قالت إن أبي يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا فلما جاءه وقص عليه القصص قال لا تخف نجوت من القوم الظالمين. قالت إحداهما يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوي الأمين. قال إنني أريد أن أنكحك إحدى ابنتي هاتين على تأجرني ثمانى حجج فإن أتممت عشرا فمن عندك وما أريد أن أشق عليك ستجدني إن شاء الله من الصالحين. قال ذلك بيني وبينك أيما الأجلين قضيت فلا عدوان علي والله على ما نقول وكيل).

وجاء في سورة طه 40 - 41: (فلبئث سنين في أهل مدين ثم جنث على قدر يا موسى واصطنعتك لنفسي).

فلم يصرح القرآن الكريم باسم صاحب مدين أو اسم الشيخ الكبير بينما عندما تحدث القرآن عن شعيب بصريح الاسم فقد ورد من خلال قصة نبوته وصراعه مع قومه.

وقد ورد في سورة الأعراف 85 - 93 وفي سورة هود من 84 - 93. وفي الشعراء 176 - 183. وفي سورة العنكبوت 36 - 37. وعن أصحاب الأيكة في سورة الحجر 78 - 79.

يقول تعالى في سورة الأعراف: (وإلى مدين أخاهم شعيبا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره قد جاءكم بينة من ربكم فأوفوا الكيل والميزان ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها ذلكم خير لكم إن كنتم مؤمنين 85. ولا تقعدوا بكل صراط توعدون وتصدون عن سبيل الله من آمن

به وتبعونها عوجا واذكروا إذ كنتم قليلا فكثركم وانظروا كيف كان عاقبة
المفسدين 86. وإن كان طائفة منكم آمنوا بالذي أرسلت به وطائفة لم يؤمنوا
فاصبروا حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين 87. قال الملأ الذين استكبروا
من قومه لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن في ملتنا
قال أو لو كنا كارهين 88. قد افترينا على الله كذبا إن عدنا في ملتكم بعد إذ
نجانا الله منها وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ربنا وسع ربنا كل
شيء علما على الله توكلنا ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير
الفاتحين 89. وقال الملأ الذين كفروا من قومه لئن اتبعتم شعيبا إنكم إذا
لخاسرون فأخذتهم الرجفة وأصبحوا في دراهم جاثمين، الذين كذبوا شعيبا كأن
لم يغنوا فيها الذين كذبوا شعيبا كانوا هم الخاسرين 92. فتولى عنهم وقال يا
قوم لقد أبلغتكم رسالات ربي ونصت لكم فكيف آسى على قوم كافرين (93).

في سورة هود، تقترب معاني الآيات من معاني الآيات في سورة الأعراف
إلا أننا نرى هنا توضيحا للأسباب والنتائج.

يقول تعالى: (قالوا يا شعيب أصلواتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو
أن نفعل في أموالنا ما نشاء إنك لأنت الحليم الرشيد 87).

ويقول تعالى: (ويا قوم لا يجرمنكم شقاقي أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم
نوح أو قوم هود أو قوم صالح وما قوم لوط منكم ببعيد 89).

ولو عدنا إلى ما نص عليه القرآن الكريم وما نصت عليه التوراة بالنسبة
للنبي موسى ومصاهرته للشيخ الذي لم يذكر اسمه لوجدنا توافقا في القصتين
دون اختلاف كبير فلم تتناول التوراة ولا القرآن في ذلك السياق الحديث عن قوم
الرجل وما هي عقيدتهم. فكانت القصة مقتصرة على تعرف موسى عليه
واستنجاره له وزواج موسى من ابنته. وتبين الآيات الكريمة أن الرجل فعلا

رجل صالح لا سيما حين قص عليه موسى ما جرى معه فقال له نجوت من القوم الظالمين.

وواقع الأمر أن هناك فروقا واضحة بين شخصية النبي شعيب ومهمته وبين شخصية الشيخ العجوز ومهمته ومن ثم علاقته بموسى.

وقد أورد بعض المفسرين والعلماء أن الذي صاهر موسى هو شعيب وقد أوردوا بعض الأحاديث المضطربة حول ذلك فلم يؤخذ بها بشكل كلي. ومن هؤلاء أبو جعفر الطبري الذي أورد ثلاث روايات تنتهي كلها لابن عباس وفي روايتين منها أن الذي صاهر موسى هو يثري صاحب مدين وفي الثالثة أن اسم أبي المرأة التي تزوجها موسى هو يثري⁽¹⁾.

أما ابن كثير فقد أورد أن صهر موسى هو شعيب. وقال آخرون كان شعيب قبل موسى بمدة طويلة لأنه قال لقومه (وما قوم لوط منكم ببعيد) وقد كان هلاك قوم لوط في زمن إبراهيم عليه السلام وبين إبراهيم وموسى مدة تصل إلى حوالي ستمائة سنة على الأقل وأربعمائة في بعض الروايات.

على أية حال لم تذكر التوراة أن اسم الذي صاهر موسى هو شعيب بل أوردت اسم يثرون وكذلك القرآن الكريم لم يذكر اسم من صاهر موسى.

والذي جعل المفسرين يميلون إلى القول بأن من صاهر موسى هو شعيب كون التوراة قالت أن صهر موسى هو كاهن مديان وهو رجل صالح.

وقد ربطوا بين اسم مدين وبين شعيب حيث أورد هذه العلاقة القرآن الكريم وهذا يعني أن المنطقة واحدة في القرآن الكريم وفي التوراة.

غير أن الذي يستوقف ويستوجب النظر هو عدم ذكر قوم الشيخ البتة لا في التوراة ولا في القرآن الكريم عند الحديث عن اللقاء بين موسى وبينه ومن ثم

(1) تاريخ الطبري المجلد 1 ص 400.

استنجاهه لموسى وتزويجه من ابنته.

والسؤال الذي يطرح نفسه هو لماذا لم تشر التوراة إلى علاقة ما بين شعيب وبين قومه من أهل مدين؟

ثم لماذا تحدث القرآن الكريم عن قوم شعيب وجداله لهم في مواقع عدة من القرآن غير الموقع الذي تحدث عن مصاهرة الشيخ العجوز لموسى؟

إذا دققنا النظر في الآيات الكريمة التي تحدثت عن شعيب وقومه وجدنا مايلي :

1 - قوم شعيب مشركون لا يعبدون الله بدليل قوله تعالى (اعبدوا الله مالكم من إله غيره قد جاءكم بينة من ربكم).

2 - قوم شعيب أصحاب أخلاق وعادات سيئة ينقصون الكيل والميزان ويبخسون الناس أشياءهم.

3 - يفسدون في الأرض.

4 - يقعدون في الطرقات يصدون الناس عن سبيل الله.

5 - أنعم الله عليهم بأن كثر نسلهم وعددهم بعد أن كانوا قلة.

6 - آمن بعض قوم شعيب بما أرسل لهم.

7 - قوم شعيب يهددونهم بإخراجه من ديارهم أو يعود إلى دينهم وهذا دليل ضعفه وقلة أنصاره.

8 - كانت عاقبتهم أن أخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين.

9 - تولى شعيب عن قومه بعد أن عاقبهم الله.

هذا ما يمكن أن نلخصه لما ورد في الآيات الكريمة من سورة الأعراف.

وفي سورة هود نستطيع أن نضيف بعض ما فهمناه إضافة لما ورد في سورة الأعراف.

1 - قوم شعيب يعبدون ما وجدوا آباءهم عليه وذلك في قوله تعالى (قالوا يا شعيب أصلواتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا...) هود 87.

2 - قوم شعيب على علم بما حل بالأقوام السابقة بدليل قوله تعالى (ويا قوم لا يجز منكم شقاقي أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح وما قوم لوط منكم ببعيد) هود 89.

ونضيف أمرا أخيرا أوضحته الآيات في سورة الشعراء.

1 - أصحاب الأيكة كذبوا المرسلين وكانت مهمة شعيب هدايتهم إلى دين الوحدانية وإلى الأخلاق الحميدة.

وقد ورد في القرآن الكريم قوله تعالى: (ثم بعثنا من بعدهم موسى وهارون إلى فرعون وملئه بآياتنا) سورة يونس 75.

وكانت الآيات قد أوردت ذكر نوح ثم هود فصالح فلوط فشعيب قبل ذكرها لموسى وهارون.

إن هذه الملاحظات ترشدنا إلى بعض مفاتيح الأمور لنستطيع الوصول إلى بعض الحقائق حول شخصية شعيب وإن كان له علاقة بزمن موسى أم لا ولنستطيع أيضا أن نرى ما يتوافق به التوراة والقرآن وما يختلفان.

تورد التوراة أن موسى بعد أن تزوج ابنة الرجل العجوز عاد إلى مصر وقد كانت الرسالة قد نزلت عليه وكلمه الله سبحانه وبلغه رسالة السماء وطلب منه أن يذهب إلى فرعون ويحاججه ثم ينقذ أبناء قومه من عذاب فرعون. ثم إن موسى بعد أن استطاع إنقاذ قومه من فرعون توجه باتجاه سيناء وبطريقة ما علم

الشيخ العجوز (يثرון) بمقدم موسى فاستقبله وعلمه بعض أساليب الدعوة التي يجب على موسى اتباعها ليرشد قومه .

أما في القرآن الكريم فإن قصة عودة موسى ولقائه بصهره أو بوالد زوجته لم ترد ولم يأت عليها القرآن الكريم وعلى ذلك فإن ملاحظات عدة يجب ذكرها في هذا السياق :

1 - تعترف التوراة بأن يثرון هو كاهن مديان ولم تقل أنه نبي أو رسول وكلمة كاهن تعني أنه رجل صالح يعترف بالرب والتوحيد لكنه لم يصل درجة النبوة كما وصل لها موسى .

2 - تقول التوراة إن هذا الرجل علم موسى بعض أساليب الدعوة والقضاء وقد استجاب موسى لإرشاداته .

3 - لم تذكر التوراة شيئاً عن قوم مدين ، من كان يسكنها؟ ما هي عقيدة أهلها؟ ولا حتى الصلة بين كاهنها يثرון وبين قومه . ولو كان هناك قوم أو جماعة مع يثرון لشاركوه على الأقل في استقبال موسى وقومه عندما رجع من مصر .

بينما نرى في القرآن الكريم أن لشعيب قوماً مشركين فاسدين وتصدى لهم فلم يلبثوا فأبادهم الله وهذا ما يؤيد القول بأن الذي صاهر موسى ليس شعيباً وإنما هو رجل آخر صالح مستقيم ويمكن القول بأن هناك توافقاً بين ما ورد في القرآن الكريم وما ورد في التوراة بالنسبة لزواج موسى من ابنة الرجل العجوز الذي هو على الأرجح يثرון كاهن مديان . ويقع الاختلاف بين التوراة والقرآن كما قلنا في عودة موسى لوالد زوجته واستقباله له حيث لم يرد ذلك في القرآن الكريم بينما ورد في التوراة .

إذا طالما أن الأمر فيه شيء من الترجيح فلماذا لم تذكر التوراة شعيبا بالاسم؟ لماذا لم تأت على ذكر قومه؟ وزمنه؟ بينما ذكر القرآن شعيبا وقومه في أكثر من موقع وبشكل مفصل. قد يقول قائل إن كثيرا من الأسماء في التوراة جاءت بلغة العبرانيين فليس شرطاً أن تورد التوراة اسم شعيبا التي هي مشتقة من أصل لغوي عربي والكلمة تصغير لشعب. وليس لها شأن في اللغة العبرانية.

والحقيقة أن التوراة أوردت معظم الأسماء كآدم ونوح وإبراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب ويوسف وموسى وداود وسليمان باسمها المتعارف عليه في اللغات العبرانية والعربية والسريانية وغيرها. لكنها لم تورد شعيب باسمه لأنها لا تعترف به ولا بنبوته. وقد اعتبرت يثرون وهو الذي صاهر موسى كاهن مديان والكهانة لا تصل بأي شكل إلى مرتبة النبوة.

ونحن نلاحظ أن التوراة ركزت على نسل إسحق ولم تركز على غيره من الأنبياء والكهنة والمصلحين. وقد جاء في بعض نصوص سفر التكوين أن إبراهيم قد تزوج امرأة ثالثة وهي قطورة ومنها أنجب عددا من الأولاد منهم مديان الذي سميت منطقة مديان باسمه وكان يثرون أحد أبناء مديان أو أحد أحفاده.

ويجدر بنا أن نذكر أن التوراة لم تأت على ذكر هود وصالح وفعلت ذلك أيضا مع النبي شعيب وهناك بعض الروايات ترى أن هؤلاء الأنبياء من العرب ولا تريد التوراة ولا كتبتها أن يدخلوا هؤلاء الأنبياء ضمن الحديث عن أنبياء بني اسحق لأنها أساسا لا تعترف بهم ونذكر جميعا كيف تحدثت التوراة عن هاجر وإسماعيل فكيف بها تتحدث عن شعيب وأمه ليست سارة أو من نسل سارة.

إذا هناك أسباب كثيرة تدعو للقول بأن الرجل الذي صاهر موسى ليس شعيبا وإنما رجل آخر.

احتمالات وافتراضات:

إشارة من القرآن الكريم إلى أن صهر موسى شيخ عجوز. يفتح باب الظن أن شعيبا بعد أن أباد الله قومه بقي ومن آمن معه وهم قليل. فقد تكون إبادة قومه في زمن شبابه أو ما قبل عجزه وشيخوخته. وربما أن موسى التقى به بعد سنوات طويلة من إبادة قومه. وهذا احتمال قد يفترضه الذين قالوا أن صهر موسى هو شعيب.

وإشارة لقول التوراة إن الشيخ العجوز هو كاهن مديان وهو من علم موسى ونصحه في كيفية القضاء بين قومه وإشارة لقول القرآن الكريم: (قال لا تخف نجوت من القوم الظالمين) يفتح باب الظن أن كاهن مديان والشيخ العجوز الذي قال لموسى نجوت من القوم الظالمين هو رجل صالح قد يكون نبيا أو مصلحا فإن كان نبيا فإن نصيحته لموسى وإرشاداته له ومن ثم تقبل موسى لها يدل على أن النبي موسى وهو من أولي العزم قد تعلم شيئا في نشر دعوته من نبي قد جرب معنى الظلم والظالمين وعانى من قوم ظالمين، ربما كان يعيش بين ظهرائهم. وإذا افترضنا أن الشيخ العجوز هو شعيب فلا عجب إذا أن يستفيد موسى من تجربته مع قومه الذين أبادهم الله. وهذا ما ترفضه طبيعة العقيدة التوراتية حيث أن اليهود يعتبرون موسى نبيا لا شبيه له ولم يكن مثله في بني إسرائيل. ويفرضون أن يتعلم موسى من رجل كاهن، كيف يدير شؤون القضاء في قومه، لكن التوراة تشير إلى أن هذا الرجل هو كاهن وليس نبيا. وقد يراد من كلام التوراة إظهار أن موسى كان يحترم والد زوجته حتى بلغ الاحترام حد قبول النصيحة منه ولا سيما في الشؤون الدينية.. وهذا ما لم يرد في القرآن الكريم إنما قد يوصي الرجل الصالح موسى ببعض الوصايا وهذا ليس فيه شيء غريب.

ونستطيع أن نستشف من آيات القرآن الكريم أن الله سبحانه اختار لموسى زوجة هي بنت رجل صالح موحد. وليست بنت رجل وثني مخالف لعقيدة التوحيد التي كان عليها موسى ومن تبع موسى.

وهذه بالطبع حكمة إلهية أراد الله منها أن تكتمل دائرة الإيمان عند موسى لا سيما أن الرجل الصالح لا بد أن يكون له تأثير في تربية موسى وإرشاده. أو مساعدته في تثبيت دعوته لعقيدة التوحيد، والأنبياء بشر لا بد من أن تمر في حياتهم لحظات يحتاجون فيها للتثبيت.

وقد ذكر ابن كثير سبب ذكره شعيبا وقومه بعد لوط وقومه فقال مؤكدا زمن هذا النبي بقوله (وذكرنا ما وقع في زمانه من قصة قوم لوط وأتبعنا ذلك بقصة مدين قوم شعيب عليه السلام لأنها قرينتها في كتاب الله عز وجل في مواضع متعددة. فذكر الله تعالى بعد قصة لوط قصة مدين وهم أصحاب الأيكة على الصحيح كما قدمنا. فذكرناها تبعا لها اقتداء بالقرآن العظيم)⁽¹⁾.

ويفهم من كلام ابن كثير أنه يؤيد ويميل إلى القول بأن زمن شعيب أقرب إلى زمن لوط وإبراهيم من زمن موسى عليهم السلام.

الخروج التوراتي وحقائق القرآن:

لعل أكثر ما تحفل به التوراة هو خروج بني إسرائيل من مصر باعتباره نتيجة لأسباب الاضطهاد الفرعوني وهذا الخروج يحوي الحديث عن شخصيات مهمة وأحداث حاسمة شهدتها المنطقة الممتدة من مصر إلى حدود فلسطين. وبسبب الامتداد الزمني الذي استغرقه هذا الخروج فقد ركزت دراسات كثيرة على دراسة التاريخ والجغرافية والشخصيات متوخية من ذلك التوصل إلى مجريات الأحداث الحقيقية التي شهدتها المنطقة.

(1) ابن كثير: قصص الأنبياء صفحة 196. دار الخير الطبعة الأولى 1992 بيروت.

وقد أفردت التوراة سفرا كاملا سمي باسم الخروج ويضم أربعين إصحاحا وجاء في التوراة خلال 70 صفحة. واعتبره الدارسون من أهم الاسفار.

وقد أورد القرآن الكريم قصة الخروج في أماكن متفرقة من السور، ويرى الباحث أن تشابها يقع بين التوراة والقرآن في كثير من المسائل والأحداث والشخصيات. واختلافا قد يصل حد التناقض الكلي.

1 - يتفق التوراة والقرآن على حدوث الخروج وأسبابه.

2 - يتفق التوراة والقرآن على قيادة موسى عليه السلام لهذا الخروج.

3 - يتفق التوراة والقرآن على مكان الهروب وهو صحراء سيناء.

4 - يتفق التوراة والقرآن على أحداث كثيرة صغيرة وكبيرة نوردها في

السياق.

أما الاختلافات فسنجدها أيضا من خلال المقارنة الدقيقة وذلك بهدف كشف الحقائق المادية أو الاجتماعية أو العقيدية المرتبطة ببني إسرائيل.

يبدأ سفر الخروج بالحديث عن موسى بعد تمهيد قصير يتحدث عن أسماء بني إسرائيل الذين جاؤوا إلى مصر عندما كان يوسف هناك وتقول التوراة إن عدد أبناء يعقوب كان سبعين نفسا وترى أن جميع ذلك الجيل قد مات (وأما بنو إسرائيل فأثمروا وتوالدوا ونموا وكثروا كثيرا جدا وامتلات الأرض منهم).

وتنتقل التوراة للحديث عن مجيء فرعون جديد لم يكن يعرف يوسف فاضطهد بني إسرائيل واستعبدهم وتعرض للحديث عن قتله لأطفالهم منذ المقطع 15 - وحتى المقطع 22.

أما الإصحاح الثاني فيبدأ بالحديث عن زواج رجل لاوي من بنت لاوي ثم ولدت هذه الزوجة وأنجبت موسى. (ولما رأته أنه حسن خبأته ثلاثة أشهر. وما لم يمكنها أن تحبته بعد أخذت له سقفا من البردي وطلته بالحمرة والزفت ووضعت الولد فيه ووضعت بين الحلفاء على حافة النهر ووقفت أخته من بعيد لتعرف ماذا يفعل به) المقطع 3 - 4.

يقول تعالى (وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه في اليم ولا تخافي ولا تحزني إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين. فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا. إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين. وقالت امرأة فرعون قرة عين لي ولك لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولد وهم لا يشعرون) سورة القصص 7 - 9.

فالقصة كما وردت كحدث مجرد تتلخص بأن أم موسى ألقته طفلها في اليم (النهر الكبير - أو البحر) وهي تضعه في صندوق خشبي. أما القصة من حيث ظلالها وصله الحدث بالأمر الرباني فهناك اختلاف جذري في الأسباب والنتائج.

وهنا تكمن دقة القرآن في وصف الحادثة وظلالها. فموسى عليه السلام مختار من الله سبحانه بأمر إلهي مسبق. وحتى تكون المعجزة أوحى الله لأم موسى. والوحي هنا إرشاد لمعرفة الفعل الذي تقوم به لإنقاذ طفلها. لقد أوحى الله لها أن ترضعه ولا تخشى فرعون وجنوده ثم بعد إرضاعه أوحى لها أن تلقيه في اليم. خوفا عليه. فكيف يطلب الوحي من إنسان كي ينقذ طفله أن يلقيه في خضم نهر كبير أو بحر؟ وعلى مقياسنا البشري فإن الظاهر يقول لنا إن من يريد أن ينقذ طفله من الموت عليه أن يخفيه أو يبعده عن الخطر. لكن الوحي قال لها ألقه في هذا الخطر ولا تخافي ولا تحزني. وقد استجابت لنداء

الوحي لأنها مؤمنة بالله أشد الإيمان ولو كانت امرأة عادية لما قامت بما أمرها الله سبحانه.

وألقي موسى في اليم لغاية أرادها الله ووضحها في كتابه الكريم. فقال تعالى لأمه إنا رادوه إليك ثم إنا جاعلوه من المرسلين. فطمأنت الأم بأن الله سبحانه سيعيده إليها ثم سيكون يوما من خيرة الناس حيث سيكون مختارا من الله نبيا ورسولا.

ويلتقطه آل فرعون وهم لا يشعرون أنه سيكون عدوا لهم وسيكون أحد أسباب انهزامهم واندحارهم وغرق فرعون وجنوده.

دورة غريبة على العقل البشري. فرعون يقتل أطفال بني إسرائيل. وموسى طفل منهم وينجيه الله بأسلوب يدهش العقل حيث يلقي في أحضان العدو القاتل لكن الله يريد غير ما يريد البشر وإرادته هي النافذة.

هذا هو الفارق الجوهرى بين ما ذكرته التوراة وما ذكره القرآن الكريم وهو فارق له قيمته الكبرى في دراسات الأديان المقارنة الخاصة باليهودية والإسلام.

ويقع الخلاف بين ما ذكرته التوراة وما ذكره القرآن الكريم حول المرأة التي التقطته فالتوراة ترى أن ابنة فرعون هي التي التقطته تقول التوراة في الإصحاح الثاني من سفر الخروج (فنزلت ابنة فرعون إلى النهر لتغتسل وكانت جواربها ماشيات على جانب النهر فرأت السفط بين الحلفاء فأرسلت أمتها وأخذته.. ولما كبر الولد جاءت به إلى ابنة فرعون فصارت لها ابنا ودعت اسمه موسى وقالت إني انتشلته من الماء).

أما القرآن الكريم فيحدد أن التي انتشلته من الماء هي امرأة فرعون يقول تعالى (وقالت امرأة فرعون قرّة عين لي ولك). والواضح أن امرأة فرعون فرحت بالطفل فرحا شديدا فاعتبرته قرّة عين لها لأنها كانت عاقرا. ولو كان لديها

أولاد لما قالت قرة عين لي.

والأقرب إلى المنطق العقلي أن التي التقطت موسى هي امرأة فرعون وليست ابنته لأن المرأة المتزوجة والعاقرة هي التي تجد في هذا الطفل منى لقلبها. وليست للبنت مصلحة في هذا الطفل لأنها لا تدري معنى للأمومة وهي ما زالت بنتا لم تكن تدرك بشعورها وبإحساسها معنى لاحتضان هذا الطفل.

يقول ابن كثير (وعند أهل الكتاب أن التي التقطت موسى (دريته) ابنة فرعون وليس لامرأته ذكر بالكلية وهذا من غلطهم على كتاب الله عز وجل)⁽¹⁾.

ثم تتحدث التوراة عن موسى وقد صار شابا (وحدث في تلك الأيام لما كبر موسى أنه خرج إلى أخوته لينظر في أثقالهم فرأى رجلا مصريا يضرب رجلا عبرانيا من إخوته فالتفت إلى هنا وهناك ورأى أن ليس أحد فقتل المصري وطمده في الرمل) الإصحاح الثاني من سفر الخروج 11 - 12 - 13.

وأورد القرآن الكريم قصة قتل موسى للرجل على النحو التالي:

يقول تعالى: (ولما بلغ أشده واستوى آتيناها حكما وعلمنا وكذلك نجزي المحسنين. ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها فوجد فيها رجلين يقتتلان هذا من شيعته وهذا من عدوه فاستغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوه فوكزه موسى فقضى عليه. قال هذا من عمل الشيطان إنه عدو مضل مبين. قال رب إنني ظلمت نفسي فاغفر لي فغفر لي فغفر له إنه هو الغفور الرحيم قال رب بما أنعمت علي فلن أكون ظهيرا للمجرمين) سورة القصص رقم الآيات 14 - 17.

ففي الإطار العام نرى قصة واحدة أو حادثة بعينها توردها التوراة ويوردها القرآن. ثم يتفقان على أن موسى هرب على إثر الحادثة من مصر واتجه نحو مدين وأقام بها مدة.

(1) ابن كثير قصص الأنبياء صفحة 270.

على أن ذلك لا ينفي الاختلاف في الأسباب. ففي التوراة قتل موسى تعصبا لبني جنسه دون أن يطلب منه. ثم تقول إنه دفن المصري في الرمل.

بينما يقول القرآن الكريم إنه قتله في المدينة وكان الناس في غفلة ثم إنه لم يقدم على وكز الرجل إلا بعد أن استغاث به الرجل الآخر. والاستغاثة تظهر أن المستغيث ضعيف لا يقدر أن يصمد أمام خصمه. ثم إن القرآن الكريم يقول باللفظ وكزه والوكز لا يقتل. مهما كان قويا وهذا أيضا دليل على أن موسى لم يرد القتل بقدر ما كان يريد الردع لأنه لا يعرف ولا يدرك أن وكزته ستؤدي إلى قتل الرجل.

أما فيما يتعلق بهروب موسى إلى أرض مدين فقد تحدثنا عنه عند حديثنا عن النبي شعيب عليه السلام أو الرجل الصالح الذي صاهر موسى.

وتتابع رحلة نبي الله موسى. فعندما ذهب ومعه زوجته يلتمس الطريق ويلتمس النار حتى يقي نفسه وزوجه البرد. ظهر له ملاك الرب. وبلغ أنه في مكان مقدس وعليه أن يخلع نعليه.

وهذا ما ورد في التوراة وما ورد في القرآن الكريم ولا كثير اختلاف بينهما.

يرد في التوراة في الإصحاح الثالث (فقال لا تقترب إلى ههنا إخلع حذاءك من رجلك لأن الموضع الذي أنت واقف عليه أرض مقدسة) 4 - 5 (ثم قال أنا إله أبيك إله إبراهيم وإله إسحق وإله يعقوب فغطى موسى وجهه لأنه خاف أن ينظر إلى الله) 6 - 7.

ويأتي في القرآن الكريم قوله تعالى: (يا موسى إني أنا ربك فاخلع نعليك إنك بالوادي المقدس طوى) سورة طه 17 - 18.

والذي بلغت النظر ههنا قول التوراة فغطى موسى وجهه لأنه خاف أن ينظر إلى الله. والجملة تفيد أن الله كان حاضرا بشكل تجسيمي أو مجسم

وخاف موسى أن ينظر إليه. والصحيح أن موسى نودي من قبل الله سبحانه. ولكن لا حدود لهذا النداء الرباني إنما هناك علامة لنور الله الذي ليس له حدود. وهو ما أشارت إليه الآيات الكريمة في قوله تعالى: (فلما أتاها نودي من شاطئ الواد الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة أن يا موسى إنني أنا الله رب العالمين) القصص 30. ويلفت النظر في الآية العلاقة بين الفعل نودي. وبين أن يا موسى إنني... فإن مفسرة - أن يا موسى مفسر للفعل نودي.

وقد ذكر المهدوي: كلم الله تعالى موسى من فوق عرشه وأسمعه كلامه من الشجرة على ما شاء ولا يجوز أن يوصف الله تعالى بالانتقال والزوال وشبه ذلك من صفات المخلوقين.

وقال أبو المعالي: وأهل المعاني وأهل الحق يقولون: من كلمه الله تعالى وخسه بالرتبة العليا والغاية القصوى فيدرك كلامه القديم المقدس عن مشابهة الحروف والأصوات والعبارات والنعيمات وضروب اللغات كما أن من خصه الله بمنازل الكرامات وأكمل عليه نعمته ورزقه رؤيته يرى الله منزلها عن مماثلة الأجسام وأحكام الحوادث ولا مثل له سبحانه في ذاته وصفاته⁽¹⁾ وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي عباس رضي الله عنهم في قوله نودي من شاطئ الواد الأيمن قال: كان النداء من السماء الدنيا⁽²⁾.

وقد كان خوف موسى ليس بسبب عدم قدرته على تحمل رؤية الله سبحانه كما ذكرت التوراة إنما بسبب الدهشة التي أصابته حين رأى النار في الشجرة والشجرة خضراء لا تحترق.

(1) القرطبي. نثلا عن كتاب تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه. محمد علي طه الدرر مجلد 10 ص 488

(2) السيوطي. الدر المنثور في التفسير المأثور المجلد 5. صفحة 242.

قيل إن موسى لما رأى النار في الشجرة الخضراء علم أنه لا يقدر على الجمع بين النار وخضرة الشجرة إلا الله تعالى فعلم بذلك أن المتكلم هو الله تعالى وأن ذلك الكلام كلام الله تعالى⁽¹⁾.

وتتفق التوراة والقرآن فيما كان عليه حال موسى من استئثار لسانه ومعونة أخيه هارون حين أمره الله سبحانه أن يذهب إلى فرعون ويدعوا للتوحيد ورفع الظلم عن بني إسرائيل.

لكن الذي يستوقف هنا قول التوراة (وهو يكون لك فما وأنت تكون له إلهما) الإصحاح الرابع 17.

وقولها: (فتقول لفرعون هكذا يقول الرب إسرائيل ابني البكر فقلت لك أطلق ابني ليعبدني فأبيت أن تطلقه ها أنا اقتل ابنك البكر) الإصحاح 4 - 22 - 23.

ففي الجملة الأولى هناك تصريح لا تأويل له. تكون له إلهما. فما المقصود بذلك سوى ما يفهمه أي قارئ لهذه الجملة.

أما في الجمل التالية فإن التوراة تصرح أن أبناء إسرائيل هم أبناء الله. وفي الحاليتين فإن تصريح التوراة بهذه الألفاظ ليس سوى شاهد واضح على الإشراك بالله.

مهمة النبي موسى:

يوضح الإصحاح الخامس وما بعده من سفر الخروج المهمة الأساسية التي كلف بها موسى من قبل الله (هكذا يقول الرب إله إسرائيل أطلق شعبي ليعيدوا

(1) محمد الدرة. تفسير القرآن الكريم إعرابه وبيانه ص 488. مجلد 10.

لي في البرية فقال فرعون من هو الرب حتى أسمع لقوله فأطلق إسرائيل لا أعرف الرب وإسرائيل لا أطلقه فقالا: إله العبرانيين قد التقانا) 1 - 2 - 3.

وفي الإصحاح السادي يرد: (ثم كلم الله موسى وقال له أنا الرب وأنا ظهرت لإبراهيم وإسحق ويعقوب بأني الإله القادر على كل شيء وأما باسمي يهوه فلم أعرف عندهم وأيضا أقمت معهم عهدي أن أعطيهم أرض كنعان أرض غربتهم التي تغربوا فيها) 2 - 5.

وفي الإصحاح نفسه أي السادس يعود الحديث عن أمر الرب لموسى بأن يذهب إلى فرعون ليطلق سراح بني إسرائيل. ويعترف موسى للرب أن بني إسرائيل لم يسمعوا كلامه وكاد أن يملهم لما لاقاه من العناد عندهم.

فالمهمة التي أوكل إليها موسى هي إنقاذ بني إسرائيل مما حاق بهم من العذاب على يد فرعون وجنوده ومن ثم تنفيذ وعد الرب بمنحهم أرض كنعان ميراثا لهم ولأبنائهم وأحفادهم من بعدهم.

أما في القرآن الكريم فتتشعب المهمة وتتنوع أهدافها وغاياتها.

فموسى عليه السلام مختار من قبل الله. (وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى) طه 13.

وأول ما طلبه الله سبحانه منه أن يوحدته ويعبده ويقوم الصلاة لذكره (إنني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني وأقم الصلاة لذكري) طه 14.

وربط إيمان موسى بالله بالإيمان باليوم الآخر (إن الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى) طه 15.

وبعد ذلك كله يطلب الله سبحانه من موسى أن يذهب إلى أكبر طاغية في ذلك العصر وهو فرعون مصر (اذهب إلى فرعون إنه طغى) طه 24.

(اذهبا إلى فرعون إنه طغى) طه 43.

(ولقد أتينا موسى الكتاب وجعلنا معه أخاه هارون وزيرا فقلنا اذهبا إلى القوم الذين كذبوا بآياتنا فدمرناهم تدميرا) سورة الفرقان 35 - 36.

وقال تعالى: (هل أتاك حديث موسى إذ نادى ربه بالواد المقدس طوى. اذهب إلى فرعون إنه طغى. فقل هل لك إلى أن تزكى وأهديك إلى ربك فتحشى) النازعات 15 - 19.

فالمهمة التي كلف بها موسى متشعبة الأوجه وباعتباره مصطفى من قبل الله سبحانه لتبليغ الرسالة فقد كانت هذه المهمة تهدف إلى هداية القوم المشركين وعلى رأسهم فرعون. وتهدف فيما تهدف إلى رفع الظلم الذي أحيط ببني إسرائيل ومن ثم إخراجهم من أرض مصر.

أما التوراة فتركز على إخراج بني إسرائيل من مصر دون سواه. وتظهر أن الرب الذي بعث موسى هو رب بني إسرائيل وحدهم. ثم تقحم وعد هذا الرب لهم بمنحهم أرض كنعان ميراثا لهم ولأبنائهم. والآيات القرآنية الكريمة تذكر طغيان فرعون بشكل مكرر. وهذا الطغيان ليس اضطهاد بني إسرائيل إنما هو الادعاء بالربوبية وعدم الاعتراف بالله الخالق.

وهذا ما سنراه من خلال الحوار الذي يدور بين النبي موسى عليه السلام وبين فرعون فهو حوار قائم على المناقشة في ماهية الرب الذي نادى موسى لعبادته والذي ينكره فرعون.

يقول تعالى: (إنا قد أوحى إلينا أن العذاب على من كذب وتولى. قال فمن ربكما يا موسى. قال ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى. قال فما بال القرون الأولى. قال علمها عند ربي في كتاب لا يضل ربي ولا ينس. الذي جعل لكم الأرض مهادا وسلك لكم فيها سبلا وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به

أزواجاً من نبات شتى. كلوا وارعوا أنعامكم إن في ذلك لآيات لأولى النهى. منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى) سورة طه 48 - 55.

ويقول تعالى: (قال فرعون وما رب العالمين. قال رب السموات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين قال لمن حوله ألا تستمعون. قال ربكم ورب آبائكم الأولين. قال إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون. قال رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون) الشعراء 23 - 28.

ولعلنا نرى أن دعوة فرعون للتوحيد هي الهدف الأول الذي أرسل موسى لأجله. أما دعوة موسى فرعون لرفع الظلم عن بني إسرائيل فهو هدف لاحق. أو أنه يأتي في المقام الثاني من مهمة هذا النبي وأعتقد أن فرعون لو لبى نداء موسى وآمن بما دعا له لما كانت هناك مشكلة بالنسبة لبني إسرائيل فالمؤمن لا يظلم وفرعون لو آمن لانتهت مشكلة بني إسرائيل دون أية معوقات.

وقد اعتبر عبد الوهاب النجار في كتابه قصص الأنبياء أن محور رسالة موسى والغرض الأول المقصود بها هو إطلاق بني إسرائيل⁽¹⁾.

وحقيقة الأمر أن مهمة أي نبي من أنبياء الله تبتدئ بالدعوة إلى التوحيد وعدم الإشراف بالله. وتأتي الأمور الأخرى مسببات أو ملحقات تدعم الموقف الذي يقفه الأنبياء، ولو نظرنا إلى حياة النبي موسى وكفاحه بين بني إسرائيل لأدركنا أن مهمته ليست إخراجهم من ظلم فرعون بل إدخالهم في العقيدة التوحيدية وإبعادهم عن الوثنية والشرك.

ويذكر القرآن الكريم أن فرعون ظل على جبروته وعناده، وحتى يبرر موقفه أمام حاشيته طلب من هامان وزيره أن يبني له صرحاً ليصعد إليه ويتحدى إله موسى وعلى الرغم من ذلك فهو يعلم أنه لن يبلغ السماء مهما بنى

(1) عبد الوهاب النجار. قصص الأنبياء ص 227.

من بنيان لكنه أراد أن يخرج من مأزقه حينما بين له موسى عليه السلام سمات الله خالق السماوات والأرض ومنبت الزرع... الخ.. وقصة بناء الصرح أو الأمر الذي أصدره فرعون ببناء الصرح لم يرد في التوراة على الإطلاق.

وتذكر التوراة قصة تحدي موسى عليه السلام للسحرة الذين استقدمهم فرعون من جميع أطراف بلاده فتقول: (وكلم الرب موسى وهارون قائلاً إذا كلمكما فرعون قائلاً هاتيا عجيبة تقول لهارون خذ عصاك واطرحها أمام فرعون فتصير ثعباناً فدخل موسى وهارون إلى فرعون وفعلاً هكذا كما أمر الرب. طرح هارون عصاه أمام فرعون وأمام عبيده فصارت ثعباناً. فدعا أيضاً الحكماء والسحرة ففعل عرافو مصر أيضاً بسحرهم كذلك. طرحوا كل واحد عصاه فصارت العصي ثعابين ولكن عصا هارون ابتلعت عصيهم فاشتد قلب فرعون فلم يسمع لهما كما تكلم الرب) خروج إصحاح 7.

وتنتهي قصة هذا التحدي بهذا الشكل الذي لا تتوضح فيه نتائجه ومجريات أحداثه.

لقد ذكر القرآن الكريم قصة التحدي في أكثر من موضع وهذا ما يجعلها حدثاً فاصلاً في مسيرة كفاح النبي موسى عليه السلام.

ذكرت قصة التحدي في سورة الأعراف من الآية 106 - 126 وذكرت في سورة يونس من الآية 75 - 89 وفي سورة طه من الآية 57 - 76 وفي سورة الشعراء من الآية 29 - 51.

يقول تعالى (ثم بعثنا من بعدهم موسى وهارون إلى فرعون وملئه بآياتنا فاستكبروا وكانوا قوماً مجرمين. فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا إن هذا لسحر مبين. قال موسى أتقولون للحق لما جاءكم أسحر هذا ولا يفلح الساحرون. قالوا أجلئتنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا وتكون لكما الكبرياء في الأرض وما نحن لكما بمؤمنين. وقال فرعون اثنوني بكل ساحر عليهم. فلما جاء السحرة قال لهم

موسى ألقوا ما أنتم ملقون. فلما ألقوا قال موسى ما جئتم به السحر إن الله سيبطله إن الله لا يصلح عمل المفسدين. ويحق الله الحق بكلماته ولو أكره المجرمون. فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه على خوف من فرعون وملئهم أن يفتنهم وإن فرعون لعال في الأرض وإنه لمن المسرفين. وقال موسى يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين. فقالوا على الله توكلنا ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين ونجنا برحمتك من القوم الكافرين) 75 - 86 سورة يونس.

ويقول تعالى: (قال أجنثنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك يا موسى فلنأتيناك بسحر مثله فاجعل بيننا وبينك موعدا لا نخلفه نحن ولا أنت مكانا سوى. قال موعدكم يوم الزينة وأن يحشر الناس ضحى. فتولى فرعون فجمع كيدته ثم أتى. قال لهم موسى ويلكم لا تفتروا على الله كذبا فيسحتكم بعذاب وقد خاب من افترى. فتنازعوا أمرهم بينهم وأسروا النجوى. قالوا إن هذان لساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما ويذهبا بطريقتكم المثلى. فأجمعوا كيدكم ثم اتتوا صفا وقد أفلح اليوم من استعلى. قالوا يا موسى إما أن تلقي وإما أن نكون أول من ألقى. قال بل ألقوا فإذا حبا لهم وعصيههم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى. فأوجس في نفسه خيفة موسى. قلنا لا تخف إنك أنت الأعلى وألق ما في يمينك تلقف ما صنعوا إنما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى فألقى السحرة سجدا قالوا آمنا برب هارون وموسى. قال آمنتم له قبل أن آذن لكم إنه لكبيركم الذي علمكم السحر فلاقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم في جذوع النخل ولتعلمن أينا أشد عذابا وأبقى. قالوا لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذي فطرنا فاقض ما أنت قاض إنما تقضي هذه الحياة الدنيا إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر والله خير وأبقى) طه 57 - 73.

فقصة هذا التحدي قصة متكاملة ويترتب عليها ونتائجها أمور تتعلق بالسحر وأمور تتعلق بالسحرة.

ففي التوراة ينسب سفر الخروج العصا لهارون أخي موسى (ولكن عصا هارون ابتلعت عصيهم). والعصا في القرآن الكريم تنسب لموسى لأنه صاحب الشأن الأول في جدال فرعون. أما بالنسبة للسحر فكان في عصر فرعون علما له شأنه والذي يفرق ما بين سحر السحرة وعصا موسى قدرة الله سبحانه على المعجزة. لقد ألقى السحرة حبالهم وعصيهم فانقلبت خادعة أعين الناس إلى ثعابين وعندما ألقى موسى عصاه تحولت إلى ثعبان حقيقة وليس سحرا والذي يؤكد ذلك أن السحرة يعرفون صنعتهم بالسحر ويميزون بينه وبين الحقيقة. فلما ابتلع ثعبان موسى ثعابينهم المزيفة أدرك السحرة أن هذا معجزة ربانية وليست سحرا فآمنوا بل خروا ساجدين معترفين بعجزهم أمام الحقيقة الربانية.

ولم تميز التوراة بين فعل موسى وفعل السحرة ولم تنسب الفعل الذي حدث إلى معجزة إلهية إنما جاء الخبر خاليا من كل بعد إلهي سوى الأمر الذي ألقاه الرب على موسى وهارون أما بالنسبة للسحرة فإن مجريات الأمور تقول لنا إن موسى عليه السلام عندما خرج من مصر إلى سيناء أخذ معه بني إسرائيل ومن آمن معه. وكان السحرة ممن هرب مع موسى.

فهل كان السحرة من بني إسرائيل أم من المصريين؟ واقع الأمر يقول إنهم من المصريين حيث جمعهم فرعون من كافة بلاده وهذا حسب نص التوراة وحسب نص القرآن الكريم. وهذا يعني أن من دخل سيناء كان خليطا من الناس الإسرائيليين والمصريين. فلا يمكن الموافقة على ما يقوله اليهود بالنسبة لنقاء العرق اليهودي وصفائه.

وحين رفض فرعون الإيمان وظل على عناده على الرغم من رؤيته معجزة العصا وفشل السحرة أرسل الله سبحانه لموسى تسع آيات بينات منها ما ارتبط بقصة التحدي لفرعون ومنها ما يخص بني إسرائيل.

يقول تعالى (ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات فاسأل بني إسرائيل إذ جاءهم فقال له فرعون إني لأظنك يا موسى مسحورا) الإسراء الآية 101.

وقد أورد القرآن الكريم ذكر الآيات البينات في عدة مواقع.

ففي سورة الأعراف (ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون) الأعراف 130.

(فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين) الأعراف 133.

وفي سورة طه: (ولقد أريناه آياتنا كلها فكذب وأبى) طه 56.

ووردت أيضا في سورة النمل الآية 13 - 14 وفي سورة القصص 36 - 37 وفي سورة الزخرف 46 - 50 وفي سورة القمر 41 - 42 وفي سورة النازعات 20 - 21.

وذكرت التوراة الآيات التي جاء بها موسى إلى فرعون وملئه وجعلتها اثنتي عشرة آية وقد وردت في سفر الخروج الإصحاح 14 - الإصحاح 8 - الإصحاح 9 - الإصحاح 10 الإصحاح 11.

غير أن الذي يلفت النظر فيما ورد في التوراة أن نهر النيل ينقلب ماءؤه دما لمدة سبعة أيام وموت السمك في النهر وتنتن مائه. وصعود الضفادع من النهر إلى أرض مصر حتى غطت الأرض وتفشى الوباء في مواشي المصريين من الخيل والحمير والبقر والجمال والغنم. ونزول البرد العظيم يهلك ما أصاب من المواشي والناس وإظلام أرض مصر ثلاثة أيام. وموت كل بكر من الناس والبهائم في مصر.

فإذا كان الوباء قد قتل ما لفرعون وأهل مصر من الحيوانات فمعنى ذلك أنه لم يبق لديهم شيء من هذه الحيوانات. وحسب النص التوراتي فإن جميع الدواب هلكت وهذا يعني أيضاً أن دواب بني إسرائيل لحقها الهلاك. لكن التوراة تورّد أن مواشي بني إسرائيل لم تهلك!! .

وفي قصة قلب الماء دماً فضيحة أخرى ظاهرة الكذب وهي أن في نص الكلام الذي يزعمونه التوراة (ثم قال السيد لموسى قل لهارون مد يدك بالعصا على مياه مصر وأنهارها وأوديتها ومروجها وجناتها لتعود دماً وتصير ماء في آنية التراب والخشب دماً. ففعل موسى وهارون كل ما أمرهما به السيد إلى قوله وصار الماء في جميع أرض مصر دماً ففعل مثل ذلك سحرة مصر بسحرهم واشتد قلب فرعون ولم يسمع لهما على حال). هذا نص حالهم فأخبر أن كل ماء كان بمصر صار دماً فأبي ماء بقي حتى يقلبه السحرة دماً كما فعل موسى وهارون⁽¹⁾.

ولو تم فعلاً قلب الماء دماً لمدة سبعة أيام فكيف عاش الناس ومنهم بنو إسرائيل مدة سبعة أيام بالعطش دون ماء؟ ثم كيف صبر موسى وهارون على العطش مدة سبعة أيام؟ لكن التوراة تورّد أن المصريين حفروا حوالي النهر لأجل ماء ليشربوا لأنهم لم يقدرُوا أن يشربوا من ماء النهر. فهذا مدعاة لعدم تصديق النص التوراتي. لأن المدة هنا غير محددة على اعتبار أن القصد من وراء ذلك إظهار المعجزة أو الآية التي تبين قدرة الله الذي لا يريد فرعون أن يؤمن به. فالقرآن الكريم لم يحدد وقتاً، إنما طرح معجزة أو علامة. وقد لا يدوم زمن وقتها كثيراً لأن القصد اقناع فرعون وقومه وليس قتلهم أو إماتتهم عطشاً وإلا لو كان القصد إماتتهم لأماتهم الله جميعهم وأنقذ موسى وقومه دون أية عقبات تذكر.

(1) ابن حزم الظاهري الأندلسي، الفصل بين الملل والأهواء والنحل صفحة 250 المجلد الأول.

ثم عندما تذكر التوراة أن أرض مصر أظلمت ثلاثة أيام قالت إن جميع بني إسرائيل كان لهم نور في مساكنهم خلال هذه الظلمة المستمرة ثلاثة أيام. ولو كان الأمر حدث فعلاً لجرى للمخلوقات بما فيها البشر وضمن هؤلاء موسى وهارون ما لا يساعدهم على البقاء، لأن الإنسان أو أي مخلوق حي يحتاج لأشعة الشمس وحرارتها حتى يتابع حياته. ولو افترضنا أن ذلك حدث فعلاً فإن أي عاقل يسأل كم من الممكن أن تصبح درجة الحرارة إذا استمرت ظلمة ما بشكل متواصل مدة ثلاثة أيام؟ وهل تحتفل المخلوقات بما فيها البشر درجة حرارة منخفضة جداً ولا تتعرض لأمراض فتاكة أو موتٍ مؤكد؟ وكل الأسئلة جائزة إلا إذا كان في الأمر معجزة.

بعد هذه الحوادث أمر الله موسى أن يهرب من مصر ومعه بنو إسرائيل. فقال تعالى: (ولقد أوحينا إلى موسى أن أسر بعبادي فاضرب لهم طريقاً في البحر يبساً لا تخاف دركاً ولا تخشى) طه الآية 77.

أما التوراة فإنها ترى أن فرعون هو الذي أذن لموسى بالرحيل وتحدثت عن قصة أخذ الإسرائيليين أمتعة من ذهب وفضة من المصريين. (طلبوا من المصريين أمتعة فضة وأمتعة ذهب وثياباً وأعطى الرب نعمة للشعب في عيون المصريين حتى أعاروهم فسلبوا المصريين. فارتحل بنو إسرائيل من رعمسيس إلى سكوت نحو ست مئة ألف ماشٍ من الرجال عدا الأولاد) 36 - 37 - 38.

(وقال الرب لموسى وهارون هذه فريضة الفصح. كل ابن غريب لا يأكل منه. ولكن كل عبد مبتاع بفضة تختنه ثم يأكل منه. النزيل والأجير لا يأكلان منه) الإصحاح الثاني عشر 43 - 44 - 45 - 46.

فالقُرآن الكريم يورد حادثة هرب بني إسرائيل بأمر من الله سبحانه. وهذه الحادثة تأتي زمنياً بعد الجدال الطويل الذي جرى بين النبي موسى وبين فرعون.

غير أن التوراة تورد حوادث وأموراً قبل الحديث عن العبور. وما ورد يستحق التوقف والمناقشة. ترى التوراة أن الرب أمر الإسرائيليين بسرقة المصريين عن طريق الحيلة. فهذه الحادثة فيها عدة وجوه.

1 - إذا كان الرب قد أمر بني إسرائيل فعلاً بسرقة المصريين فإن هذا يعني أن الرب نفسه يبيح السرقة وهذا منافٍ لطبيعة أوامر الله. والذي نراه أن كاتب التوراة أدخل هذه الحادثة بقصد. وقد لا تكون حدثت فعلاً. لأن الصراع بين العبرانيين والمصريين كان على أشده والإسرائيليون مهددون في أي لحظة. من قبل فرعون وشعبه. فكيف تسنى للإسرائيليين وهم حسب قول التوراة أكثر من نصف مليون إنسان أن يسلبوا المصريين أواني الذهب والفضة ثم يرحلوا وهم يحملونها باتجاه البحر ومن ثم سيناء. ثم هل لديهم الوقت الكافي كي يستعيروا هذه الأواني الفضية والذهبية وهم متأهبون للهروب خائفون من فشلهم؟

2 - ما الغاية من سرقة المصريين أوانيهم؟ هل ليثبت الإسرائيليون أنهم قادرون على خداع المصريين أم ليدللوا على أنفسهم أنهم ذوو رغبة جامحة في اقتناء الذهب والفضة؟ ثم ما الوجه القانوني الذي يبيح لهم سرقة مثل هذه الأشياء. لقد نصت التوراة حرفياً على السرقة وفعل السلب (حتى أعاروهم فسلبوا المصريين).

3 - إذا كانت الحادثة حدثت فعلاً فإنها تدل على أن بني إسرائيل وقائدهم موسى ذوو ميول عدوانية منذ بدء حياتهم.

أما الذي نراه أن موسى عليه السلام لم يأمرهم بسرقة المصريين. وكان هدفه الأساسي إخراج قومه وبأقصى سرعة من مصر ليتخلصوا من ظلم فرعون.

وإذا كانت التوراة ترى كما نصت أن الرب أعطى نعمة للشعب في عيون المصريين حتى يعيروهم الأمتعة. فإن ذلك أيضاً يؤكد أن الرب ساعدهم حتى في الوسيلة غير الشرعية ليحصلوا على هدف غير شرعي.

أما قول التوراة بأن بني إسرائيل بلغ عددهم عندما ارتحلوا ستمائة ألف راجل ما عدا الأولاد. فإن التوراة نصت سابقاً أن الذين دخلوا مصر من أبناء يعقوب وأحفاده بلغوا بضعاً وسبعين فرداً. وإذا افترضنا أنهم فعلاً مكثوا أربعمائة سنة في مصر (وهذا أيضاً رقم مرفوض) فإنهم لن يبلغوا هذا العدد الخيالي ستمائة ألف إنسان عدا الأولاد. ولنفترض أن من بين كل ستة أشخاص شخصاً يحمل ولداً أو يجره فإن عدد الأولاد سيبلغ مائة ألف وهذا يعني أن المجموع بلغ سبعمائة ألف إنسان وعلى ذلك نسأل كم عدد المصريين آنذاك؟

كم استغرق تجميع هذه الأعداد الهائلة حتى يسيروا مسيراً واحداً نحو البحر وسينا؟ ألا يمكن لهذه الأعداد الهائلة منهم أن تقف في وجه فرعون وتقوم بثورة إذا ما ظلمت. ثم إن نص التوراة يؤكد أن الذين هربوا مع موسى لم يكونوا من بني إسرائيل فحسب إنما كان معه العبيد والأجراء والنزلاء.

ومن التناقض في ذلك أن بني إسرائيل أنفسهم كانوا مستعبدين فكيف كان لديهم عبيد وأجراء ونزلاء؟

ثم إن السحرة الذين هم ليسوا من بني إسرائيل آمنوا بموسى وبرب موسى واتبعوه في هروبه. على أية حال وعلى الرغم من أن أعداد الذين هربوا مع موسى لم يكونوا بهذا الحجم إلا أنهم كانوا خليطاً من البشر. منهم أعداد من بني إسرائيل ومنهم السحرة ومنهم آخرون من الفقراء والمظلومين أما حادثة عبورهم بالبحر فهي واردة في التوراة كما هي واردة في القرآن الكريم. والواسطة كانت عمسا موسى إلا أن التوراة تقول: هبت ريح قوية أزاحت المياه عن مكانها بينما في القرآن الكريم ظلت في نطاق المعجزة الإلهية.

ولو لاحظنا ما في الآيات القرآنية من بيان لوجدنا أنه يرشدنا إلى جميع القضايا السابقة بأسلوب واضح جلي.

فقله تعالى: (فأرسل فرعون في المدائن حاشرين إن هؤلاء شرذمة قليلون) يدل على أن بني إسرائيل لم يكونوا كثيري العدد حسب ما تزعم التوراة. ولو كانوا كذلك لما استهان بهم فرعون ووصفهم بالشرذمة.

بنو إسرائيل في سيناء:

يشغل وجود بني إسرائيل ومن هرب معهم من مصر في صحراء سيناء حيزاً واسعاً في التوراة والقرآن. ولعل جميع ما شرعه موسى لهم كان أثناء وجودهم في هذه الصحراء. ويتفق القرآن والتوراة في معظم الخطوط العامة لحياة بني إسرائيل في الصحراء.

غير أننا نرى في التوراة أموراً يجب التوقف عندها قبل الحديث عن مجريات الأمور في صحراء سيناء.

أولاً: تقول التوراة: (وأخذ موسى عظام يوسف معه لأنه كان استحلف بني إسرائيل بحلف قائلاً إن الله سيفتدكم فتصعدون عظامي من هنا معكم) خروج الإصحاح الثالث عشر 18 - 19.

وكانت التوراة قد قالت في آخر جملة من سفر التكوين (ثم مات يوسف وهو ابن مئة وعشر سنين فحنطوه ووضع في تابوت في مصر).

فمعلوم أن المكتشفات العلمية المتخصصة بالفراعنة وبالتحنيط بالذات أقرت بأن التحنيط يبقي على الجثة البشرية مدة طويلة من الزمن قد تصل ألفي عام أو أكثر. وهناك في متحف لندن والمتاحف المصرية بضع جثث محنطة لبعض الفراعنة وتقوم إلى الآن عليها دراسات علمية تشريحية.

فإذا كان يوسف قد حُنُطَ فعلاً فالمفترض أن تبقى جثته سليمة إلى حد كبير لأنه لا يفصل بين موته وخروج بني إسرائيل أكثر من مائتي سنة على أكثر تقدير.

وقد سبق أن أشارت التوراة إلى أن يوسف أمر بتحنيط جثة أبيه النبي يعقوب عندما مات في مصر وذكرت أن مدة تحنيط جثته استمرت أربعين يوماً ثم وضعت في تابوت ونقلت إلى الخليل لتدفن هناك.

ولم يورد القرآن الكريم شيئاً عن وفاة يوسف أو تحنيط جثته أو حتى نقل رفاته إلى فلسطين من مصر.

ثانياً: وتقول التوراة في آخر الإصحاح الثالث عشر من سفر الخروج: (وكان الرب يسير أمامهم نهراً في عمود سحاب ليهديهم في الطريق وليلاً في عمود نار ليضيء لهم ليمشوا نهراً وليلاً. لم يبرح عمود السحاب نهراً وعمود النار ليلاً من أمام الشعب).

فهذا النص يشير إلى تجسيد واضح للإله. وهل يعجز الله أن يهديهم بأسلوب آخر كأن يرسل ملكاً يتحمل مسؤولية هدايتهم إلى الطريق؟ أو أن يسخر لهم عمود نار أو دخان يدلهم السبيل؟ ألا يصح مسيرهم إلا إذا كان الرب يسير أمامهم في الليل والنهار؟.

يقول تعالى في كتابه العزيز: (قال أصحاب موسى إنا لمدركون. قال كلا إن معي ربي سيهدين) الشعراء 61 - 62.

ومعنى الهداية هنا أن الله سبحانه سيساعدهم في الطريق.

يقول ابن كثير: (وكانوا يسيرون في النهار والسحاب بين أيديهم يسير أمامهم فيه عمود نور. والليل أمامهم عمود نار فأنتهى بهم الطريق إلى ساحل البحر فنزلوا هناك)^(١).

ثالثاً: وتقول التوراة في الإصحاح الخامس عشر: (من مثلك بين الآلهة يا رب) فهذا النص يؤكد إيمان بني إسرائيل بأن هناك آلهة أخرى غير الإله الذي أنقذهم من فرعون وظلمه وسار معهم يهديهم الطريق على شكل عمود من دخان وعمود من نار في الليل والنهار.

رابعاً: تقول التوراة في الإصحاح الخامس عشر (يسمع الشعوب فيرتعدون تأخذ الرعدة سكان فلسطين حينئذ يندهش أمراء أدوم، أقوياء موآب تأخذهم الرجفة. يذوب جميع سكان كنعان. تقع عليهم الرهبة والرعب، بعظمة ذراعك يصمتون كالحجر حتى يعبر شعبك يا رب).

وهذا النص يوضح تماماً أنه وضع بعد موسى بمئات السنين. لأن مجريات الأحداث تقول إن موسى وقومه كانوا يترجون الله أن ينقذهم من فرعون ويهربون. فما الذي جعل موسى وبني إسرائيل يأتون على ذكر الأدوميين والمؤابيين والفلسطينيين والكنعانيين ليس هذا مدعاة للقول إن بني إسرائيل بعد أن سباهم البابليون صنعوا هذه الكتابات ليربطوا القضايا الدينية بالقضايا السياسية التي استجدت والتي لم يكن لموسى شأن فيها؟ وإلا لماذا يحب موسى أن يرتعب هذا الشعب وهذا الشعب وهو لا يرتبط بهم بأية علاقة جغرافية أو سياسية أو حتى اجتماعية؟.

ثم ما هذه المفاجأة التي أوحى لموسى أن يذكر هذه الشعوب وهو لم يذكرها سابقاً أو يتذكرها؟ إن كان هناك مدعاة للتذكر.

(١) ابن كثير قصص الأنبياء صفحة 322.

ويستطيع المرء أن يلحظ أن مهمة موسى وبني إسرائيل في التوراة بدأت تنقلب في توجهاتها وأهدافها وهذا ما ستؤكدده الأحداث التالية في تاريخ بني إسرائيل.

وتتابع الأحداث فيدخل بنو إسرائيل سيناء ويتذمرون على موسى وهارون لقلّة الماء والأكل فدعا موسى ربه أن يكفيهم حاجاتهم فبعث لهم الله المن والسلوى وهذا ما جاء في التوراة في الإصحاح السادس عشر وأكدّه القرآن الكريم فلا خلاف حول هذه المسائل.

وعندما استقر بهم المقام في سيناء ذهب موسى لميقات ربه ليتلقى تعاليم الشريعة من قبل وحي الله عز وجل. وقد غاب موسى عن قومه ثلاثين يوماً وأتبعها بعشر ليالٍ ثم تلقى رسالة السماء.

يقول تعالى: (قال يا موسى إني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين وكتبنا له في الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلاً لكل شيء فخذها بقوة وأمر قومك يأخذوا بأحسنها سأوريكم دار الفاسقين) الأعراف الآيتان 144 - 145.

وترد تفاصيل كثيرة عن ذهاب موسى لربه عند جبل (حوريب) في سيناء وذلك في الإصحاح 19 والإصحاح 20 من سفر الخروج. وهذه التفاصيل تجسد الله بشكل فح وتحدده.

تقول التوراة: (فقال الرب لموسى ها أنا إليك في ظلام السحاب) مقطع 9. (لأنه في اليوم الثالث ينزل الرب أمام عيون جميع الشعب على جبل سيناء) مقطع 11.

(وأخرج موسى الشعب من المحلة لملاقاة الله) مقطع 17.

(وكان جبل سيناء كله يدخن من أجل أن الرب نزل عليه) مقطع 18.

(نزل الرب على جبل سيناء إلى رأس الجبل) مقطع 20.

ويقول تعالى: (ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال رب أرني أنظر إليك قال لن تراني ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني فلما تجلى ربه للجبل جعله دكاً وخر موسى صعقاً فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين) الأعراف 143.

ففي المقاطع التوراتية نرى تجسيداً واضحاً للرب لأن الشعب حسب قولها سوف ينزل على الجبل فيراه موسى وكافة أفراد الشعب. وتكرار الحديث في عدة مقاطع عن نزول الله على الجبل يؤكد تحريف التوراة التي نزلت على موسى. لأن الله سبحانه لم يتجسد لموسى ولا لقومه.

ولو نظرنا إلى الآية القرآنية الكريمة السابقة لأدركنا صحة الحدث كما حصل فعلاً. فالله سبحانه لم يتجسد ولم يهبط من أعاليه على الجبل كما قالت التوراة، فالذي حدث أن موسى طلب رؤية ربه فقال له الله إن رأيت الجبل مستقراً فإنك ستراني فنظر موسى ينتظر لكن الله تجلت قدرته على الجبل فدكاً ولهول ما أرى موسى من دك الجبل خر صعقاً مغشياً عليه فلما أفاق استغفر ربه لما بدر منه من التمادي وتجاوز الحدود.

وعلى ذلك فإن موسى لم ير الله سبحانه وإنما سمع نداء الله ليبلغه رسالة السماء. فإذا كان الذي حدث مع موسى قد صعقه فكيف إذا رأى الشعب كله الله، وهم ليسوا أنبياء مهيبين لحمل رسالة السماء كما هو موسى عليه السلام.

وفي غياب موسى لتلقي الرسالة انقلب قومه على ديانة التوحيد وصنعوا عجلاً وراحوا يعبدونه حتى عاد موسى. وهذا ما صرح به القرآن الكريم وصرحت به التوراة. لكننا سنجد اختلافاً كبيراً بينهما.

ففي القرآن الكريم يقول تعالى: (واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلًا جسدًا له خوار ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلاً اتخذوه وكانوا ظالمين) الأعراف 148.

ويقول تعالى: (ولما رجع موسى إلى قومه غضبان أسفاً قال بئسما خلفتموني من بعدي أعجلتم أمر ربكم وألقى الألواح وأخذ برأس أخيه يجره إليه قال يا بن أم إن القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني فلا تشمت بي الأعداء ولا تجعلني مع القوم الظالمين) الأعراف 150.

ويقول تعالى: (ولقد قال لهم هارون من قبل يا قوم إنما فتنتم به وإن ربكم الرحمن فاتبعوني وأطيعوا أمري قالوا لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى) سورة طه 90 - 91.

وتقول التوراة في سفر الخروج الإصحاح الثاني والثلاثين: (ولما رأى الشعب أن موسى أبطأ في النزول من الجبل اجتمع الشعب على هارون وقالوا له قم اصنع لنا آلهة تسير أمامنا لأن هذا موسى الرجل الذي أصدنا من أرض مصر لا نعلم ماذا أصابه. فقال لهم هارون انزعوا أقراط الذهب التي في آذان نسائكم وبنبيكم وبناتكم وأتوني بها. فنزع كل الشعب أقراط الذهب التي في آذانهم وأتوا بها إلى هارون فأخذ ذلك من أيديهم وصوره بالإزميل وصنعه عجلًا مسبوكةً فقالوا هذه إلهتك يا إسرائيل التي أصدتكم من أرض مصر).

فالفرق الذي نراه أن التوراة تقول إن هارون أخا موسى استجاب لطلبهم وصنع لهم العجل والحقيقة القرآنية ترى أن السامري هو الذي صنع العجل بينما حاول هارون أن يثنيه ويثنيهم عن صنع العجل لكنهم أبوا وهددوا بقتله إن هو عارضهم أو قاومهم والآية القرآنية تصرح بذلك كما مر معنا (إن القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني).

وهارون كما صرح القرآن الكريم نبيُّ مرسل مثله مثل موسى عليهما السلام ولا يمكن أن ينحرف نبي إلى عقيدة وثنية بعدما منَّ الله عليه وشرح صدره للتوحيد ومعلوم أن الله عصم الأنبياء من أن ينحرفوا عن الإيمان بوحدانيته. وقد أوضحت الدراسات أن بني إسرائيل تأثروا بعقائد الشعوب التي خالطوها أو مروا بها وهم في طريقهم عبر سيناء. فعبادة العجل أو رمز البقرة موجودة لدى المصريين القدماء وبعض شعوب المنطقة. وانحراف بني إسرائيل إلى هذه العقائد يدل بشكل واضح على أنهم لم يرسخوا عقيدة التوحيد في نفوسهم وعقولهم، وهذا ما يدل عليه تقبلهم الدائم والمستمر من عقيدة إلى أخرى.

وقد أوردت التوراة في سفر الخروج وفي الإصحاح الثالث والثلاثين مقاطع عديدة تعيد فيها التأكيد على أن الله ينزل ويجتمع بموسى في خيمة الاجتماع التي نصبها موسى ليقضي للشعب تقول: (وكان عمود السحاب إذا دخل موسى الخيمة ينزل ويقف عند باب الخيمة ويتكلم الرب مع موسى) مقطع 9.

وتقول (ويكلم الرب موسى وجهاً لوجه كما يكلم الرجل صاحبه) مقطع 11. وهذا أيضاً يناقض قول التوراة (وقال لا تقدر أن ترى وجهي، لأن الإنسان لا يراني ويعيش) خروج 23: 20.

ألواح موسى:

يشير القرآن الكريم وتشير التوراة إلى أن وصايا الله لموسى كتبت في الألواح أو في لوحين كما تقول التوراة.

يقول تعالى: (وكتبنا له في الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلاً لكل شيء) الأعراف 145.

ويقول تعالى: (ولما رجع موسى إلى قومه غضبان أسفاً قال بئسما خلفتموني من بعدي أعجلتم أمر ربكم وألقى الألواح وأخذ برأس أخيه) الأعراف 150.

وجاء في الإصحاح الرابع والثلاثين من سفر الخروج (ثم قال الرب لموسى انحت لك لوحين من حجر مثل الأولين فأكتب أنا على اللوحين الكلمات التي كانت على اللوحين الأولين اللذين كسرتهما وتقول: ثم أعطى موسى عند فراغه من الكلام معه في جبل سيناء لוחي الشهادة لוחي حجر مكتوبين بإصبع الله).

فالذي فهم من سياق آيات القرآن الكريم أن الله سبحانه أوحى لموسى بالتوراة وبكتابتها على ألواح حتى تحفظ ويعلمها لبني إسرائيل.

ويفهم أيضاً أن موسى ألقى الألواح وقد تكون تكسرت وهذا يعني أن التعاليم المكتوبة فيها لم تُحفظ باعتبار أن الألواح أتلفت.

إلا أن التوراة تشير إلى أن الله أمر موسى أن يصنع لوحين جديدين لتكتب عليهما تعاليم التوراة. على أية حال فإننا نرى اتفاقاً في أن الألواح أُلقيت ولكن القرآن لا يشير إلى استبدال اللوحين بلوحين جديدين.

غير أن الذي يستوقف هنا هو قول التوراة أن ما كُتب في اللوحين هو بخط إصبع الله أو بيده وهذا ما يذكرنا دوماً بالحس التجسدي لدى اليهود لذات الله حيث يضعون له ما يضعونه لبني البشر.

أما محتوى هذه الكتابات الموجودة على الألواح فملخصها أنها تدعو بني إسرائيل إلى التمسك بالتوحيد دون الاشرار بالله إضافة لتعاليم أخلاقية كعدم السرقة وعدم الزنا إلى ما هنالك من تعاليم أخلاقية أخرى.

على أية حال فإن قول القرآن الكريم - كتبنا له في الألواح - يحدد أن التوراة كتبت على ألواح وليس على لوحين كما ذكرت التوراة. والتوراة بما فيها من تعاليم موسى تحتاج أصلاً لعدة ألواح حتى تدون عليها ولا يكفيها لوحان. وهناك أقاويل حول طبيعة الألواح هل هي من فخار مشوي أم هي من صخر نحتت على شكل لوح؟ أم هي ألواح خشبية. وهذا ليس فيه جزم إنما هي أقوال متباينة.

- ما هي التوراة التي أنزلت على موسى؟ ما هي لغتها؟

لم يصرح القرآن الكريم في آية من آياته عن طبيعة اللغة التي أنزلت بها التوراة أما عن تعاليمها فيستطيع أي قارئ للقرآن والتوراة أن يعرفها بتفاصيلها على الرغم من أن كتبة التوراة أخفوا الكثير من الحقائق التوراتية التي أنزلت على موسى.

وكتب الله تعالى ما يحتاج إليه بنو إسرائيل من بيان الحلال والحرام والمحاسن والقبايح في ألواح اختلف المفسرون في عددها بين عشرة واثنين كما اختلفوا في حقيقتها بين خشب وحجر. وكان المكتوب فيها مواعظ وأحكام وتفصيل لكل شيء يهم بني إسرائيل وأمره الله تعالى أن يأمر بني إسرائيل أن يأخذوا بأحسنها أي يسيروا على أحسن وأفضل ما رسم فيها.

أما بالنسبة للغة التوراة فإنها لا تشير إليها لكن أحبار اليهود ذكروا فيما بعد أنها اللغة العبرية. فهل حقاً أنزلت التوراة باللغة العبرية؟

فموسى كنيبي رحل من مصر هارباً وهو شاب وكان قد تربى في بيت فرعون وحفظ لغة المصريين ولم يعرف لغة غيرها. وعندما جاء إلى مدين مكث عشر سنوات. وهذه السنوات كفيلاً بأن يتعلم موسى لغة أهل مدين. وعندما عاد إلى مصر ليحاجج فرعون كان يعرف لغتين لغة أهل مصر ولغة أهل مدين، ولما

هرب مع بني إسرائيل إلى سيناء وذهب إلى جبل حوريب وأنزلت التوراة عليه فقد أنزلت باللغة التي يفهمها هو وقومه.

يقول تعالى: (وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبيّن لهم فيضل الله من يشاء ويهدي من يشاء وهو العزيز الحكيم) سورة إبراهيم الآية 4.

يقول ابن كثير: (هذا من لطفه تعالى بخلقه أن يرسل إليهم رسلاً بلغاتهم ليفهموا عنهم ما يريدون وما أرسلوا به إليهم)⁽¹⁾.

إذا فاللغة التي يفهمها بنو إسرائيل آنذاك كانت المصرية أو هي خليط من المصرية وغيرها وموسى لم يعرف سوى اللغة المصرية ولغة مدين. وعلى ذلك فإن التوراة لم تنزل على موسى باللغة العبرانية إنما نزلت بلغة موسى وقوم موسى.

والدارسون للغات يؤكدون أن العبرية ظهرت متأخرة عن اللغة المصرية أو الكنعانية فهي حديثة بالنسبة لغيرها من اللغات الشرقية.

ولما دُونت التوراة في زمن السبي البابلي كانت اللغة العبرية قد اكتملت بالشكل القديم لها وظلت متداولة بين اليهود منذ ذلك الوقت والفاصل الزمني بين وجود موسى والسبي البابلي يبلغ أكثر من سبعمائة عام. وهذه الأعوام كفيّلة أن تغيّر في لغة التوراة وفي كثير من تعاليمها كما أشار إلى ذلك القرآن الكريم.

(1) عبد الوهاب النجار. قصص الأنبياء صفحة 2260.

الأرض المقدسة والوعد التوراتي:

يشكل مفهوم الأرض المقدسة مفصلاً هاماً في تاريخ بني إسرائيل باعتبارها حسب ما نصت عليه التوراة الأرض التي وعدوا بها أن يملكوها. وهذا الوعد حسب أقوال التوراة بدأ منذ النبي إبراهيم واستمر يفعل فعله حتى زمن موسى. وقد نص القرآن الكريم في سورة المائدة على ذكر الأرض المقدسة. وخاطب موسى بني إسرائيل أن يدخلوها. أما التوراة فقد ذكرت الأرض الموعودة مرات عدة في سفر التكوين وتكرر ذكرها في أسفار عدة كسفر الخروج والتثنية وغيرها. وقد وقع معظم الدارسين والمفسرين في أخطاء دينية وأخرى تاريخية بسبب فهم لما عنته الآية القرآنية ولما عنته التوراة.

يقول تعالى: (وإذ قال موسى لقومه يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكاً وأتاكم ما لم يؤت أحداً من العالمين. يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين. قالوا يا موسى إن فيها قوماً جبارين وإننا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فإن يخرجوا منها فإنا داخلون. قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين قالوا يا موسى إننا لن ندخلها أبداً ما داموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون قال رب إنني لا أملك إلا نفسي وأخي فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين. قال فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض فلا تأس على القوم الفاسقين) المائدة 20 - 26.

وقد وردت آيات قرآنية أخرى تتحدث عن الأرض المباركة.

يقول تعالى: (ونجيناه ووطأ إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين) سورة الأنبياء الآية 61.

ويقول تعالى: (ولسليمان الريح تجري بأمره إلى الأرض التي باركنا فيها وكنا بكل شيء عالمين) الأنبياء الآية 81.

ويقول تعالى: (سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله) الإسراء الآية 1.

ويقول تعالى: (وجعلنا بينهم وبين القرى التي باركنا فيها قرى ظاهرة وقدرنا فيها المسير سيروا فيها ليالي وأياماً آمنين) سورة سبأ الآية 18.

فهنا أرض مباركة. وهناك أرض مقدسة فهل هما أرض واحدة؟ نرجئ الجواب بعد أن نورد النصوص التوراتية التي تحدثت عن الأرض التي وعد الله بها إبراهيم حسب ما جاء عندهم.

تقول التوراة في سفر التكوين الإصحاح السابع عشر (ولأعطي لك ولنسلك من بعدك أرض غربتك كل أرض كنعان ملكاً أبدياً).

وجاء في الإصحاح السادس والعشرين (لأنني لك ولنسلك أعطي جميع هذه البلاد وأني بالقسم الذي أقسمت لإبراهيم أبيك).

وجاء في الإصحاح الثامن والعشرين (الأرض التي أنت مضطجع عليها أعطيها لك ولنسلك).

وجاء في سفر الخروج الإصحاح الثالث: (فقلت أصدقكم من مذلة مصر إلى الأرض الكنعانيين والحثيين والأموريين والفرزيين والحويين واليبوسيين إلى أرض تفيض لبناً وعسلاً).

وجاء في الإصحاح الثالث والثلاثين: (قال الرب لموسى اذهب اصعد من هنا أنت والشعب الذي أصدقته من أرض مصر إلى الأرض التي حلفت لإبراهيم واسحق ويعقوب قائلاً لنسلك أعطيها وأنا أرسل أمامك ملاكاً وأطرد الكنعانيين

والأموريين والحثيين والفرزيين والحويين واليبوسيين إلى أرض تفيض لبناً وعسلاً).

وجاء في الإصحاح الرابع والثلاثين من سفر التثنية: (وصعد موسى من عربات موآب إلى جبل نبو إلى رأس الفسحة الذي قبالة أريحا فأراه الرب جميع الأرض من جلعاد إلى دان وجميع نفتالي وأرض إفرايم ومنسى وجميع أرض يهودا إلى البحر الغربي والجنوب والدائرة بقعة أريحا مدينة النخيل إلى صوغر. وقال له الرب هذه هي الأرض التي أقسمت لإبراهيم وإسحق ويعقوب قائلاً لنسلك أعطيها قد أريتك إياها بعينيك ولكنك إلى هناك لا تعبر. فمات هناك موسى عبد الرب في أرض موآب حسب قول الرب ودفنه في الجواء في أرض موآب مقابل بيت فغور ولم يعرف إنسان قبره إلى هذا اليوم. ولم يقم بعد نبي في إسرائيل مثل موسى الذي عرف الرب وجهاً لوجه).

قد يجد المقارن بين ما جاء به القرآن الكريم وما جاءت به التوراة تشابهاً فيما وعد به بنو إسرائيل من منحهم أرضاً مقدسة بناء على وعدٍ قدمه الله سبحانه للنبي إبراهيم.

غير أن القرآن الكريم لم يصرح أو يلمح في أية آية من آياته الكريمة أن الله قطع وعداً لإبراهيم بأن يملكه ونسله أرضاً ما. وإذا كان الرب قد وعد إبراهيم بامتلاك أرض كنعان حسب ما قالت التوراة فلماذا لم يحقق الله وعده. ولم يملك إبراهيم أو إسحق وأولاده هذه الأرض. ووعد الله لإبراهيم يشمله ويشمل نسله من بعده وهذا يعني أيضاً أن إسماعيل له الحق بالتملك باعتباره ولد إبراهيم.

قلنا عند مناقشة سفر التكوين أن الله سبحانه نجّى إبراهيم ولوطاً من القوم الكافرين إلى الأرض التي باركها الله للناس كافة (للعالمين) وقد وردت في

عدة آيات قرآنية كما رأينا، لكن لم يرد أن الله قطع وعداً لإبراهيم بأن يملكه هذه الأرض المباركة.

أما قوله تعالى: (يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم) فهكذا قال موسى لقومه وتحديد الأرض بالمقدسة لا يعني بالضرورة هي نفسها الأرض المباركة. لأنها لو كانت نفسها لجاء ذلك مكرراً بلفظ المقدسة في عدة مواقع. فالأرض المباركة باركها الله للعالمين وليس لشعب دون شعب وهي تعني المباركة الروحية الدينية ولا تعني التملك المادي والاستئثار ولو كان ذلك يعني التملك لكان من حق كافة الناس أن يدعوا أنها تخصهم أما إذا أردنا التوقف عند قول موسى ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم فهي لا تفهم مقاصدها إلا إذا قرأناها في سياق الآيات الكريمة التي جاءت بعدها وقبلها ولو توقفنا أولاً عند كلمة ادخلوها لوجدنا أنها لا تحمل معنى افتحوها أو اغزوها أو اقتلوا من فيها أو ما شابه تلك الألفاظ من الأفعال التي تأمر بالغزو. والدخول يعني عدة احتمالات وليس احتمالاً واحداً. وقبل التفصيل في هذه المسألة نعود إلى السياق القرآني حيث تقول الآية الكريمة على لسان بني إسرائيل: (إن فيها قوماً جبارين). فمن هم هؤلاء الجبارون وما هي تلك الأرض المقدسة التي كانوا فيها؟

لو قلنا إنهم الكنعانيون فالكنعانيون لم يعرفوا بالجبارين ولو كانوا كذلك لما نجى الله إبراهيم ولوطاً إلى أرضهم. ولم يشر القرآن ولا حتى التوراة إلى أية معاملة سيئة قوبل بها إبراهيم من قبل أهلها الكنعانيين.

ولو قلنا إن الأرض المقدسة هي القدس. فالقدس لم يكن فيها قوم جبارون بل كان فيها بنو ييوس أي اليبوسيون الذين لم يعهدهم التاريخ أنهم جبارون، وليست هناك أية دلائل تشير إلى ذلك لا من خلال الدراسات التاريخية ولا الأثرية المرتبطة بها.

ثم لو نظرنا إلى القول التوراتي على لسان ربهم مخاطباً موسى ولكنك إلى هناك لا تعبر فمات هناك موسى ولم يعرف إنسان قبره.

ولو نظرنا إلى الآية القرآنية عندما تقول: (فإنها محرمة عليهم، أربعين سنة يتيهون في الأرض) نجد أن اتفاقاً قرآنياً توراتياً ينص على أن موسى وقومه لن يدخلوا تلك الأرض المقدسة وهي محرمة عليهم.

والمدقق في سياق الآيات القرآنية يرى أن قول موسى ادخلوا الأرض المقدسة لا يبتعد كثيراً عن قول الله تعالى فإنها محرمة عليهم. وهذا يعني أن قول موسى ادخلوا الأرض المقدسة ما هو إلا امتحان من موسى لقومه لكي يظهرهم الله لهذا النبي على أنهم جبناء ولا يعتمد عليهم. تصوروا قولهم لموسى لن ندخلها حتى يخرجوا منها. فكيف يمكن أن يخرج الجبارون من أرضهم هم وأولادهم ونساؤهم ويفرغوها ثم يقولون لبني إسرائيل ها هي الأرض نظيفة أمامكم فتعالوا اسكنوها؟

فقوم موسى ليسوا رجال قتال حتى يستند موسى عليهم لدخول أرض فيها قوم جبارون. فالمسألة برمتها لا تعدوا أن تكون في نطاق الكشف عن خباياهم ونكتهم للعهود والمواثيق التي عقدها مع موسى ومع رب موسى.

ومع الافتراض أن اليهود وعدوا من قبل موسى بدخول الأرض المقدسة فلا يعني ذلك احتلالها والدليل قوله تعالى على لسانهم (إن فيها قوماً جبارين). قد يكون الدخول يتضمن قتالاً ضد هؤلاء الجبارين. لكن هؤلاء الجبارين ليسوا أصحاب أرض إنما هم جنود أو جيوش مارست الحرب والفتح عندما جاءت إلى هذه الأرض. وهذا ما يقربنا إلى القول إن أقواماً من شعوب البلستة اليونانية هي المقصودة. لأن كافة الدراسات التاريخية تشير إلى أن هذه الشعوب زحفت من البحر باتجاه فلسطين قبل 1150 من الميلاد وهذه الفترة

ذاتها التي كان موسى موجوداً فيها على مقربة من حدود الأردن وفلسطين
فالكنعانيون بجميع قبائلهم لم يعرفوا بالجبروت طوال حياتهم.

وهناك افتراضات أخرى يمكن أن نلقي الضوء عليها لنتبين أبعاد المسألة
أكثر فأكثر. فالقرآن الكريم يصرح ضمن الآيات الكريمة بقوله: (ادخلوا عليهم
الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون) وهذا يعني أن الأرض المقدسة المقصودة هنا
ليست سوى قلعة أو قرية صغيرة محصنة ولها باب. وعندما تقول الآية القرآنية
ادخلوا عليهم الباب أي أن مركز القوة أو الضعف هو عند باب هذه القلعة أو
القرية المحصنة.

وهذا يعني أيضاً إذا كان هناك وعد إلهي بالأرض حسب النص الذي
ورد في القرآن فإن هذه الأرض المقدسة قد لا يعني أكثر من هذه القلعة أو هذه
القرية الصغيرة المحصنة وهي ليست لها علاقة بالأرض المباركة التي باركها
الله للعالمين.

ثم هناك افتراض آخر يقول إن القوم الجبارين قوم وثنيون، وعندما طلب
موسى من قومه دخول الأرض المقدسة كان القصد تخليص هذه الأرض المقدسة
من الوثنية وإقامة دين موسى التوحيدي والله يرث الأرض لعباده الصالحين.

لكن قوم موسى لم يكونوا صالحين، وثبت عدم صلاحهم منذ أن امتحنهم
موسى الامتحان الأول حين رفضوا إطاعة أوامره.

فالقصة منذ أن طلب موسى منهم دخول الأرض المقدسة وحتى نزول أمر
الله بتحريمها عليهم أحد الأدلة الكثيرة التي توضح طبيعة بني إسرائيل في
تعاملهم مع أوامر أنبيائهم وطالما أن آيات القرآن الكريم تخاطب قلب النبي
محمد صلى الله عليه وسلم فإن إيرادها من قبل رب العالمين تدخل ضمن سياق
التعليم والعبرة والإخبار بالماضي والغيب الذي لا يعلمه بتفاصيله إلا الله
سبحانه وتعالى.

محطات في حياة موسى:

يقع كثير من الباحثين الغربيين والعرب في تقديرات فاحشة حينما يصورون شخصية النبي موسى عليه السلام. فمنهم وبسبب هوى قومي أو ديني يجدون في موسى قائداً عسكرياً محارباً دموياً وليس له أي فضل في إرساء ديانة التوحيد ومحاولته نشرها بين بني إسرائيل.

ولعل ما وقعوا به من تجنّ على هذا النبي هو تفسيرهم لما جاء في نصوص التوراة من تصوير لشخصيته ولعدم تفحص شخصيته كما بينها القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة فالتوراة التي كتبت بعد موسى بقرون لم تترك نبياً من الأنبياء إلا وحاولت تشويهه منذ النبي إبراهيم وحتى آخر أنبياء ورجال بني إسرائيل.

وإذا أردنا إلقاء الضوء الحقيقي على الأنبياء ولا سيما موسى عليه السلام علينا أن ندرك أن القرآن الكريم أعطانا أدق التفصيلات في تصوير حياته وبين الحق من الباطل فيما قيل عنه. فموسى ليس كما يتصوره بعض الباحثين من أنه قائد محارب دموي وليس هو كما صورته التوراة. وإذا أردنا الإنصاف والحق فلا بد لنا من العودة إلى نصوص القرآن الكريم لنرى شخصية هذا النبي على حقيقتها.

فموسى قبل أي اعتبار نبي مرسل تلقى من الله سبحانه رسالة التوحيد وقد حاول كل جهده تثبيت هذه العقيدة في نفوس قومه إلا أنهم آذوه كثيراً وشكا منهم طوال حياته ومات وهو غير راضٍ عنهم وعن إيمانهم المشوه والمتزعزع.

وما نزل عليه من تعاليم لا يختلف في جوهره عما نزل على قلب الرسول محمد صلى الله عليه وسلم من قرآن. فالأنبياء جميعاً ينهلون من نبع رباني واحد. وإن اختلفت الأحداث أو العصور.

ولننظر إلى ما وقع فيه الباحثون من تجن على شخصية هذا النبي :

يقول الباحث ندرة اليازجي : (موسى وسيلة لإيقاف الشر بالعنف ولهذا ساد العنف في الناموس ومن هنا يحاول المؤرخون أن يوازنوا بين شريعة حمورابي وشريعة موسى. فكلا الشريعتين تجعلان من العنف وسيلة لوضع حد للشر ولا تعلمان الخير وتظل المقارنة بينهما ما ظل العنف والقسوة. فهل يمكن أن تقوم شريعة بدون عنف وقسوة؟ لا إذن لا ناموس ولا شريعة من الله)⁽¹⁾.

ويقول اليازجي (ولم يخرج موسى عن حكمة مصر والكلدان ولم تكن مؤلفاته إلا نسخة ثانية لحكمة الآخرين لكنها نسخة مشوهة)⁽²⁾.

ويقول (لم يصل موسى إلى درجة النبوة قبل الأربعين. ففي الأربعين اكتملت فيه درجة حكمة المصريين. وكان موسى متعصباً لبني قومه أي لإلهه وعرقياً برأيه وليس إبراهيم إلا شخصية موسى ذاتها التي وضعها لتشير إلى ديانة يهوه إله الغضب والحقد والدم)⁽³⁾.

ويقول: عندما تقارن بينه وبين موسى نجد ما يلي :

1 - عرقية موسى وعالمية المسيح والعرقية تعصب لشعب وكره لشعوب أخرى والعالمية محبة وتضحية.

2 - موسى يقتل يريق الدم فهو قاتل يمثل الناموس الحرف والمسيح يحب أن يراق دمه فهو ناموس الله.

3 - موسى قائد شعب والمسيح محب للإنسانية جمعاء وخادمها⁽⁴⁾.

(1) ندرة اليازجي رد على التوراة ص 165 - 166 دار الغربال دمشق ط 1987.

(2) ندرة اليازجي المصدر نفسه ص 165 - 166.

(3) ندرة اليازجي المصدر نفسه ص 165 - 166.

(4) ندرة اليازجي المصدر نفسه ص 165 - 166.

(أما موسى فقد قاده تعصبه إلى قيادة أهل مصر الإسرائيليين قادم مادياً ولم يقدمهم روحياً ولو قادمهم روحياً لظلوا حيث كانوا يعبدون الإله الحق. إن تعصب موسى قاده إلى تشخيص الإله تشخيصه في أرض وفي ناموس وكانت هذه العملية علة لغضب الإله)⁽¹⁾.

ويقول اليازجي : (عمد اليهود وعلى رأسهم موسى إلى أخذ آراء غيرهم والعمل على طمسها لتعطي الأسبقية لهم ولتظل من تراثهم ولتعتبر خاصة بهم وهكذا لم يكونوا من حاملي مشاعل النور. وقد أخذ موسى مبادئه من تعاليم الأمم التي لم يفهمها تماماً)⁽²⁾.

فمن خلال هذه النصوص وغيرها مما جاء في كتاب الباحث اليازجي لا يرى المرء إلا آراء تعصبية من شأنها التحامل على شخصية النبي موسى عليه السلام ولو اطلع ندرة اليازجي على قصة النبي موسى كما أوردها القرآن الكريم لعفى نفسه من جميع ما قاله بشأن موسى فاستناده على التوراة جعله يطلق أحكاماً في غاية القسوة وغاية الذاتية، وليست التوراة محل ثقة لنستند عليها سيما إذا أردنا أن نتحدث عن أنبياء الله.

فما الذي يدري الباحث أن شخصية هذا النبي كانت هكذا مثلما وصفتها التوراة؟ وهل تكفي التوراة ليؤكد أن هذه الشخصية فعلاً هكذا كانت؟

لقد درج كثير من الباحثين المنحازين إلى الكنعانية وإلى مفهوم أرض سوريا الكبرى إلى الهجوم دون هوادة على إبراهيم وموسى وبقيّة الأنبياء وهذا الهجوم يعتبر في نظرهم حق لأنهم يهاجمون الغزوة العبرية التي قادها بعض هؤلاء الأنبياء وهذا بالطبع ما جاء في التوراة وهو يجافي الحقيقة التي يمكن أن نكتشفها من خلال القرآن الكريم.

(1) ندرة اليازجي المصدر نفسه ص 165 - 166.

(2) ندرة اليازجي المصدر نفسه ص 175.

وعندما نتصفح ما كتبه الدكتور جرجي كنعان في كتبه نجد أنه لا يخرج عما جاء به الباحث ندرة اليازجي. فموسى حسب رأيه قائد قاتل غادر غاز لا يمت إلى النبوة في شيء. وفي جميع ما كتبه هذا الباحث يتجاهل الحقائق القرآنية التي تبين شخصية موسى على حقيقتها. وهذا هو نفس القصور الذي وقع فيه الباحث ندرة اليازجي.

فالتوراة ليست مقياساً البتة في التعريف بأي شخصية هامة ولا سيما شخصية نبي من الأنبياء إننا إذا أردنا الإنصاف والموضوعية علينا أن ندرك الحقائق والسمات لأي شخصية نبوية ليس من خلال ما سطرته أقلام البشر بل من خلال الحقائق الإلهية التي لا يمكن أن تخطئ بأي مقولة مهما كانت.

يقول جرجي كنعان: (لعل أول سطر في سيرة موسى هو صفة العنصرية الشوهاء والتعصب الأعمى التي خلعتها على أتباعه وجعلها فريضة دينية)⁽¹⁾.

ويقول: (وكان موسى كان يعي أن سلطان الدين سبيل إلى تحقيق سلطان الدنيا ووجد من الضروري أن يكون لجماعته إله يرعاهم ويطعمهم ويحميهم ويخطط لهم في المعارك ويقودهم في الحروب ويكون بينه وبينهم نوع من المنفعة المتبادلة)⁽²⁾.

ويقول: (ففي واد من أودية سيناء أوهم موسى أتباعه بأن رسالة جديدة جاءت له من إلهه)⁽³⁾.

ويقول في موقع آخر: (ألا يكون الأقرب إلى العقل والمنطق أن موسى النبي حين كان زعيماً لقبيلة يهودية ضاربة في صحراء سيناء فكر بغزو أطراف أرض

(1) جرجي كنعان سقوط الإمبراطورية الإسرائيلية صفحة 43 ط 1 1980.

(2) جرجي كنعان سقوط الإمبراطورية الإسرائيلية صفحة 43 ط 1 1980.

(3) جرجي كنعان سقوط الإمبراطورية الإسرائيلية صفحة 43 ط 1 1980.

كنعان لكنه مات قبل أن يحقق حلمه⁽¹⁾.

ويقول: (ووجد موسى من الضرورة أن يكون لجماعته إله يخطط لهم في المعارك ويقودهم في الحروب ووجد أن خبز الصفات تكون لهذا الإله هي الغضب والحقد والاعتباط وسفك الدماء وإشعال نار الحروب. وهذه الصفات في الغالب صفات موسى أعطها لربه وقاد بها أتباعه. فموسى حين حاول أن يجمع قومه بيهوه كان من الطبيعي أن يجعل منه إلهاً قومياً خاصاً بهم. ويكفي أن نعلم أن يهوه إله حرب إقليمى قبلي مثله مثل آلهة القبائل أو الممالك الأخرى اتخذه موسى إلهاً وجعله ينطق بما يشاء ويضع الأوامر والأحكام على لسانه لتكتسب صفة المقدس. وفرض عبادته على قومه بني إسرائيل بالإرهاب المصحوب بالقتل والتذبيح)⁽²⁾.

وقد بر يهوه أو موسى لا فرق فهما اسمان لحقيقة أو شخصية واحدة بر بقسمه وأخرجهم من مصر وتحت ضغط النازية كتب العالم النفسي اليهودي فرويد كتابه المشهور موسى والتوحيد توصل حسب رأيه إلى أن موسى رجل مصري قاد حملات عسكرية إلى الحبشة وغيرها وأنه استقى ديانة التوحيد من الفرعون المصري أخناتون وقد تمرد على سادته الجدد من الفراعنة وخرج من مصر ومعه بنو إسرائيل وبعض المضطهدين دينياً من المصريين إلى سيناء.

وقد استند إلى هذا الرأي بعض الباحثين كالدكتور أحمد سوسة في كتابه العرب واليهود في التاريخ كما أسهم كتاب وباحثون أوروبيون في دعم هذه الآراء حتى بات موسى في نظرهم جميعاً رجلاً لا يمت بأي صلة للنبوة. فهو الذي

(1) الوثيقة الصهيونية في العهد القديم، جرجي كنعان ص33، دار النهار، الطبعة الأولى 1977.

(2) الوثيقة الصهيونية في العهد القديم، جرجي كنعان ص 43، دار النهار، الطبعة الأولى 1977.

كتب التوراة، وهو الذي قاد الغزو باتجاه سيناء وفلسطين، وكأنه لم يتلق رسالة من السماء.

ورداً على هذه الآراء وغيرها فإننا ملزمون للاطلاع على سيرة النبي موسى كما نراها في القرآن الكريم.

فموسى عندما قتل الرجل المصري لم يكن قد تلقى النبوة، فهو فتى لم يبلغ سن الرجولة ورغم ذلك فإنه لم يكن يقصد قتل ذاك الرجل فالوكز لا يقتل رجلاً لكن الحكمة الإلهية أرادت أن يموت الرجل بسبب وكزة ليكون ذلك مقدمة لما أراد الله لموسى من هروب إلى مديان ومن ثم تلقي الرسالة في سيناء. على أية حال فإن قتل موسى للرجل لم يكن قتل نبي مرسل إنما قتل رجل عادي لرجل عادي. وموسى عندما تلقى الرسالة أصبح مسؤولاً أمام ربه عن أي عمل يقوم به. فهو لن يقتل إلا بحق ولن يكون سفاحاً طالما هو نبي مسؤول أمام الله وهذا رد على من اتهم موسى بأنه قاتل وأن رسالته تدعو للقتل.

وموسى لم يخترع إلهاً من تصوره كما قال بعض الباحثين فالله في نظر موسى ليس إلهاً قومياً إقليمياً يدعو إلى القتل ويغار ويتجسد. وآيات القرآن واضحة في التعريف بذات الله الذي آمن به موسى.

يقول تعالى: (قال فرعون وما رب العالمين 23 قال رب السموات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين 24 قال لمن حوله ألا تستمعون 25 قال ربكم ورب آبائكم الأولين 26 قال إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون 27 قال رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون 28) سورة الشعراء.

ويقول تعالى: (قال فمن ربكما يا موسى. قال ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى. قال فما بال القرون الأولى. قال علمها عند ربي في كتاب لا يضل ربي ولا ينس. الذي جعل لكم الأرض مهاداً وسلك لكم فيها سبلاً وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجاً من نبات شتى) 49 - 53 طه.

فأين صفات الله التي ألقوها بإله موسى من هذه الآيات التي توضح بصدق صفات الله. فهو خالق السموات والأرض ورب المشرق والمغرب ورب الناس أولهم وآخرهم. وهو الذي أعطى كل شيء خلقه وجعل الأرض مهاداً وأنزل من السماء ماء فأخرج الزرع والنبات.

أهذه صفات الإله الخاص ببني إسرائيل؟ أليست هي ذاتها صفات الله كما عرفها المسيح وكما عرفها محمد عليهما الصلاة والسلام؟

أما إذا كانت التوراة قد وصفت إله الذي عرفه موسى بالإله القومي المتعصب الدموي فهذا شأنها وليس لموسى عليه السلام ذنب في ذلك.

وإذا نظرنا إلى تعاليم التوراة الحقيقية التي نزلت على موسى عليه السلام وجدنا أنها مبثوثة في ثنايا آيات القرآن الكريم.

يقول تعالى: (قد أفلح من تزكى وذكر اسم ربه فصلى بل تؤثر الحياة الدنيا والآخرة خير وأبقى إن هذا لفي الصحف الأولى صحف إبراهيم وموسى) الأعلى 14 - 19.

إذاً هذه هي تعاليم التوراة الحقيقية كما نزلت على موسى. تزكية النفس وتشمل كثيراً من التعاليم المرتبطة بالعقيدة والمسلك وعبادة الله وحده والخضوع له.

ذلك باختصار ما جاء في التوراة وليس كما جاء فيما كتبه بنو إسرائيل بعد موت موسى.

موسى عليه السلام والعبد الصالح:

لم نعرث في التوراة على ذكر قصة لقاء موسى بالعبد الصالح الذي ورد ذكره في القرآن الكريم. وعلى الرغم من أن ليس هناك وجه للمقارنة بين التوراة

والقرآن بهذا الشأن إلا أن ما جاء به القرآن الكريم يوضح ملامح شخصية موسى التي تنافي تلك الصفات التي فهمها الباحثون الذين أشرنا إلى بعض أقوالهم وهم يتناولون دراسة شخصية موسى عليه السلام فهذا اللقاء يوضح على مراحل تلك الشخصية النبوية الصافية والتي تخالف تماماً ما جاء في التوراة.

على أية حال ما يعيننا من هذه القصة على أهميتها هي تلك السمات التي جعلت موسى يصل الذروة في الأدب والتعامل مع من اختارهم الله لهداية البشر وعلمهم بظواهر الأمور قبل بواطنها يقول تعالى في كتابه العزيز: (وإذ قال موسى لفتاه لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أو أمضي حقباً. فلما بلغا مجمع بينهما نسيا حوتهما فاتخذ سبيله في البحر سرباً. فلما جاؤا قال لفتاه إئتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً. قال رأيت إذ أوينا إلى الصخرة فإنني نسيت الحوت وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره واتخذ سبيله في البحر عجباً قال ذلك ما كنا نبغي فارتدا على آثارهما قصصاً. فوجدنا عبداً من عبادنا أتتني رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علماً. قال له موسى هل أتبعك على أن تعلمني مما علمت رشداً قال إنك لن تستطيع معي صبراً وكيف تصبر على ما لم تحط به خبراً. قال ستجدني إن شاء الله صابراً ولا أعصي لك أمراً. قال فإن اتبعتني فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكراً. فانطلقا حتى إذا ركبا في السفينة خرقها قال أخرقتها لتغرق أهلها لقد جئت شيئاً إمرأ. قال ألم أقل إنك لن تستطيع معي صبراً قال لا تؤاخذني بما نسيت ولا ترهقني من أمري عسراً. فانطلقا حتى إذا لقيا غلاماً فقتله قال أقتلت نفساً زكية بغير نفس لقد جئت شيئاً نكراً. قال ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبراً. قال إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني قد بلغت من لدني عذراً. فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما فوجدا فيها جداراً يريد أن ينقض فأقامه قال لو شئت لاتخذت عليه أجراً قال هذا فراق بيني وبينك سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبراً. أما السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر فأردت أن

أعيبها وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا. وأما الغلام فكان أبواه مؤمنين فخشينا أن يرهقهما طغياناً وكفراً. فأردنا أن يبدلهما ربهما خيراً منه زكاة وأقرب رحماً. وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين في المدينة وكان تحته كنز لهما وكان أبوهما صالحاً فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك وما فعلته عن أمري ذلك تأويل ما لم تسطع عليه صبراً) الكهف 60 - 82.

وقد أورد المفسرون قصة لقاء موسى بالعبد الصالح وقال أكثرهم أن هذا العبد الصالح هو الخضر عليه السلام وقال بعضهم استناداً على بعض أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم إن هذا العبد الصالح هو الخضر فعلاً قد أتاه الله العلم اللدني واعتبره بعضهم رسولاً أو نبياً. وأوردوا قصة حول أسباب هذا اللقاء. ومختصره أن موسى فخر بنفسه أمام قومه حيث سألهم عن من أعلم منه. فأتاه الوحي وأخبره أن عبداً صالحاً تجده عند مجمع البحرين هو أعلم منك. فجد موسى السير وكان معه فتاه حتى وصلا مجمع البحرين وكان فقدان السمكة (الحوت) التي أراد أكلها بسبب الجوع الدليل على مكان وجود العبد الصالح. فالتقى موسى به وجرى ما جرى بينهما حسب ما جاء به النص القرآني الكريم أما الذي يستفاد من القصة هي أخلاق النبي موسى مع هذا المعلم. فهو مخلص بلقائه أولاً ثم هو يعترف بخطئه كلما أخطأ ولم يغضب أو يتذمر حتى انتهى به الأمر إلى الفراق.

فلو كان موسى كما يزعم هؤلاء الباحثون لما تمتع بهذه الأخلاق النبوية العظيمة ولكان قد تكبر على الرجل ورفض التعلم منه. ولكن ادعى أنه أعلم الناس وظل على ادعائه، أما لماذا تنكر التوراة هذه القصة فإنهم يرون في موسى أعظم رجل مر في حياتهم من حيث علمه وفقهه فكيف يتعلم من غيره، إن هذا لا يجوز في نظرهم فلذلك أخفوا هذه الحادثة ولم يسيروا إليها لا من قريب ولا من بعيد.

لقد أساء العبرانيون إلى شخصية النبي موسى إساءات بالغة كما أساء الباحثون الذين لم يطلعوا على سماته الحقيقية في القرآن الكريم. فحقيقته أنه نبي كسائر الأنبياء ذو سمات وصفات خاصة. وليس هو قائداً عسكرياً دموياً كما صوّروه. وقد بلغ رسالة السماء ودعا إلى التوحيد بأمر من الله سبحانه وتعالى.

فأحق الناس بموسى هم المسلمون وليس سواهم وإذا كان اليهود يدعون نسبهم دينياً له فهذا هراء ولا يثبت له دليل فهم أبعد الناس عنه سلوكاً وعقيدةً. والقرآن الكريم يصرح في أكثر من موضع أن الأنبياء متساوون أمام الله من حيث هم مبلغون منذرون وقد أوذوا جميعاً من قبل أقوامهم ولم ينج موسى من إيذاء قومه حيث كذبوه وخدعوه وخانوه فعبدوا العجل في غيابه واتهموه اتهامات باطلة حتى برأه الله سبحانه وتعالى ويذكر القرآن الكريم فتى موسى ورحلته معه للقاء العبد الصالح ولم يصرح باسمه ولم يذكر هذا الفتى إلا في هذه الحادثة.

ونرى أن القرآن يصرح بكلمة الفتى إشارة إلى أنه كان يساعد النبي موسى ويخدمه ويرافقه وهو بذلك ليس رجلاً كبيراً إنما هو فتى في مقتبل العمر. ونرى أن القرآن الكريم لم يأت على سيرة هذا الفتى أثناء رحلة النبي موسى مع العبد الصالح. فالشأن شأن موسى وليس لهذا الفتى علاقة بهذه الرحلة أو أية علاقة بما دار من حوار بين موسى والعبد الصالح. وغابت شخصية الفتى غياباً كاملاً مما يدل على أنه شخصية ثانوية جداً ليس لها أي أثر في حياة موسى أو تعاليم موسى بينما نرى التوراة تفرد سफراً كاملاً بعنوان يشوع ويستغرق في التوراة أربعاً وعشرين إصحاحاً ويعتبرونه تلميذ موسى وصاحبه الأول بعد أخيه هارون.

ويقع المفسرون المسلمون الأوائل والمتأخرون في مطب الإسرائيليات حيث يورد معظمهم أن فتى موسى هو يشوع. والحقيقة ليس هناك أي دليل يثبت أن فتى موسى هو يشوع وإلا لكان صرح به القرآن الكريم. لأنه حسب التوراة شخصية هامة جداً أفردت التوراة لها سفرًا مع العلم أن هارون أخا موسى شاركه كل مهماته الرسالية وهو شخصية مهمة ولم تفرد التوراة له سفرًا أو أي جزء من سفر. على أية حال لو كان يوشع هو فتى موسى المقصود، في القرآن فإن القرآن الكريم لم يورد شيئاً عنه ولم يتحدث عن مهمة قام بها يتابع فيها مسيرة النبوة والتوحيد عند موسى.

أما سفر يشوع كما ورد في التوراة فهو سفر يركز على تصوير قائد عسكري دموي يقود بني إسرائيل لفتح أرضٍ وغزوها وذبح أهلها وحيواناتها. على أي حال سنعود إلى ما قالته التوراة عن غزو يوشع وبني إسرائيل أرض كنعان ومدى صحة أو كذب ما قالته حول هذا الغزو الجماعي.

بعض ما اتفق القرآن والتوراة عليه:

وردت في القرآن الكريم قصة رجل من قوم موسى يدعى قارون كان مشهوراً بغناه أنكر نعمة الله عليه وطغى طغيان الظالمين المستكبرين فحسب الله به الأرض.

ويرد في التوراة في سفر العدد في الإصحاح السادس عشر من الآية الأولى حتى الآية 35.

وقد ورد اسم ذاك الرجل بـ قورح.

يقول الله تعالى: (إن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم وأتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوة إذ قال له قومه لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين 76 وابتغ فيما أتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا

وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد في الأرض إن الله لا يحب المفسدين
77 قال إنما أوتيته على علم عندي أو لم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من
القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعاً ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون 78
فخرج على قومه في زينته قال الذين يريدون الحياة الدنيا يا ليت لنا مثل ما
أوتي قارون إنه لذو حظ عظيم 79 وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير
لمن آمن وعمل صالحاً ولا يلقاها إلا الصابرون 80 فحسفنا به وبداره الأرض فما
كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين 81 وأصبح الذين
تمنوا مكانه بالأمس يقولون ويكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر لولا
أن من الله علينا لخسف بنا ويكأنه لا يفلح الكافرون 82 تلك الدار الآخرة
نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين (83) سورة
القصص.

وجاء في سفر العدد من التوراة: (فلما فرغ من التكلم بكل هذا الكلام
انشقت الأرض التي تحتهم وفتحت الأرض فاها وابتلعتهم وبيوتهم وكل من
كان لقورح مع كل الأموال. فنزلوا هم وكل ما كان لهم أحياء إلى الهاوية
وانطبقت عليهم الأرض فبادوا من بين الجماعة).

والاختلاف بين الحادثتين في الغاية والسبب ففي التوراة يخرج قورح
(قارون) على موسى ومعه عدد من الأتباع وكادوا يشعلون فتنة في قوم موسى
وبسبب تذرهم خسف الله بهم الأرض. بينما القرآن الكريم يركز على استكبار
قارون وغناه حيث كفر بالله وظن أن ماله سيخلد ويملك به الدنيا فحسفت به
الأرض بسبب استكباره. على أي حال فالقرآن والتوراة يتفقان في صحة القصة
والشخصية أما العبرة المستفادة من قصة القرآن الكريم فهي واضحة حيث يربط
القرآن بين العمل ونتائجه ومن ثم الغاية العلمية التربوية من وراء ذلك وهذا ما
لم نجد له أثراً في التوراة.

الفصل الخامس

زمن ما بعد موسى

زمن ما بعد موسى عليه السلام

لو تصفحنا القرآن الكريم وتتبعنا مسار قصة موسى وبني إسرائيل لوجدنا أن توقفاً واضحاً يحدث بعد موت موسى على الرغم من أن القرآن الكريم لم يشر إلى موت موسى ونستطيع أن نتوقف مع القرآن الكريم عند قوله تعالى: (فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض فلا تأس على القوم الفاسقين) سورة المائدة آية 26. وإذا أخذنا بظاهر السياق القرآني الواضح نرى أن حياة موسى تتوقف ها هنا كما تتوقف حياة هارون.

وقد أشرنا أن التيه أربعين سنة جاء بعد مكوث بني إسرائيل في صحراء سيناء مدة زمنية طويلة جرت خلالها أحداث كثيرة منها نزول أكثر التعاليم الإلهية على النبي موسى عليه السلام. والأمر بالدخول إلى الأرض المقدسة يأتي بعد جميع الأحداث التي مرت بحياة هذا النبي.

والذي يستوقفنا هنا هو أن القرآن الكريم لم يتحدث عن يشوع بن نون الذي قاد بني إسرائيل حسب رأي التوراة ودخل الأرض المقدسة غازياً، بل لم يتحدث القرآن الكريم عن أي أحداث تشير إلى حصول الدخول إلى أرض فلسطين، بينما تكرر التوراة سفرًا كاملاً باسم سفر يشوع للحديث عن بدء حملة إسرائيلية يقودها يشوع تدخل أكثر من ثلاثين قرية ومدينة بحد السيف بدءاً من أريحا وحتى دان في شمال فلسطين.

والسؤال الذي يطرح نفسه هل حقاً تم غزو عبراني لأرض فلسطين؟ لماذا لم يشر القرآن الكريم إلى ذلك؟ لماذا أسهبت التوراة في الحديث عن هذا الغزو بالتفصيل.

قال بعض علماء التفسير أن الله أمر بني إسرائيل أن يدخلوا قرية ما دون ذكر اسمها وأغلب الظن أنها أريحا.

يقول تعالى: (وإذ قلنا ادخلوا هذه القرية فكلوا منها حيث شئتم رغدا وادخلوا الباب سجدا وقولوا حطة نغفر لكم خطاياكم وسنزيد المحسنين 58 فبدل الذين ظلموا قولاً غير الذي قيل لهم فأنزلنا على الذين ظلموا رجزاً من السماء بما كانوا يفسقون 59) سورة البقرة.

ويقول تعالى: (وإذ قيل لهم اسكنوا هذه القرية وكلوا منها حيث شئتم وقولوا حطة وادخلوا الباب سجدا نغفر لكم خطيئاتكم سنزيد المحسنين. فبدل الذين ظلموا منهم قولاً غير الذي قيل لهم فأرسلنا عليهم رجزاً من السماء بما كانوا يظلمون) الأعراف 161 - 162.

ولو افترضنا أن هذه القرية أريحا أو أي بلد من فلسطين وهذا مجرد افتراض فإن القرآن الكريم يخبرنا وبكل وضوح أن الله أمر بني إسرائيل أن يدخلوا هذه القرية من بابها وهذا يعني أنه أمرهم بدخولها مسلماً لأن فيها سكاناً وحياءً وأمرهم بالانحناء وهم يدخلون بابها احتراماً لنعمة الله وإشارة لأهل القرية بأن هؤلاء دخلوا قريتهم مسالمين وليسوا محاربين. وفي سورة الأعراف يأمرهم ربهم بأن يأكلوا من نبات القرية وثمرها. لأنها على ما يبدو كانت آهلة بالسكان المزارعين وبالزراعة المتنوعة.

وظاهر القرآن الكريم يخبرنا أن هذه الأوامر بدلت. فشنوا حربهم الدموية على القرية وأهلها الذين كان بابهم مفتوحاً للغرباء الذين يريدون العيش بأمان وسلام في أرضهم.

وإيراد الحادثة في موقعين من مواقع القرآن الكريم تأكيد على أن بني إسرائيل بدلوا قول الله ظلماً وعدواناً وادعوا أن الرب - كما جاء في التوراة - أمرهم بإبادة أهل البلاد الأصليين.

ولو ناقشنا سفر يوشع لوجدنا حقيقة هذا التبديل في قول الله.

فيوشع يستخدم جاسوسين يتفقان مع الزانية راحاب وهي من أهل أريحا أن تفتح لهم باب المدينة. ثم بعد دخولهم الدموي يأمرهم الرب أن يقتلوا كل السكان وكل الحيوانات حتى البقر والحمير، وقال لهم يوشع إن الرب حرم عليكم أكل لحوم هذه الحيوانات فأين هذا من قوله تعالى (وكلوا منها حيث شئتم).

وفي جميع الأحوال فإن قول الله سبحانه إن كان ذلك في سورة البقرة أو في سورة الأعراف لا يشير إلى وعد إلهي بتملك أرض ما وليست هناك أية إشارة لوعد إلهي يقطع له بني إسرائيل بالتوسع واستعمار أرض الميعاد التي هي فلسطين هناك أمر إلهي بالدخول إلى قرية ما بكل تذلل واحترام لأهل تلك القرية دون غدر أو سفك دم أو استغلال لطيبة السكان الأصليين وغدرهم واحتلال أرضهم.

إن تأكيد القرآن الكريم على أن هؤلاء بدلوا قول الله من أمر بالدخول إلى القرية المذكورة بسلام وذل إلى أمر بالغزو والقتل هو أكبر دليل على نفي ما سمي بالوعد الإلهي بتملك الأرض واستعمارها.

وبعد ذلك كله نرى أن التوراة تُدخل سفر يشوع إدخالاً مقحماً بين أسفار موسى فسفر التكوين ثم سفر الخروج ثم سفر التثنية فالعدد فاللاويين هي أسفار موسى كما تقول بعض المذاهب اليهودية. إننا نلاحظ سفر يشوع الدموي يدخل بعد سفر التثنية في ترتيب أسفار التوراة ويرى المرء أنه يختلف تماماً من حيث مضمونه عن الأسفار السابقة. كما يلاحظ المرء انتقال التوراة من عهد إلى عهد.

عهد موسى وتعاليمه ومدى ما لاقاه من عذاب على أيدي قومه إلى عهد قائدٍ عسكري دموي وشعب متجبر متعطش للدماء والاحتلال.

وهنا لا بد من الإشارة إلى أن النبي موسى بريء مما بدله قومه من أوامر الله وتعاليمه فما قام به قومه مخالف تماماً لمهمة الدين التوحيدى الداعي إلى العدل والمساواة وعدم الاعتداء.

وإذا عدنا إلى سفر يشوع لوجدنا حقيقة المخالفة الإسرائيلية لقول الرب.

تقول التوراة: (في ذلك اليوم فقط داروا دائرة المدينة سبع مرات وكان في المرة السابعة عندما ضرب الكهنة بالأبواق أن يشوع قال للشعب اهتفوا لأن الرب قد أعطاكم المدينة. فتكون المدينة وكل ما فيها محرماً للرب).

وتقول: (فهتف الشعب وضربوا بالأبواق وكان حين سمع الشعب صوت البوق أن الشعب هتف هتافاً فسقط السور في مكانه وصعد الشعب إلى المدينة كل رجل مع وجهه وأخذوا المدينة. وحرّموا كل ما في المدينة من رجل وامرأة من طفل وشيخ حتى البقر والغنم والحمير بحد السيف) الإصحاح السادس سفر يشوع.

إذاً نحن نرى أن جيشاً ما يدور حول قرية صغيرة سبع مرات في يوم واحد ثم ينقض عليها فيأخذها ويقتل كل ما فيها من بشر وحيوان.

ولننظر مرة أخرى إلى ما تقوله التوراة في السفر نفسه في الإصحاح السابع.

(فقال الرب ليشوع قد أخطأ إسرائيل بل تعدوا عهدي الذي أمرتهم به بل أخذوا من الحرام بل سرقوا بل أنكروا بل وضعوا في أمتعتهم).

أليس هذا القول من كاتب التوراة يشير إلى أن بني إسرائيل نقضوا عهد الله وبدلوا ما أمرهم به؟ فبدل أن يدخلوا القرية مسالين خاضعين دخلوها محاربين غادرين.

كل ذلك مع الأخذ بعين الاعتبار أن القرآن لم يصرح باسم القرية ولم يصرح بمن أمر أهو يشوع أم غيره؟ إنما الواضح أن هذه الحادثة جرت بعد موسى لأن القرآن الكريم لم يشر لموسى هنا ولا لهارون ولا إلى أي نبي أو شخصية أخرى تقود هؤلاء الرعاة من بني إسرائيل.

وأعتقد أن أهل القرية على صغرها وقلة عدد سكانها لو كانوا يعلمون أن يوشع ومن معه كانوا ينوون الغدر والقتال والغزو لحاربوهم بكل ما يملكون ولتغيرت صورة الأحداث حتى تلك التي أوردتها التوراة.

على أية حال لن نأخذ بعين الاعتبار ما أوردته التوراة عن المعارك المتعاقبة التي خاضها بنو إسرائيل ضد المدن والقرى الفلسطينية باعتبار أن القرآن لم يتعرض لها.

ومجال المقارنة هنا ليس له مبرر طالما ورد في التوراة ولم يرد في القرآن الكريم.

لكن الذي يمكن الاستفادة منه أن بني إسرائيل دخلوا إحدى القرى بالغدر وقتلنا إنه من الممكن أن تكون هذه القرية من قرى فلسطين. وإذا كان هذا الافتراض يحمل في ذاته شيئا نسبيا من الحقيقة فإنه من المفترض أيضا أن نقول إن تسرب بني إسرائيل إلى أرض كنعان قد بدأ مع هذه الحادثة. والتسرب قد يكون فرديا وقد يكون جماعيا. ومع مرور عشرات السنين أمكن لهؤلاء التجمع وإيجاد شكل من أشكال الاستقرار النسبي والتوسع في الأراضي وإقامة حكمهم عليها ولو لفترة وجيزة.

يشوع والنبوة:

يقع بعض المفسرين المسلمين في إشكال يتعلق بيشوع وهذا الاشكال يرتبط بنبوة يوشع أو عدمها.

لقد ذكر القرآن الكريم في سورة الكهف فتى موسى وقد تقدم البحث في ذلك. فالقرآن كما قلنا لم يشر لا من قريب ولا من بعيد إلى إسم يشوع أو إلى نبوة فتى موسى. أما التوراة فإنها كما قلنا أفردت ليشوع سفرًا كاملاً وتحديثت عنه بشكل مقتضب في ثنايا الأسفار الأخرى.

ففي الإصحاح الرابع والثلاثين من سفر التثنية يرد قول التوراة: (ويشوع بن نون كان قد امتلاً روح حكمة إذ وضع موسى عليه يديه فسمع له بنو إسرائيل وعملوا كما أوصى الرب موسى).

وجاء في الإصحاح الأول من سفر يشوع: (وكان بعد موت موسى عبد الرب أن الرب كلم يشوع بن نون خادم موسى).

وخلال سفر يشوع يظل الرب يكلم يشوع خاصة في شؤون الغزو والحرب. وقد ورد في كتاب قصص الأنبياء لابن كثير قوله: (يوشع عليه السلام هو الخليل يوشع بن نون بن أفرايم بن يوسف بن يعقوب بن إسحق بن إبراهيم عليهم السلام. وهو متفق على نبوته عند أهل الكتاب).

وحقيقة الأمر أن يشوع لم يكن نبياً ولو كان نبياً لذكره القرآن الكريم. غير أن هناك حديثاً نبوياً صحيحاً أشار إلى يشوع بالاسم لكن لم يصرح بأنه نبي وقد ورد في مسند أحمد.

وكونه نبياً أو غير نبي يعود إلى علم الله سبحانه وتعالى.

ثم إن الأعمال التي قام بها حسب نص التوراة وهي جرائم متلاحقة تتنافى مع طبيعة النبوة وإذا كان يشوع فتى موسى كما ورد في سورة الكهف فإن ذلك لا يعني أنه نبي، ولا يعني أن لا يقوم بتلك الجرائم التي قام بها. ففي حياة موسى كان يخدمه ويرافقه وبعد وفاة موسى قد ينقلب الشخص من حال إلى حال ويصبح شريراً. وطالما أنه ليس نبياً فهو غير معصوم وقابل للخطأ.

وقد أجمع دارسو التوراة والمؤرخون على أن يشوع قائد عسكري خشن الطباع قاد بني إسرائيل للذبح والغزو والتقتيل. مستندين في ذلك على ما روته التوراة المزورة.

ثم هناك ملاحظة جديرة بالاهتمام وهي أن يوشع حسب النسب التوراتي ابن نون بن إفرام وإفرام هو ابن يوسف وأمه هي مصرية وهي بنت الكاهن المصري فوطي فارع. وعلى هذا الأساس لا يدخل في صلب اليهودية التي يقول حاخامات اليهود في تعريف اليهودي أنه من كانت أمه يهودية.

وقد خصص التوراتيون أبناء لاوي بالنبوة والرئاسة ومنهم موسى عليه السلام. أما يشوع فهو ليس من سبط لاوي إنما من سبط يوسف. ولم تخصصهم التوراة بعد وفاة يوسف بالنبوة أو الرئاسة.

ويذكر العالم سميث في كتابه الله والإنسان في إسرائيل الأولى. أن الذين عاصروا موسى من بني إسرائيل قد هلكوا جميعاً في الصحراء ولم يدخل منهم فلسطين إلا اثنان كان يوشع واحداً منهما. أما باقي الجيش الذي اقتحم فلسطين فكان من الأبناء الذين ولدوا في فترة التيه⁽¹⁾.

أما ول ديورانت فيصف أحداث هذه الفترة أدق وصف فيقول:

كانت هزيمة العبرانيين للكنعانيين مثلاً واضحاً لانقضاء جموع جيعا على جماعة مستقرين آمنين. وقد قتل العبرانيون من الكنعانيين أكثر من استطاعوا قتلهم منهم وسبوا من بقي من نسائهم وجرت دماء القتلى أنهاراً وكان هذا القتل - كما تقول نصوص الكتاب المقدس فريضة الشريعة التي أمر بها الرب موسى وزكاة للرب. ولما استولوا على إحدى المدن قتلوا من أهلها اثني عشر ألفاً وأحرقوا وصلبوا حاكمها. ولسنا نعرف في تاريخ الحروب مثل هذا

(1) God and man in Early Israel. P52

الاسراف في القتل والاستمتاع به وقد كان موسى من رجال السياسة المتصفين بالصبر والأناة أما يوشع فلم يكن إلا جنديا فظا وقد حكم موسى حكما سليما لم تسفك فيه دماء أما يوشع فقد أقام حكمه على قانون الطبيعة الذي يقول إن أكثر الناس قتلا هو الذي يبقى حيا⁽¹⁾.

بين عصر وعصر... التيه العقيدي

بعد أن تسرب بنو إسرائيل إلى فلسطين وتجمعوا جماعات جماعات في بعض المناطق الداخلية والجبال بدت على أجيالهم تغيرات كبيرة شملت حياتهم البدوية والنفسية والعقيدية. وحسب النص التوراتي فإنهم وجدوا في فلسطين شعبا متحضرا مستقرا يعرف فنون الزراعة والصناعة. وكان لا بد من التأثر بهذا الشعب وبمعتقداته وعقائده. ومن الطبيعي أن يؤثر الشعب المتحضر بغيره من الشعوب غير المتحضرة. وهذا ما كان شأنهم مع بني إسرائيل، وقد ظهر ذلك جليا في سفر القضاة وسفر صموئيل الأول وسفر صموئيل الثاني.

والمدقق في هذه الأسفار يرى أن بني إسرائيل راحوا يتغيرون تغييرا كبيرا حتى أن بعضهم ذابت شخصيته تماما في البيئة الجديدة.

ولما كان القرآن الكريم يتناول أخبار الأمم السابقة ومدى ارتباطاتها بالأنبياء والعقائد فإنه لم يتحدث عن بني إسرائيل في هذه الفترة ضمن سياق الصراع بين الأنبياء والمشركين. فنلاحظ أن موت موسى عليه السلام يعني انتهاء عصر كامل وبدء عصر جديد. العصر الموسوي عصر النبي موسى وأخيه هارون وهو عصر الصراع بين موسى وقوى الشر الخارجية والداخلية. وهو بكل الأشكال صراع ليس لأجل الأرض إنما هو من أجل العقيدة والتوحيد.

(1) قصة الحضارة ج2 ص 226 - 322.

بينما يأتي العصر الثاني بعد موسى خاليا من الأنبياء وهذا يعني بالنسبة لأي باحث الشيء الكثير.

فموسى وأخوه هارون ماتا في أرض قفر أو في متاه صحراء الأردن. وموسى أنهى مهمته العقيدية بأن بلغ رسالته لبني إسرائيل بما تحويه من توحيد وتشريع وأنهى فصل حياته بأن أماته الله في نفس اللحظة التي امتحن بها قومه بدخول الأرض المقدسة ورفضهم طلبه ثم تحريم الله الأرض عليهم والقضاء الرباني بأن يتيهوا في الأرض أربعين عاما.

والحكم الإلهي لا راد له. فماذا يمكن أن يفعل أناس تائهون تيهها عقليا ونفسيا وعقيديا؟

وأعتقد أن الزمن الذي جاء على بني إسرائيل بعد موسى هو زمن البحث الإسرائيلي عن عقيدة جديدة وعن عادات وتقاليد أخرى غير تلك التي تعودوها زمن موسى وأخيه هارون. لقد أنهوا العلاقة بينهم وبين موسى برفضهم أوامره وأوامر الرب. وهذه بداية الانقلاب الكبير في عقيدتهم التوراتية.

وقد استند بعض الباحثين أثناء الحديث عن فترة ما بعد موسى ويشوع على ما جاء في أسفار التوراة التي أشرنا إليها وهي كما قلنا القضاة وصموئيل الأول والثاني، ولا يختلف المفسرون المسلمون الأوائل عن الباحثين الجدد في هذا الجانب.

فإن ابن كثير تحدث في كتابه قصص الأنبياء عن من يسمون أنبياء بني إسرائيل واستند في حديثه على ابن جرير الطبري الذي قال: لا خلاف بين أهل العلم بأخبار الماضين وأمور السالفين من أمتنا وغيرهم أن القائم بأمور بني إسرائيل بعد يوشع كالب بن يوفنا ثم من بعده كان القائم بأمورهم حزقييل بن يوزي فلما قبض نسي بنو إسرائيل عهد الله إليهم وعظمت فيهم الأحداث

وعبدوا الأوثان⁽¹⁾.

وقال على لسان ابن جرير الطبري: ثم خرج أمر بني إسرائيل وعظمت منهم الخطوب والخطايا وقتلوا من قتلوا من الأنبياء وسلط الله عليهم بدل الأنبياء ملوكاً جبارين يظلمونهم ويسفكون دماءهم وسلط الله عليهم الأعداء من غيرهم أيضاً⁽²⁾.

ويقول عبد الوهاب النجار في كتابه قصص الأنبياء: لما دخل بنو إسرائيل بلاد فلسطين مع يوشع بن نون وقسم لهم الأرضين قام يوشع بأمرهم إلى وفاته وأقاموا على ذلك يقيم لهم أمرهم قضاة منهم وليس فيهم ملك ستا وخمسين وثلاثمائة سنة بعد موسى عليه السلام. وكان بنو إسرائيل في تلك الأثناء عرضة لغزوات الأمم القريبة منهم كالعمالقة من العرب والمديانيين والفلسطينيين والآراميين وغيرهم وكان الأنبياء في ذلك العهد مرشدين لأولئك القضاة والحكام من اليهود وواسطة بينهم وبين الله تعالى وفي بعض الأحيان يكون النبي قاضياً⁽³⁾.

ويقول أحمد الشلبي في كتابه مقارنة الأديان - اليهودية - كان رؤساء بني إسرائيل في الفترة التي تبدأ من يشوع إلى صموئيل يسمون القضاة. ويتحدث هذا السفر عن بعض القضاة العظام مثل عثنائيل وأهوز وباراق ودبورة وجدعون ويفتاح وشمشون. ويتحدث هذا السفر كذلك عن شغب بني إسرائيل على يهوه وعبادتهم آلهة أخرى من الحجارة والأشجار ويبين كيف انتقم الله منهم فسلط عليهم أعداءهم وأنزل كثيراً من النوائب بهم⁽⁴⁾.

(1) ابن كثير قصص الأنبياء صفحة 419.

(2) ابن كثير قصص الأنبياء صفحة 420.

(3) عبد الوهاب النجار قصص الأنبياء صفحة 327.

(4) أحمد الشلبي مقارنة الأديان اليهودية ص 236.

ويقول الدكتور أحمد سوسة: يستدل من عرض التوراة لوضع الموسويين في كنعان بعد موت يشوع على أنهم أصبحوا مهددين بالفناء وقد اضطروا أن يخلوا بعض المدن التي استولوا عليها. فضاقت بهم الأمر جداً حتى أقام لهم الرب قضاة ليخلصوهم من يد أعدائهم ولذلك سمي هذا العهد بعصر القضاة الذي استمر حسب تقدير المؤرخين حوالي قرن كامل بين سنة 1125 - 1025 ق.م. وكان عهد القضاة عهداً مضطرباً تخللته عدة نكسات كادت تهدد الموسويين في فلسطين بالفناء إذ تعترف التوراة أن الكنعانيين والفلسطينيين أصبحوا من القوة بحيث تمكنوا من إخضاع الإسرائيليين الموسويين تحت حكمهم في فترات متواصلة قبيل وخلال عهد القضاة وأول من أخضعهم كوشان وشعتايم ملك آرام النهرين ثماني سنين ثم هجم عليهم بنو عمون والعمالقة فضربوهم واستولوا على مدينة أريحا ثم ضايقهم يابيين ملك كنعان في حاصور بشدة عشرين سنة واستعبدوهم بنو عمون والفلسطينيون ثماني عشرة سنة وفي أواخر عهد القضاة أوقع الفلسطينيون بالموسويين هزائم شديدة حتى أنهم استولوا على تابوت العهد وخضع الموسويون إلى حكمهم أربعين سنة⁽¹⁾.

أما العالم الفرنسي موريس بوكاي فيتحدث عن كتب تاريخية في التوراة ويقصد بها بعد أن يحددها. سفر القضاة. وسفر صموئيل وسفر الملوك فيقول عنها:

«تتناول هذه الكتب تاريخ الشعب اليهودي منذ تسربه إلى أرض الميعاد ويحدد على أحسن تقدير معقول بنهاية القرن الثالث عشر ق.م حتى النبي البابلي في القرن السادس ق.م وتؤكد نبرة هذه الكتب على ما يمكن تسميته

(العرب واليهود في التاريخ. د. أحمد سوسة صفحة 292 - 293).

بالواقع القومي وتقدمه الكتب باعتباره تنفيذاً لكلام الله ، والرواية لا تحفل بالدقة التاريخية⁽¹⁾ .

ويقول (إن محور سفر القضاة هو الدفاع عن - الشعب المختار - ضد الذين كانوا يحيقون به وإغاثة الرب له ، ولقد تعدل الكتاب مرات عدة وذلك ما يشير إليه بموضوعية كبيرة الأب لوفيفر في تمهيده لتوراة - كرامبون - وتشهد بذلك المقدمات والحواشي المتداخلة)⁽²⁾ .

(أما كتاب صموئيل وكتب الملوك فهي أساساً مجموعات من السير تخص صموئيل وطالوت وسليمان ، وقيمتها التاريخية مشكوك فيها)⁽³⁾ .

ويقول إدموند جاكوب (إن ما يرويه العهد القديم عن موسى والآباء الأولين لا يتفق إلا بشكل تقريبي مع المجرى التاريخي للأحداث ، ولكن الرواة كانوا يعرفون حتى في هذه المرحلة من النقل الشفهي كيف يصفون الاناقة والخيال حتى يربطوا بين أحداث شديدة التنوع . وقد نجحوا في تقديم هذه الأحداث المختلفة في شكل حكاية لما حدث في أصل العالم والانسان ، ويستطيع العقل النقدي أن يراها في نهاية الأمر معقولة بشكل كافٍ)⁽⁴⁾ .

وقد جاء في كتاب أنبياء التوراة والنبوءات التوراتية وهو من تأليف الباحث ريجسكي وترجمة الدكتور اليهودي آحو يوسف (وفقاً للنصوص التوراتية كتاب (القضاة وكتب الملوك) كان الكثير من كل أصناف الـ (روئي) هؤلاء معتكفين في فلسطين . الأنبياء والبصارين والمطبيين وكان من بينهم ليس فقط أنبياء يهوه بل وأنبياء الآلهة الأخرى لا بل من المحتمل أن عدد أنبياء

(1) موريس بوكاي ، القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم ص 33 - 34 - 21 .

(2) موريس بوكاي ، القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم ص 33 - 34 - 21 .

(3) موريس بوكاي ، القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم ص 33 - 34 - 21 .

(4) موريس بوكاي ، القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم ص 33 - 34 - 21 .

بعل كان أكثر من عدد أنبياء يهوه لكن مؤلفي التوراة حين يصفون معجزات ومآثر هؤلاء يسمون بالاسم قلة قليلة منهم وإذا سموا فإنهم يسمون أنبياء يهوه فقط والسبب مفهوم لقد أبدى دارس التوراة الأمريكي مورتون سميث ملاحظة صائبة بقوله ليس العهد القديم أكثر من مكتبة طقوسية كانت تهدف إلى تمجيد رجال الديانة المشهورين من كهنة وأنبياء وملوك كانوا يرعون عبادة يهوه⁽¹⁾.

ويقول: (لا شك أن النبوة دبورة كانت شخصية فريدة ولكن الجمهور من الأنبياء الذين كانوا يجولون في فلسطين فرادى أو جماعات ويتصرفون كأنهم مخبولون كان يستدعي على الأرجح - شعور الازدراء - بل السخرية من جانب الناس فالبعض فقط من الأنبياء كان يعلو فوق المستوى العام)⁽²⁾.

هذا ما قاله بعض الباحثين عن الفترة الزمنية ما بين موت موسى وظهور النبي داود هذه الفترة لا تقل عن خمسمائة عام. ولقد لاحظنا أن هذه الفترة أفصحت عنها عدة أسفار في التوراة كسفر القضاة وصموئيل الأول والثاني والملوك الأول.

هنا نعود إلى مسألة هامة تطرح السؤال التالي:

ما دامت هذه الفترة الزمنية الطويلة ترجمتها عدة أسفار فلماذا لم يشر القرآن الكريم إليها وإلى أحداثها؟

وللجواب نرى أن آيات القرآن الكريم عندما تحدثت عن بني إسرائيل جاء الحديث ضمن سياق يتحدث عن الأنبياء. فالأحداث الهامة في حياة بني إسرائيل ارتبطت بالنبي موسى وأخيه هارون ارتباطاً وثيقاً.

(1) م. ريجسكي. ترجمة أحمد يوسف. أنبياء التوراة والنبوءات التوراتية ص35.

(2) م. ريجسكي. ترجمة أحمد يوسف. أنبياء التوراة والنبوءات التوراتية ص35.

والفترة الزمنية الفاصلة بين موت موسى وظهور داود لم يوجد فيها نبيٌ يستحق الذكر. وهذا ما يؤكد صحة القول إن هذه هي فعلاً فترة التيه العقيدي والفكري لبني إسرائيل بل هي فترة الضياع الكاملة التي هي تنفيذ لحكم الله. إنها تيه في الأرض مادياً وتيه للروح والعقل والعقيدة. وحين ندرس عقائد بني إسرائيل في هذه الفترة سنرى صحة ما نقول وتشهد على ذلك التوراة نفسها والآثار التي اكتشفت ولم تدل على أي أثر لبني إسرائيل على الإطلاق في المنطقة، ولو كان هناك ثبات في المكان واستقرار لبني إسرائيل لتركوا شيئاً من الآثار المادية التي تدل على ذلك.

هذا من جانب ومن جانب آخر تحدث القرآن وبشكل مفصل عن عقائد بني إسرائيل لا سيما إيمانهم بالوثنية البعلية حيث أخذوها عن الكنعانيين وكذلك تحدث عن أخلاقهم وقتلهم لكثير من الأنبياء والمصلحين والرسل. وإفسادهم في الأرض ونشرهم كافة السلوكيات السيئة بين شعوب المنطقة.

الفصل السادس

من صموئيل إلى داود وسليمان

داود، حقيقته - عقيدته - ملكه

من صموئيل إلى داود وسليمان، داود حقيقته — عقيدته — ملكه

شأن شخصية داود لا يقل عن شأن موسى إن كان ذلك في القرآن الكريم أو كتاب التوراة وهذا الشأن يبرز من خلال التركيز على شخصيته من جانب ومدى التناقض بين ما ورد في القرآن الكريم وما ورد في التوراة من جانب آخر ومن جانب ثالث رأي الباحثين وتناقضات تصوراتهم حول شخصيته وعقيدته وملكه.

ولا شك أن القرآن الكريم والتوراة يتفقان على أن نبيا من أنبياء بني إسرائيل سبق بقليل ظهور داود على مسرح الأحداث وارتبط به حيث اعتبر هذا النبي ممهدا لبروز النبي داود.

تقول التوراة في سفر صموئيل الأول وتحديدا في آخر الإصحاح الثالث:

وكبر صموئيل وكان الرب معه ولم يدع شيئا من جميع كلامه يسقط إلى الأرض، وعرف جميع إسرائيل من دان إلى بئر سبع أنه قد أؤتمن صموئيل نبيا للرب.

وجاء في السفر نفسه الإصحاح الرابع: (فأجاب المخبر وقال هرب إسرائيل أمام الفلسطينيين وكانت أيضا كسرة عظيمة في الشعب ومات أيضا إبنك حفني وفيخاس وأخذ تابوت الله).

وجاء في الإصحاح الخامس: (فأخذ الفلسطينيين تابوت الله وأتوا به من حجر المعونة إلى أشدود. وأخذ الفلسطينيين تابوت الله وأدخلوه إلى بيت داجون وأقاموه بقرب داجون)، وجاء في الإصحاح الثامن: (فالآن اجعل لنا ملكاً يقضي لنا كسائر الشعوب).

أما في الإصحاح الحادي عشر فتقول التوراة: (وقال صموئيل للشعب هلموا نذهب إلى الجلجال ونجدد هناك المملكة فذهب كل الشعب إلى الجلجال وملكوا هناك شاول أمام الرب).

هذا ما جاء في سفر صموئيل عن قصة بروز شاول وصموئيل وللقصة بقية طويلة سنعود إليها.

أما في القرآن الكريم فيقول الله تعالى: (ألم تر إلى الملائكة من بني إسرائيل من بعد موسى إذ قالوا لنبي لهم ابعث لنا ملكاً نقاتل في سبيل الله. قال هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا. قالوا وما لنا ألا نقاتل في سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا. فلما كتب عليهم القتال تولوا إلا قليلاً منهم والله عليم بالظالمين، وقال لهم نبيهم إن الله قد بعث لكم طالوت ملكاً قالوا أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال. قال إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم. والله يؤتي ملكه من يشاء والله واسع عليم. وقال لهم نبيهم إن آية ملكه أن يأتاكم التابوت فيه سكينة من ربكم وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون تحمله الملائكة إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين فلما فصل طالوت بالجنود قال إن الله مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس مني ومن لم يطعمه فإنه مني إلا من اغترف غرفة بيده فشرّبوا منه إلا قليلاً منهم فلما جاوزه هو والذين آمنوا معه قالوا لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده. قال الذين يظنون أنهم ملاقوا الله كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين ولما برزوا لجالوت وجنوده قالوا ربنا أفرغ علينا

صبراً وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين) سورة البقرة الآيات من 246 - 250.

بداية الأمر نرى أن القرآن الكريم والتوراة يتفقان على أن هذا الحدث وقع بعد موسى عليه السلام ولم يحدد القرآن الكريم الفترة الزمنية التي وقعت فيها الحادثة إنما أشار إلى أنها بعد موسى عليه السلام.

وأشار القرآن الكريم إلى نبي من أنبياء إسرائيل دون أن يشير ما هو اسمه وقد ذكرت التوراة أيضاً أن صموئيل أوّتم نبياً للرب.

وأشار القرآن الكريم إلى التابوت كما أشارت له التوراة.

ويتفق القرآن الكريم والتوراة على أن النبي رشح لهم ملكاً لكنهم رفضوه مبدئياً لأنه لم يكن لا من بيت مال ولا من بيت النبوة لكن النبي صرح لهم أن الله اختار هذا الملك ليقودهم ضد أعدائهم ودليل ذلك أنه يأتي بتابوت الرب.

ثم يتفق القرآن الكريم والتوراة بالحديث عن الصراع الذي دار بين طالوت وجنوده من جهة وبين جالوت وجنوده من جهة أخرى.

يرد اسم النبي في التوراة صموئيل واسم الملك شاول بينما يرد اسم الملك طالوت. ويرد اسم جالوت في القرآن بينما يرد جوليات في التوراة.

ركز القرآن الكريم في قوله إذ قالوا لنبي لهم. فهذا التعبير لم يأت عبثاً. فالنبي هناك نكرة لم يعرف من هو. ولو كان نبياً مرسلًا لذكر القرآن اسمه وقد قال تعالى نبي لهم بمعنى أن النبي خاص بهم وليس هو مكلف برسالة محددة. وهذا يعني أيضاً أن لهم أنبياء كثيرين ومرتبتهم لا تتعدى كونهم رجالاً مصلحين مستقيمين لكنهم خاصون لبني إسرائيل.

على أية حال فإن القرآن الكريم يبين دور هذا النبي في حياتهم بعد أن ووجهوا بقوى كثيرة وأخرجوا عن المناطق التي استقروا فيها بعد طرد أهلها منها.

ولعل الآية القرآنية توضح في هذا الظرف المرتبط ببني إسرائيل أن بعضا منهم كانوا يدركون الإيمان الحقيقي بينما الأكثرية منهم نقضوا عهد الله وعبدوا الأوثان وقتلوا الأبرياء من الناس - تقول الآية ابعث لنا ملكا نقاتل في سبيل الله ويظهر من خلال أقوالهم أنهم أخرجوا من المناطق التي استقروا فيها وأخذت الأقوام المجاورة تأسر أولادهم وتستعبدهم.

وعندما أصبح طالوت ملكا عليهم جمعهم للقتال وكان أول امتحان لهم طلبه منهم ألا يشربوا من ماء النهر حتى يرتووا. لكنهم شربوا وارتووا فارتد معظمهم عن القتال. ولما اخترق طالوت النهر وواجه جالوت وقومه خاف البقية الذين معه وقالوا لا طاقة لنا اليوم بجالوت. فبقي القليل القليل وهم فئة قليلة ممن آمنوا.

وعندما نقرأ قوله تعالى: (ولما برزوا الجالوت وجنوده قالوا ربنا أفرغ علينا صبرا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين). ندرك أن الذين ظلوا مع طالوت هم القلة القليلة من بني إسرائيل وهذه القلة كانت مؤمنة بخلاف الأكثرية التي تراجعت ووصفها الله بالظالمين.

هنا لا بد من التوقف طويلا عند عدة قضايا:

1 - ما اسم النهر الذي ذكرته الآية الكريمة؟

2 - من هو جالوت ومن هم جنوده وأين وقعت المعارك بينه وبين بني

إسرائيل؟

إذا قارنا بين ما جاء في التوراة وبين ما جاء في القرآن نرى أن التوراة لا تأتي على ذكر النهر وتستبدله بأسطورة أو بحكاية غريبة عن المنطق. وهي قول التوراة إن الله غطى الزرع في الحقول بعسل وطلب شاؤل أن لا أحد يذوقه. وتستطرد في القول فنرى أن ابن شاؤل نفسه أكل من ذلك العسل وهدده أبوه

بالموت من قبل ربه لأنه خالف أمره لكن الشعب يرفض موت الابن فيقبل الرب هذا الرفض فيعفيه من الموت.

جاء في صموئيل الأول الإصحاح الرابع عشر: (لأن شاؤل حلف الشعب قائلاً ملعون الرجل الذي يأكل خبزاً إلى المساء حتى أنتقم من أعدائي.. وجاء كل الشعب إلى الوعر وكان عسل على وجه الحقل. أما يوناثان - ابن شاؤل - فمد طرف النشابة التي بيده وغمد في قطر العسل وردَّ يده إلى فيه فاستنارت عيناه... فافتدى الشعب يوناثان فلم يموت).

أما النهر الذي لم تتحدث عنه التوراة فإنه يشكل مفصلاً مهماً في الجغرافيا البشرية في ذلك الوقت والواقع أن النهر هو نهر الأردن وقد أكد ذلك الرواة الإسلاميون والمفسرون. وهذا يعني أن بني إسرائيل كانوا متواجدين شرق النهر أي خارج حدود فلسطين وأن جالوت وجنوده كانوا داخل فلسطين وببدو أن الأقوام التي وجدت آنذاك داخل فلسطين طردت بني إسرائيل من الأراضي التي كانوا قد مكثوا فيها وتشير التوراة في سفر القضاة وسفر صموئيل مراراً وتكراراً إلى معارك حدثت وكان بنو إسرائيل خاسرين فيها. ولكن التوراة لا تشير إلى إخراج بني إسرائيل إلى خارج حدود فلسطين وتحديداً شرق النهر.

وقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس: (فلما فصل طالوت بالجنود غازياً إلى جالوت قال طالوت لبني إسرائيل إن الله مبتليكم بنهر) بين فلسطين والأردن⁽¹⁾.

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس: (فلما انتهوا إلى النهر - وهو نهر الأردن...) ⁽²⁾.

(1) السيوطي: الدر المنثور في التفسير المأثور ص 564 المجلد الأول. تفسير سورة البقرة.

(2) السيوطي: الدر المنثور في التفسير المأثور ص 564 المجلد الأول. تفسير سورة البقرة.

إن هذا يؤكد عدم مكوث بني إسرائيل بشكل حضاري مستقر في أرض فلسطين وإذا تتبعنا حديث التوراة عن الأماكن التي تواجد فيها جالوت وجنوده وجدنا أن مدينة أسدود ومدينة جت وما حولها كانت الأرض التي تواجدوا فيها.

ومنطقة أسدود تقع على الساحل الفلسطيني في الجنوب وإلى الشرق منها توجد مدينة جت. وبين هاتين المنطقتين ونهر الأردن توجد مسافة تقدر بحوالي ستين كلم وهذا يعني أن الأشدوديين ظلوا يلاحقون بني إسرائيل حتى أخرجوهم إلى شرق الأردن أما المناطق التي ذكرتها التوراة في هذا السفر فتقع جميعها بالقرب من أسدود كمنطقة الجلجال. والمصفاة والرامة. وجبع وعزبقة وبيت لحم وجبعة وهي غير جبع.

وعندما تذكر التوراة أن بني عمون نسبة إلى عمان في الأردن - قد هاجموا بني إسرائيل واستعبدهم عددا من السنوات فإنما يدل على أن بني إسرائيل عندما دخلوا أرض شرق النهر رفضهم العمونيون وهاجموهم لطردهم من أراضيهم أيضا.

وهذا إن دل على شيء فإنه يدل على أنهم كانوا مرفوضين من قبل شعوب المنطقة كلها.

نعود إلى السؤال الثاني من هو جالوت ومن هم جنوده؟

تركز التوراة على قولها إن جالوت أحد ملوك الفلسطينيين الذين كانوا مستقرين في أسدود وغزة وعقرون وجت.

والقرآن الكريم لم يشر إلى نسبة جالوت ولم تضخم شخصيته كما فعلت التوراة إنما هو رجل عادي كان يقود جيشا وحسب قول بني إسرائيل انصرنا على القوم الكافرين فهذا يعني أن جالوت كان وثنيا وأن البقية المتبقية التي

حاربت مع طالوت كانوا موحدين مؤمنين. وتؤكد التوراة أن الصراع بين بني إسرائيل وبين الفلسطينيين دام سنوات طوال.

وقد رأى بعض الباحثين أن التشابه بين اسمي طالوت وجالوت يجب أن يلفت انتباهنا إذ قد يشكل دلالة على أن الحرب لا تقع بين قومين مختلفين من الناحية الاثنية إن جالوت ليس اسما فلسطينيا ولا لقباً فلسطينياً ولذلك قلبه كتبة التوراة إلى جليات التي تعني في اللغات الهندو أوروبية العملاق. لكن جليات لا تحمل هذه الدلالة أو ظلها في فلسطين ذلك أن الكلمة الشبيهة (جليات تعني الكذاب المغرور مدعي البطولة وهو جبان فكيف جاء هذا المفهوم للفلسطينيين ولأهل بلاد الشام بشكل عام. لنلاحظ هنا لقد نسبوا لجالوت أنه ملك جت وزعموا أن جت مدينة فلسطينية ومع ذلك أعطوا الأحياء الخاصة التي يسكنونها اسم (جت) فهل يستعير أحد اسم مدينة عدوه ليعممها على كل مواقع تواجده وكأنها كلمة السر في تعرف اليهودي على اليهودي حيثما اتجه لم تكن جت عزيزة عليه. وهل يختار أحد اسم ملك عدوه جالوت فيجعله الاسم الذي ينزل في ضيافته وحماه حيثما اتجه في العالم باعتبار رئيس الجالية في الجت (الجيتو) لو لم يكن جالوت هذا عزيزاً على قلب كل يهودي وجزءاً من كيانه الديني والسياسي⁽¹⁾.

لقد أشار المفسرون المسلمون إلى ان جالوت ينتمي إلى العمالقة أي إلى بطن من بطون الكنعانيين باعتبار أن المنطقة كانت مسكونة من قبل عدة بطون كنعانية كاليبوسيين والفلسطينيين والحثيين والعمالقة والأموريين أو العموريين.

وترى بعض الدراسات التاريخية أن آخر من هاجر إلى أرض فلسطين هم الفلسطينيون وهم من الأقوام الإيجية (أهل السواحل. وكانوا قد احتلوا بعض السواحل السورية العليا في أوائل القرن الثاني عشر ق.م ومنها هاجموا مصر في

(1) عبد الرحمن غيم. روان سر الأسرار ص 170.

عهد رعمسيس الثالث 1198 - 1166 ق.م وقد صدهم هذا الفرعون في معركة حربية بحرية نشبت بينهم حوالي 1191 ق.م فاتجهوا بعد إخفاقهم إلى الساحل الفلسطيني الجنوبي في القسم الذي يمتد من غزة جنوبا إلى أسفل يافا شمالا ويذكر أن هؤلاء الفلسطينيين قد اندمجوا بالكنعانيين والعموريين كليا بحيث لم يعد بالإمكان تمييزهم عن العناصر الكنعانية والعمورية. فيقول لودس في كتابه (إسرائيل) إن الفلسطينيين قد تكنعوا على حد قوله بسرعة في حوالي القرن الحادي عشر ق.م في خلال فترة تقل عن 150 عاما بعد استقرارهم على أرض فلسطين وكان بنو إسرائيل قد دخلوا أو تسللوا إلى بعض مناطق جنوب شرق فلسطين قادمين من الأردن. ولم يستطع يشوع أن يتحرش بهم لأنهم كانوا متفوقين بالأسلحة عليهم).

ولو أخذنا بعين الاعتبار أن الفلسطينيين قدموا إلى ساحل فلسطين الجنوبي عام 1198 فإن ذلك يعني أن هذا الزمن هو زمن التسلل الإسرائيلي الأول إلى أرض الأردن وبعض أطراف فلسطين. ولو افترضنا أن الفلسطينيين مكثوا حوالي 150 عاما وهم يندمجون شيئا فشيئا بأهل البلاد الأصليين فإننا ندرك أيضا أن الصراع بين قبائل بني إسرائيل وبين الفلسطينيين قد امتد حوالي مئة سنة على الأقل. والطبيعي أن يحدث هذا الصدام ويستمر بين طرفين يريد كل طرف السيطرة على الأرض والتوسع فيها ولما لم يكن بنو إسرائيل من القوة ليصمدوا أمام الفلسطينيين تراجعوا جغرافيا حتى أصبحوا في شرق النهر حين كان العمونيون الذين رفضوا بدورهم بقاء عنصر غريب في أرضهم فهاجموا بني إسرائيل واستعبدهم فترة من الزمن كما أشرنا سابقا.

أما أهل البلاد الأصليين من كنعانيين ويبوسيين وعموريين فقد أشارت الدراسات أنهم كانوا منقسمين انقسامات حادة. وكل طرف منهم يعيش منغلقا في مناطق محصنة كالقدس وبعض المدن في شمال فلسطين.

فالصراع الأولي الذي احتدم كان بين طرف فلسطيني خارجي وبين طرف إسرائيلي خارجي أيضا. والصراع مع الكنعانيين كان صراعا ذا شقين. الأول مع شعوب البحر والثاني مع بني إسرائيل. وقد استوعب أهل البلاد الأصليون الشعب الفلسطيني حتى دمجهم في حياتهم. وهذا هو منطق الحضارة. فالأقوى حضاريا والمستقر جغرافيا يستوعب الوافد والطارء مهما كان جنسه أو عقائده أو تراثه، فطبيعة الأرض الكنعانية وكذلك طبيعة الحياة البشرية استطاعا استيعاب هؤلاء الفلسطينيين نهائيا. وأعتقد أنه من الطبيعي أن يستوعب الكنعانيون شعوب البحر بسرعة لتقارب ما في النمط الحضاري والأسطوري والعقدي. بينما نرى عدم استيعاب لبني إسرائيل لأسباب كثيرة أهمها. المستوى الفكري والثقافي المتخلف جدا، والتقلب العقدي المستمر، والطبيعة الشخصية العدوانية وهذا الأخير أكدته التوراة كما أكدته القرآن الكريم وكذلك تؤكد الدراسات الاجتماعية والتاريخية كما تؤكد الوقائع اليومية التي نراها ونلمسها في عصرنا الحاضر، على أية حال فإننا نرى أن شخصية جوليات أو جالوت شخصية ليس لها خصائص مميزة سوى أنها شخصية رجل قاد جيشا وسقط صريعا في إحدى المعارك. وما تقوله التوراة في وصفها له ليس إلا من باب التأكيد على إدامة الصراع مع الفلسطينيين بعد أن أصبح اسم فلسطين تسمية لأرض كنعان وشعبها الكنعاني.

المهم في الأمر أن بني إسرائيل لم يستطيعوا مقاتلة جوليات والفلسطينيين والذي حاربه هم فئة قليلة تميزت بأنها موحدة مؤمنة بالله الواحد وبتعاليم الوحدانية الصحيحة كما جاءت في توراة موسى. ولو دققنا النظر في النصوص التوراتية لوجدنا أن بني إسرائيل أو غالبيتهم كانوا وثنيين حتى في أوج أزمته زمن صموئيل وشاول وهذا سفر صموئيل الأول والثاني والملوك يمتلئ بالحديث عن وثنيته المستمرة قد يقول قائل إن هذا لا ينبغي أن بني إسرائيل جميعهم قد انتصروا على الفلسطينيين وأعادوا احتلال جزء من البلاد وذلك بأمر من الرب

الذي ساهم حسب نص القرآن في انتصار داود على جالوت وإقامة ملك بني إسرائيل.

وحقيقة الأمر أن المسألة ليست كذلك ولو دققنا في آيات القرآن الكريم لأدركنا أن نصره الله لداود ولمن كان معه ليست نصره لبني إسرائيل. لقد نصر الله داود ليس لأنه من أكثرية بني إسرائيل وليس لأنه كما تقول التوراة ينتمي إلى أحد الأسباط وليس لأنه كان يهوديا كما يزعم بعضهم. إن نصره داود الإلهية هي نصره للدين الموحد ضد التعددية والوثنية و ضد بني إسرائيل أنفسهم وسنرى كيف أن الأحداث تؤكد ذلك وخاصة إذا دققنا النظر جيدا فيما قالته التوراة عن داود وفيما قاله القرآن الكريم.

لقد تحدثنا في الصفحات السابقة عن وقائع وأحداث وقضايا سبقت الحديث عن داود (ع) باعتبارها التمهيد الضروري لمعرفة الظروف التي جعلت داود عليه السلام يبرز إلى ساحة الأحداث.

ونعود في هذا البحث إلى شخصية داود وكيف تحدثت عنه التوراة وكيف تحدثت عنه القرآن الكريم. ثم نستعرض أقوال بعض الباحثين الغربيين والعرب وبعض ما قاله المفسرون وهم يتناولون تفسير الآيات القرآنية الخاصة بالحديث عن داود عليه السلام.

يبدأ ظهور داود عليه السلام في النص التوراتي في الإصحاح السادس عشر من سفر صموئيل الأول وتنقطع أخباره إلى أن تحدث معركة بين شاول وبني إسرائيل من جهة وبين الفلسطينيين من جهة أخرى فيكثر الحديث عن داود إلى أن يقتل شاول مع أولاده الثلاثة في معركة جبل جلبوع وهذا السياق يأتي مع نهاية سفر صموئيل الأول في الإصحاح الحادي والثلاثين.

وتبدأ حياة داود كزعيم منذ الإصحاح الأول في سفر صموئيل الثاني، ومع بداية سفر الملوك الأول يظهر داود وقد شاخ وكبر وبرز ابنه سليمان وفي

الإصحاح الثاني من هذا السفر يموت داود ويخلفه في الحكم سليمان، وتتحدث التوراة عن داود في أخبار الأيام الأول، ثم تخصص لداود مزامير وتشير بقولها، لإمام المغنين على ذوات الأوتار مزموور داود وتنسب إلى داود سبعين مزمورا.

جاء في الإصحاح السادس عشر من سفر صموئيل الأول: (فأجاب واحد من الغلمان وقال هو ذا قد رأيت ابنا ليسى البيتلحمي يحسن الضرب وهو جبار بأس ورجل حرب وفصيح ورجل جميل والرب معه) (فجاء داود إلى شاول ووقف أمامه فأحبه جدا وكان له حامل سلاح).

(فقال داود لشاول لا يسقط قلب أحد بسببه عبدك يذهب ويحارب هذا الفلسطيني فقال شاول لداود لا تستطيع أن تذهب إلى هذا الفلسطيني لتحاربه لأنك غلام وهو رجل حرب منذ صباه) الإصحاح السابع عشر.

وفي نهاية الإصحاح السابع عشر: ولما رأى شاول داود خارجا للقاء الفلسطيني قال لأبنير رئيس الجيش ابن من هذا الغلام يا أبنير فقال أبنير وحياتك أيها الملك لست أعلم... ولما رجع داود من قتل الفلسطيني أخذه أبنير وأحضره أمام شاول ورأس الفلسطيني بيده فقال له ابن من أنت يا غلام فقال داود عبدك ابن عبدك يسي البيتلحمي.

وجاء في الإصحاح الثامن عشر: (هوذا قد سر بك الملك وجميع عبيده قد أحبوك فالآن صاهر الملك. فتكلم عبيد شاول في أذني داود بهذا الكلام فقال داود هل هو مستخف في أعينكم مصاهرة الملك وأنا رجل مسكين وحقين).

وتقول: (ولم تكمل الأيام حتى قام داود وذهب هو ورجاله وقتل من الفلسطينيين مئتي رجل وأتى داود بغلفهم فأكملوها للملك لمصاهرة الملك فأعطاه شاول ميكال ابنته امرأة فرأى شاول وعلم أن الرب مع داود، وميكال ابنة شاول كانت تحبه، وعاد شاول يخاف داود بعد ذلك وصار شاول عدوا لداود كل الأيام).

ويأتي في الإصحاح الحادي والعشرين: (وقام داود وهرب في ذلك اليوم من أمام شاول وجاء إلى أخيش ملك جت فقال عبيد أخيش له أليس هذا داود ملك الأرض. فوضع داود هذا الكلام في قلبه وخاف جدا من أخيش ملك جت. فغير عقله في أعينهم وتظاهر بالجنون بين أيديهم وأخذ يخربش على مصاريع الباب ويسيل ريقه على لحيته).

وفي الإصحاح الثاني والعشرين: (فذهب داود من هناك ونجا إلى مغارة عدلام فلما سمع إخوته وجميع بيت أبيه نزلوا إليه إلى هناك. واجتمع إليه كل رجل متضايق وكل من كان عليه دين وكل رجل مر النفس فكان عليهم رئيسا وكان معه نحو أربعمائة رجل).

وذهب داود من هناك إلى مصفاة موآب وقال لملك موآب ليخرج أبي وأمي إليكم حتى أعلم ماذا يصنع الله، فودعهما عند ملك موآب فأقاما عنده كل أيام إقامة داود في الحصن).

وفي الإصحاح 24: (ولما رجع شاول من وراء الفلسطينيين أخذ ثلاثة آلاف رجل منتخبين من جميع إسرائيل وذهب يطلب داود ورجاله على صخور الوعول).

وجاء في الإصحاح السابع والعشرين: (فقام داود وعبر هو والست مائة الرجل الذين معه إلى أخيش بن معوك ملك جت. وأقام داود عند أخيش في جت هو ورجاله).

وفي الإصحاح 29: (فدعا أخيش داود وقال له حي هو الرب إنك أنت مستقيم، فأجاب أخيش وقال لداود علمت أنك صالح في عيني كملاك الرب).

وجاء في الإصحاح الحادي والثلاثين: (ولما رأى رجال إسرائيل الذين في عبر الوادي والذين في عبر الأردن أن رجال إسرائيل قد هربوا وأن شاول وبنيه قد ماتوا تركوا المدن وهربوا فأتى الفلسطينيون وسكنوا بها).

وجاء في الإصحاح الثاني في صموئيل الثاني: (فقال داود إلى أين أصعد فقال إلى حبرون، وأصعد داود رجاله الذين معه كل واحد وبيته وسكنوا في مدن حبرون وأتى رجال يهوذا ومسحوا هناك داود ملكا على بيت يهوذا).

(وكانت المدة التي ملك فيها داود في حبرون على بيت يهوذا سبع سنين وستة أشهر، وجاء في الإصحاح الخامس، وجاء جميع شيوخ إسرائيل إلى الملك في حبرون فقطع الملك داود معهم عهدا في حبرون أمام الرب ومسحوا داود ملكا على إسرائيل).

وكان داود ابن ثلاثين سنة حين ملك. وملك أربعين سنة، في حبرون ملك على يهوذا سبع سنين وستة أشهر وفي أورشليم ملك ثلاثا وثلاثين سنة على جميع إسرائيل ويهوذا.

وذهب الملك ورجاله إلى أورشليم إلى اليبوسيين سكان الأرض. فكلّموا داود قائلين لا تدخل إلى هنا ما لم تنزع العميان والعرج. وأخذ داود حصن صهيون وهي مدينة داود.

وفي الإصحاح السادس: (وبقي تابوت الرب في بيت عوبيد أدوم الجتي ثلاثة أشهر وبارك الرب عوبيد أدوم وكل بيته).

وفي الإصحاح السابع: (قال الرب أنت تبني لي بيتا لسكنائي لأنني لم أسكن في بيت منذ يوم أصعدت بني إسرائيل من مصر إلى هذا اليوم بل كنت أسير في خيمة وفي مسكن).

وجاء في الإصحاح الحادي عشر: (وكان في وقت المساء أن داود قام عن سريره وتمشى على سطح بيت الملك فرأى من على السطح امرأة تستحم وكانت المرأة جميلة المنظر جدا فأرسل داود رسلا وأخذها فدخلت إليه فاضطجع معها. ثم رجعت إلى بيتها وحبلت المرأة فأرسلت وأخبرت داود وقالت إني حبلى.

وفي الصباح كتب داود مكتوبا إلى يوآب وأرسله بيد أوريا وكتب في المكتوب يقول اجعلوا أوريا في وجه الحرب الشديدة وارجعوا من ورائه فيضرب ويموت. ومات أوريا الحثي فلما سمعت امرأة أوريا أنه قد مات أوريا رجليها نذبت بعلها. ولما مضت المناحة أرسل داود وضمها إلى بيته وصارت له امرأة وولدت له ابنا وأما الأمر الذي فعله داود فقبیح في عيني الرب).

وجاء في الإصحاح الثاني عشر: (فأرسل الرب ناثان إلى داود فجاء إليه وقال له كان رجلان في مدينة واحدة واحد منهما غني والآخر فقير. وكان للغني غنم وبقر كثيرة جدا فأما الفقير فلم يكن له شيء إلا نعجة واحدة صغيرة قد اقتناها ورباها وكبرت معه فجاء ضيف إلى الرجل الغني فعفا أن يأخذ من غنمه ومن بقره ليهييء للضيف الذي جاء إليه، فأخذ نعجة الرجل الفقير وهياً للرجل الذي جاء إليه، فحمي غضب داود على الرجل جدا فقال لناثان حي هو الرب إنه يقتل الرجل الفاعل ذلك ويرد النعجة أربعة أضعاف فقال لناثان لداود أنت هو الرجل هكذا قال الرب إله إسرائيل.. لماذا احتقرت كلام الرب لتعمل الشر في عينيه قد قتلت أوريا الحثي بالسيف وأخذت امرأته لك امرأة. والآن لا يفارق السيف بيتك إلى الأبد... فقال داود لناثان قد أخطأت إلى الرب فقال لناثان لداود الرب أيضا قد نقل عنك خطيتك. لا تموت غير أنه من أجل أنك قد جعلت بهذا الأمر أعداء الرب يشتمون فالابن المولود لك يموت وضرب الرب الولد الذي ولدته امرأة أوريا لداود فقتل).

وعزى داود بتشيع امرأته ودخل إليها واضطجع معها فولدت ابنا فدعا اسمه سليمان والرب أحبه. فجمع داود كل الشعب وذهب إلى ربة وحاربها وأخذها.

وأخرج الشعب الذي فيها ووضعهم تحت مناشير ونوارج حديد وفؤوس حديد فأمرهم في أتون الآجر وهكذا صنع بجميع مدن بني عمون.

إلى هنا يتوقف فصل آخر من حياة داود، حيث يبدأ فصل جديد يرتبط بصراع أبنائه وبعض ما فعلوه من هتك للأعراض والثورة على داود وقتل عدد منهم.

أما في القرآن الكريم فقد ورد ذكر داود عليه السلام ست عشر مرة في آيات متفرقات ونستطيع أن نحدد من خلالها مسار حياته وفكره وحتى زمنه.

يقول تعالى: (فهزموهم بإذن الله وقتل داود جالوت وأتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين) البقرة 251.

ويقول تعالى في سورة النساء: (إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده، وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وأتينا داود زبوراً 163، ورسلاً قد قصصناهم عليك من قبل ورسلاً لم نقصصهم عليك وكلم الله موسى تكليماً 164).

ويقول تعالى: (لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون) المائدة 78.

ويقول تعالى: (ووهبنا له إسحق ويعقوب كلا هدينا ونوحاً هدينا من قبل ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون وكذلك نجزي المحسنين وذكرياً ويحيى وعيسى وإلياس كل من الصالحين) الأنعام 83 - 84.

ويقول تعالى: (وداود وسليمان إذ يحكمان في الحرث إذ نفشت فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شاهدين. ففهمناها سليمان وكلا أتينا حكما وعلما وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير وكنا فاعلين وعلماناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم فهل أنتم شاكرون) الأنبياء 78 - 80.

ويقول تعالى: (ولقد أتينا داود منا فضلا يا جبال أوبي معه والطير وألنا له الحديد أن اعمل سابغات وقدر في السرد واعملوا صالحا إني بما تعلمون بصير) سبأ آية 11.

ويقول تعالى: (اصبر على ما يقولون واذكر عبدنا داود ذا الأيد إنه أواب، إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشي والاشراق. والطير محشورة كل له أواب وشددنا ملكه وأتيناها الحكمة وفصل الخطاب. وهل أتاك نبأ الخصم إذ تسوروا المحراب. إذ دخلوا على داود ففزع منهم قالوا لا تخف خصمان بغى بعضنا على بعض فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط واهدنا إلى سواء الصراط. إن هذا أخي له تسع وتسعون نعجة ولي نعجة واحدة فقال أكفلنيها وعزني في الخطاب قال لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجة وإن كثيرا من الخطاء ليبغي بعضهم على بعض إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم وظن داود أنما فتناه فاستغفر ربه وخر راكعا وأناب، فغفرنا له ذلك وإن له عندنا الزلفى وحسن مآب. يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب) سورة ص 17 - 26.

من خلال المقارنة بين ما ورد في التوراة وما ورد في القرآن نرى أن خطوطا كثيرة مشتركة نجملها فيما يلي:

1 - بروز داود خلال حرب شاول مع أعدائه (شاول - طالوت).

2 - وصوله للملك وتعزيزه وتقويته.

3- القضاء عند داود خاصة في قصة الخصمين اللذين تقاضيا عنده بشأن النعاج.

4 - الاتفاق على أن داود والد سليمان.

5 - الاتفاق على أن داود جمع إلى الملك النبوة والحكمة.

6 - الاتفاق على طول مدة الملك.

وهناك اختلافات كثيرة أيضا:

1 - تشير التوراة إلى داود على أنه ابن يسى البيتلحمي وتشير له بأنه من أحد أسباط إسرائيل بينما القرآن لا يشير إلى ذلك.

2 - يفترق القرآن عن التوراة بأنه لا يشير إلى أي صراع بين داود وشاؤل.

3 - ترى التوراة أن هناك نبيا أو أنبياء وجدوا في عصر داود وكانوا قرييين منه.

4 - تزعم التوراة أن داود خطف امرأة أوريا الحثي وزنا فيها وأنجبت ولدا حراما ثم تزوجها بعد قتله لزوجها وأنجبت سليمان النبي.

5 - التناقض في كلام التوراة لا سيما في وصف داود وشخصيته.

6 - ترى التوراة أن داود تصنع الجنون عند الملك أخيش وهذا ما لم يرد في القرآن الكريم.

7 - تشير التوراة إلى مزامير تنسب بعضها لداود بينما يورد القرآن بقول الله تعالى وآتيننا داود زبوراً.

8 - تدعي التوراة أن الله طلب من داود بناء بين ليسكن فيه بدل أن يظل في السحاب.

9 - تدعي التوراة أن داود قتل أبناء عمون بالمناشير والفؤوس وأحرقهم بالأفران.

تعتبر شخصية داود مفتاحا لعدد من الدراسات والبحوث لما لها من علاقة بالقضايا التاريخية والعقيدية ولما تفتح من آفاق بحثية حول علاقة بني إسرائيل به وطبيعة ملكه ومملكته.

فاليهود المعاصرون يعتبرون أن داود أحد أهم الشخصيات النبوية في تاريخهم. فهو مؤسس أول مملكة إسرائيلية في تاريخهم بل يعتبرونه أول من استطاع توحيد القبائل الإسرائيلية في دولة واحدة، ولهذه الأسباب وغيرها كان لا بد من التوقف طويلا وبشكل دقيق أمام ما أورده التوراة وما أورده القرآن الكريم عن داود.

فداود ينتسب إلى يسى البيت لحمي وهو من أسرة ليست مشهورة في بني إسرائيل خاصة زمن شاول - طالوت - وإذا نظرنا إلى سفر راعوث وجدنا أن التوراة تتحدث عن امرأة أرملة مات زوجها اسمها راعوث وهي من موآب وليست إسرائيلية، وباختصار يتزوجها رجل يسمى بوعز وهو من بين لحم وهذا بوعز يأتيه ولد منها اسمه يسى).

ويسى هو والد داود حسب النص التوراتي، وعلى هذا فجدة داود التي هي راعوث موآبية وليست من بني إسرائيل.

وكان لداود إخوة كثيرون قالت التوراة إنهم سبعة، لكن والد داود وإخوته السبعة وجميعهم أكبر من داود لم يكن لهم شأن بين القبائل الإسرائيلية، ولو كان والد داود أو داود له أهمية مسبقة لدى بني إسرائيل لظهر تسلسل أهميته منذ والده مرورا بإخوته ولو لم يكن هناك اختيار رباني لداود ليكون نبيا وملكا لما أصبح كذلك كونه من أسرة مغمورة في بني إسرائيل.

ويستوقفنا في هذا الشأن اسم داود نفسه، فالاسم ليس مألوفاً بين أسماء بني إسرائيل فنحن نرى أن أسماء إخوته كما وردت في التوراة هي أسماء أقرب إلى اللسان العبري فالأول اسمه ألبآب والثاني أبينا داب والثالث شمة بينما اسم داود لا يمت بصلة إلى هذا اللسان. والذين دونوا التوراة لم يستطيعوا إخفاء حقيقة اسمه وغاب عن أذهانهم أن هذا الاسم ليس اسماً عبرانياً مما يفتح الباب للتساؤل إذا من أين جاء الاسم؟ وهل هذا يعني أن لا صلة بين داود وبين القبائل العبرانية؟

لقد ورد في القرآن الكريم قوله تعالى: (واذكر عبدنا داود ذا الأيد إنه أواب).

فالأيد هو التأييد. وإن ذا الأيد في القرآن الكريم هي تفسير لاسم داود كما يرى بعض الباحثين⁽¹⁾. ومن الواضح أقرب لغتين لاسم داود هما الآشورية والبابلية (دا، أود) إذن فالاسم ليس عبرانياً ولو نظرنا إلى أسماء بعض الأشخاص في عصره لتبين لنا ذلك. فنرى مثلاً صموئيل شاول، أفرايم، أبنيير، يوناثان. أبشالوم، إمنون إلى آخر ما هناك من أسماء، حين نبحث عن اسم سليمان كذلك نرى أنه غريب أيضاً عن أسماء اللغة العبرية.

إذا انتقلنا للبحث في نبوة داود وملكه. نرى أن القرآن يشير إلى نبوة داود قبل الملك وهذا منطقي إذ أن النبوة أسبق على الملك طالما أن غاية الله في بعث أنبيائه هداية البشر أولاً ثم الحكم لهم ثانياً والواقع أن الحديث عن نبوة داود يستجر الحديث عن عقيدته وماهيتها وشأن الكتاب - الزبور الذي أنزل عليه.

(عبد الرحمن غنيم. روان. سر الأسرار. صفحة 102 - دار الجليل دمشق.)

فهل كان داود على دين اليهودية وعقيدتهم؟

لنعد إلى قوله تعالى: (وقال لهم نبيهم إن آية ملكه أن يأتيكم التابوت فيه سكينه من ربكم وبقيته مما ترك آل موسى وآل هارون تحمله الملائكة إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين) البقرة آية 48.

فالحديث هنا عن طالوت الذي قاتل داود في صفوف جنوده وقتل جالوت.

فالآية توضح أن التابوت يحوي بقية من تعاليم آل موسى وآل هارون، ومعلوم أن موسى ألقى الألواح التي كتب عليها الشريعة أو كسرهما حسب قول التوراة وبقيت منها بقية من التشريع الإلهي لموسى، فإذا كان داود عليه السلام مكلفا بإقامة دين التوحيد فإنه لا شك سيقوم تشريع موسى الداعي إلى التوحيد، وهذا يعني أن عقيدة داود هي عقيدة موسى وأن ما بقي من شريعة التوراة أخذه داود بعد شأؤل وصفاه من شوائب بني إسرائيل ومن تشويههم الشفهي له.

فالأنبيا جميعا ولا سيما الذين ذكرهم الله عز وجل في القرآن الكريم ينتمون لعقيدة الإسلام فموسى كما أشرنا لم يخترع اليهودية أو يؤسسها بل تابع دين الإسلام واليهود هم من تخلوا عن موسى ثم قالوا بعد زمن إنهم تابعوا ورجعوا إلى الحق. وما ينطبق على موسى ينطبق على داود. فإذا كان داود يحكم بشريعة موسى التي بقيت منها أشياء فإنه بذلك يحكم من خلال العقيدة الإسلامية بمفهومها الشامل.

يقول تعالى: (إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء فلا تخشوا الناس واخشون ولا تشتروا بآياتي ثمنا قليلا. ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون) المائدة 44.

فهل بعد هذا البيان الإلهي نستطيع أن نطلق على داود أنه يهودي أو من أنبياء اليهود إن جميع الآيات القرآنية التي تحدثت عن الأنبياء تشير بوضوح إلى أنهم أسلموا لله قلوبهم وعقولهم وحكموا أقواما متنوعة عقائدهم. والآية السابقة تشير إلى أن هؤلاء الأنبياء الذين أسلموا كانوا يحكمون لليهود في قضاياهم العقيدية التشريعية. ولولا أن الأنبياء أسلموا الله لما حكموا أو حكم غيرهم إلا بما يهوى هؤلاء اليهود.

ولعلنا ونحن نطالع الآية الكريمة السابقة والآيات التي تليها لعرفنا أن المقصود بهؤلاء الأنبياء هم داود وسليمان وزكريا ويحيى، والدليل على ذلك ما نراه في سورة المائدة:

يقول تعالى: (إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء فلا تخشوا الناس واخشون، ولا تشتروا بآياتي ثمنا قليلا ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون 44، وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن والجروح قصاص فمن تصدق به فهو كفارة له ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون 45، وقفينا على آثارهم بعيسى ابن مريم مصدقا لما بين يديه من التوراة وأتينا الإنجيل فيه هدى ونور ومصدقا لما بين يديه من التوراة وهدى وموعظة للمتقين 46) المائدة 44 - 46.

فآليات واضحة في قول الله وقفينا على آثارهم بعيسى ابن مريم، والمقصود على آثار هؤلاء الأنبياء الذي أسلموا وحكموا لليهود قبل عيسى، ومعلوم أن الأنبياء الذين أرسلهم الله قبل عيسى هم زكريا ويحيى وسليمان وداود، وأقاموا حكم الشريعة التوراتية كما نزلت على موسى عليه السلام لا كما أرادها بنو إسرائيل أو كما وصلتنا مصنوعة بأيديهم.

وقد أشارت التوراة إلى أن داود كان إمام المغنين وما كان يرنمه ويغنيه عبارة عن مزامير. وقد أشرنا إلى أن المزامير التي نسبوها لداود تصل بحدود الخمسين مزمورا بينما يشير القرآن الكريم إلى أن الله أنزل على داود زبوراً.

وإذا نظرنا جيداً في المزامير وجدنا أنها في أكثرها أدعية للرب وما جاء في هذه المزامير يدل على صلة قوية بين النبي داود عليه السلام وبين ربه. ولكننا لو دققنا النظر جيداً وجدنا أن بعض ما كان يقوله داود يخالف ما ورد في التوراة في الأسفار التي تحدثت عن داود.

فنرى مثلاً في المزمور الخامس: (رجل الدماء والغش يكرهه الرب أما أنا فبكثر رحمتك أدخل بيتك أسجد في هيكل قدسك بخوفك).

وجاء في سفر الملوك: (وأخرج الشعب الذي فيها ووضعهم تحت مناشير ونوارح حديد وفؤوس حديد فأمرهم في أتون الآجر وهكذا صنع بجميع مدن بني عمون).

وفي بعض المزامير نرى خطاب داود لربه يتغير حتى ليشعر المرء أن رجلين يتكلمان وليس رجلاً واحداً.

جاء في المزمور الرابع والأربعين: (استيقظ لماذا تتعافى يا رب، انتبه لا ترفض إلى الأبد لماذا تحجب وجهك وتنسى مذلتنا وضيقنا).

وباعتبار أن التدوين التوراتي تم في أيام السبي فقد جمعت نصوص كثيرة تحت عنوان مزامير حتى أن بعضها قيل على شاطئ الفرات باعتراف التوراة نفسها.

وقد ورد ذكر الزبور مرتين في القرآن الكريم مرة في سورة النساء بقوله تعالى (وآتينا داود زبوراً 163). ومرة أخرى في سورة الأنبياء بقوله تعالى: (ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون) الآية 105.

وذكر المفسرون. أن الزبور الذي أنزل على داود هو مئة وخمسون سورة ليس فيها حكم ولا حلال ولا حرام. بل فيها تسبيح وتقديس وتحميد وثناء على الله عز وجل ومواظب⁽¹⁾.

وهذا القول عام لأن المدقق بمزامير داود يجدها مائة وخمسين ولكنها لا تنسب جميعها إلى داود. فهناك مزامير لسليمان ومنها صلوات نسبوها للنبي موسى عليه السلام كالمزمور رقم 90 ومنها قصائد نسبوها لإيثان الازراحي كما في المزمور 89 وغير ذلك كثير مما نسب لقورح إمام المغنين، ومنها مزمور أوله (على أنهار بابل).

وقد نص القرآن الكريم على أن داود لعن بني إسرائيل لأنهم عصوا. يقول تعالى: (لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون) المائدة 78.

ففيما يتعلق بالعصيان والاعتداء فإن أكثر بني إسرائيل عصوا أوامر داود التي استند فيها على التوراة الحقيقية واعتدوا على الناس والأنبياء والاعتداء شامل عام لم يحدد بفتنة معينة. وهذا يدل على أنهم كرروا الاعتداءات حتى أصبحت ملاصقة لطبيعتهم ولذلك لعنوا على لسان داود وعلى لسان المسيح عليهما السلام.

وحين ترتبط نبوة داود بملكه يتسع المجال أكثر ليدرك المرء طبيعة ملك هذا النبي ومملكته.

لقد ورد ذكر داود في القرآن الكريم ست عشرة مرة وذكرنا ذلك سابقا وإذا نظرنا في الآيات الكريمة وجدنا أنها تساعد في فهم تسلسل حياة داود كنبوي وكملك.

(1) إعراب القرآن وبيانه. محمد علي طه الدرة، المجلد الثالث صفحة 188.

(وقتل داود جالوت وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء) البقرة 251.

(واذكر عبدنا داود ذا الأيد إنه أواب) سورة ص 17.

(إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشي والاشراق) ص 18.

(والطير محشورة كل له أواب) ص 19.

(وشددنا ملكه وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب) ص 20.

(وهل أتاك نبأ الخصم إذ تسوروا المحراب. إذ دخلوا على داود ففزع

منهم).

(يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع

الهوى) ص 26.

(وداود وسليمان إذ يحكمان في الحرث إذ نفشت فيه غنم القوم وكنا

لحكمهم شاهدين) الأنبياء 78.

فقد ظهر داود فجأة أثناء صراع طالوت مع جالوت ، وقتل داود الجبار

جالوت ولم يشر القرآن الكريم كيف قتله. ولكن التوراة تشير إلى أنه أصبح

محبوبا لدى شاول وزوجه ابنته ميكال ثم جرت عدة محاولات لقتله من قبل

شاول وباءت جميعها بالفشل إلى أن حدثت إحدى المعارك بين شاول

والفلسطينيين وقتل فيها هو وأبناؤه الثلاثة. ثم ارتحل داود إلى الخليل حيث

بايعه أنصاره وعينوه ملكا بينما أنصار شاول انقسموا لوجههم وعينوا ابنا لشاول

ملكاً عليهم ، ثم ما لبث داود أن قاتلهم ومن ثم خضع له جميع أسباط إسرائيل

وعينوه ملكاً عليهم فأصبح ملكه يضم بني يهودا وبني إسرائيل.

فمن حيث السياق العام لا خلاف بين القرآن الكريم والتوراة في أن داود

تسلم الملك بعد شاول - طالوت - وقد علمه الله سبحانه مما يشاء من أمور الحكم

والقضاء والقوة.

وتذكر التوراة أن داود قام بحروب كثيرة واتسع ملكه حتى وصل خليج العقبة ودانت له البلاد التي حولها فافتتح بلاد الفلسطينيين وأخذ دمشق عاصمة ملك الآراميين بعد حرب شديدة وحارب الأقسام الذين على الفرات ونصر عليهم.

ولكن التوراة نفسها تذكر أمورا تتناقض كليا مع طبيعة النبوة التي كان عليها داود فقد ذكرت أن داود رأى امرأة تستحم فجلبها وزنا فيها فأنجب ولد حرام وبعث بزوجها الحثي أوريا ليقتل في الحرب وقتل الرجل فجلبها داود إلى مجموع نسائه ثم ضاجعها فولدت له سليمان بعد أن مات الطفل الأول.

فهذا المنطق التوراتي لا يتوافق مطلقا مع النبوة، فالأنبياء معصومون والعصمة إلهية فكيف بدادود يرتكب فاحشتين هما الزنا والقتل بغير حق. وهذا الخبر لم يرد في القرآن الكريم لأنه تلفيق من خيال من كتبوا التوراة بعد داود بمئات السنين. وقد استخدم داود أخس الأساليب ليقتل أوريا الحثي حيث أوصى رئيس جنده بأن يبعث بأوريا في مقدمة الجيش ليكون في متناول الأعداء وتورد التوراة أن ناثان الذي جاء ليقرع داود بفعله كان نبيا. فكيف يصح أن يقرع ناثان داود وكيف يمكن أن يكون ناثان نبيا أرفع شأننا من داود والتوراة نفسها لا تعطي أي وزن لنathan إلا في هذه الحادثة؟

وتحاول التوراة أن تخفي دور الملائكة الذين جاؤوا ليحكموه في أمر النعاج. وقد أورد القرآن الكريم القصة بوضوح، فليس هناك وجود لنبي اسمه ناثان بل هناك وجود للملكين دخلا على داود بهيأة رجلين وقد فزع داود منهما. والسبب أنه لا يمكن أن يدخل قصره رجل ويجتاز الأبواب والحراس. وفزعه هو دهشته لكيفية دخول هذين الرجلين إلى مخدعه.

يقول البيضاوي: وأقصى ما في هذه القصة الإشعار بأنه عليه السلام ود أن يكون له ما لغيره وكان له أمثاله فنبهه الله بهذه القصة فاستغفر وأتاب وما

روي أن بصره وقع على امرأة فعشقتها وسعى حتى تزوجها وولدت منه سليمان وما قيل أنه أرسل أوريا مرارا إلى الحرب وأمر أن يتقدم حتى قتل فتزوجها هزء وافتراء، ولذلك قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه من حدث بحديث داود على ما يرويه القصاص جلده مئة وستين. مئة حد القذف وستون زيادة لأن المقدوف نبي.

وبعيد من الحكمة أن يكون الحكيم فاسقا قاتلا من غير حق ولا برهان. وداود كنبى معصوم لا يمكن أن يقع بمثل هذه المغريات وقد شهدت له التوراة نفسها بصدقه وخوفه من الله وطهارته.

ففي صموئيل الثاني في الإصحاح 22 يقول داود (يكافيني الرب حسب بري حسب طهارة يدي يرد علي لأنني حفظت طرق الرب ولم أعص إلهي لأن جميع أحكامه أمامي فرائضه لا أحيد عنها).

وفي الإصحاح الثالث من سفر الملوك الأول فقال سليمان (إنك قد فعلت مع عبدك داود أبي رحمة عظيمة حسبما سار أمامك بأمانة وبر واستقامة قلب معك فحفظت له هذه الرحمة العظيمة).

وفي الإصحاح السادس من أخبار الأيام الثاني قول الله لداود (إن يكن بنوك طرقهم يحفظون حتى يسيروا في شريعتي كما سرت أنت أمامي) فهل يريد الله لأبناء داود الذين يقويهم ويملكهم أن يكونوا كداود زناة قتلة⁽¹⁾.

وإذ عدنا إلى الحديث عن ملك داود فإننا لا نرى في القرآن الكريم سوى أن الله سبحانه آتاه الملك دون أن نعرف أين ملكه وفي أي أرض كان وقد من الله عليه بالحكمة والقضاء وتسبيح الجبال والطير معه لكثرة ما كان يسبح الله.

(1) عبد الوهاب النجار قصص الأنبياء ص 340 - 341.

وقد وصفه الله سبحانه بقوله: (واذكر عبدنا داود ذا الأيد إنه أواب) سورة ص 17. فهو المؤيد من الله سبحانه وكان أواباً لله متبتلاً.

لكننا إذا عدنا لبعض الآيات الكريمة التي تحدثت عن سليمان وجدنا بعض ملامح هذه الأرض التي أقام داود مملكته عليها ثم ورثه ابنه سليمان فيها.

يقول تعالى: (ولسليمان الريح عاصفة تجري إلى الأرض التي باركنا فيها) فالأرض التي باركها الله تشمل القدس وما حوله وتصل حتى حدود مكة وقد أشرنا لذلك أثناء حديثنا عن إبراهيم عليه السلام.

ورغم ذلك لا يعني أن هذه الأرض كانت هي ملك داود ومن بعده سليمان. فقد تكون المملكة المشار إليها جزءاً من هذه الأرض، وعلى افتراض أن داود عليه السلام أقام ملكه في أرض فلسطين فإن ذلك يستدعي التوقف طويلاً حول ذلك.

سبق وأشرنا إلى قول التوراة أن داود حكم في حبرون - الخليل - سبع سنوات وستة أشهر وحكم في إسرائيل اثنتين وثلاثين سنة وستة أشهر بمعنى أنه حكم أربعين سنة.

لنرى معا ماذا تقول التوراة:

(وذهب الملك ورجاله إلى اورشليم إلى اليبوسيين سكان الأرض فكلّموا داود قائلين لا تدخل إلى هنا ما لم تنزع العميان والعرج. وأخذ داود حصن صهيون. وهي مدينة داود).

وكانت المدة التي ملك داود في حبرون على بيت يهوذا سبع سنين وستة أشهر. وجاء جميع شيوخ إسرائيل إلى الملك في حبرون فقطع الملك داود معهم عهداً في حبرون أمام الرب ومسحوا داود ملكاً على إسرائيل.

وفي أورشليم ملك ثلاثاً وثلاثين سنة على جميع إسرائيل ويهودا.

وفي سفر القضاة الإصحاح الأول تقول التوراة: (وبنو بنيامين لم يطردوا اليبوسيين سكان أورشليم فسكن اليبوسيون مع بني بنيامين في أورشليم إلى هذا اليوم).

ولم يطرد منسى أهل بيت شان وقراها ولا أهل تعنك وقراها ولا سكان دور وقراها ولا سكان بلعام وقراها ولا سكان مجدو وقراها.

وأفرايم لم يطرد الكنعانيين الساكنين في جازر فسكن الكنعانيون في وسطه في جاذر زبولون لم يطرد سكان قطرون ولا سكان نهلول فسكن الكنعانيون في وسطه ولم يطرد أشير سكان عكو ولا سكان صيدون وأحلب وأكزيب وحبلة وأفيق ورحوب.

ونفتالي لم يطرد سكان بيت شمس ولا سكان بيت عناة بل سكن في وسط الكنعانيين سكان الأرض.

وجاء في الإصحاح الثالث - قضاة: فسكن بنو إسرائيل في وسط الكنعانيين والحثيين والأموريين والفرزيين والحويين واليبوسيين. واتخذوا بناتهم لأنفسهم نساء وأعطوا بناتهم لنبيهم وعبدوا آلهتهم.

فبالنسبة للقدس بقيت في أيدي سكانها باعتراف التوراة نفسها. والملك داود لما أراد أن ينشئ قصره في القدس قام بشراء قطعة أرض على جبل الزيتون خارج أسوار المدينة من أصحابها اليبوسيين.

وليس هناك ما يشير إلى أي حدث تاريخي اضطر سكان القدس غير الموسويين بسبب مغادرة مدينتهم إذ لم يصبهم شيء من تيارات التشريد والتقتيل والسبي التي أصابت الموسويين والدليل على احتفاظ سكان البلاد

الأصليين بأرضهم أنهم تمكنوا من إخضاع بني إسرائيل لحكمهم قبيل وخلال عهد القضاة⁽¹⁾.

لماذا اختار داود جبل الزيتون ليبنى قصره ومعبده؟

لو نظرنا إلى التسرب الإسرائيلي إلى فلسطين لوجدنا أن أكثر التجمعات الإسرائيلية وجدت في منطقة الخليل. وفي الشمال الشرقي حيث بقي سكان المدن الساحلية متواجدين في أراضيهم.

فكان يمكن لداود أن يبقى في الخليل أو أن يصنع مدينة تكون له عاصمة ملكه في الشمال لكنه ترك الخليل ولم يذهب إلى الشمال واختار جبل الزيتون المطل على القدس ليؤسس هناك عاصمة ملكه ولذلك أسباب كثيرة.

قلنا في صفحات سابقة إن داود لم يكن من عائلة قوية حتى ينافس غيره على الملك. وقد كان معه حسب ما قالت التوراة نفسها أربع مائة رجل ثم ستمائة وأخضع يهوذا لملكه. ثم حارب إسرائيل مدة زمنية طويلة حيث سحب الملك من ابن شاؤل وقتل فدان له بنو إسرائيل. وفي المحصلة فإن يهوذا وإسرائيل كانوا على عداً سابق مع داود. وداود لن يأمن غدرهم وشرهم فاختر منطقة بعيدة عن هؤلاء وهؤلاء أي أنه اختار جوار القدس وفضل مجاورة اليبوسيين الكنعانيين على مجاورة يهوذا وإسرائيل، وهذا يؤكد أن عقيدة داود لم تكن كعقيدة اليهود. فقد استطاع إخضاعهم لملكه وعقيدته وقد عاونه بذلك أناس لم يكونوا من بني إسرائيل كأوريا الحثي وبعض الأدوميين وبعض اليبوسيين ولم يكن على عداً مع اليبوسيين لا عقيدياً ولا استراتيجياً، وهذا ما يؤكد قول الله تعالى: (إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا) المائدة 44. فداود المسلم كان يحكم بقضائه للذين

(1) أحمد سوسة: العرب واليهود في التاريخ 294.

كانوا يهوداً وهو يدرك أن هؤلاء اليهود لن يحكمهم ملك أو نبي من أبناء عقيدتهم لأنه سيضل كما يضلون والتوراة أكبر شاهد على ذلك. لقد حكم بني إسرائيل في عهد القضاة عشرات منهم لكنهم فسدوا وعملوا الشر في عين الرب وكذلك لو نظرنا إلى العهد الذي جاء بعد سليمان لوجدنا أن ملوكهم أقاموا عقائد الوثنية وأحلوا الحرام. ولم يتمكن سوى داود وسليمان من حكمهم حسب العقيدة الصحيحة لأنهما كانا مسلمين على ملة إبراهيم وموسى ولم يكونا يهوديين. وعلى الرغم من ذلك وذاك فإن علم الآثار والمكتشفات يرى أنه لا توجد مخلفات كثيرة خارج القدس تعود إلى عهد داود لأنه في الحقيقة لم يشتهر بتشديد الأبنية ورأى أن داود كان مشغولاً بالدفاع عن عقيدة التوحيد والقضاء حسب الشريعة الإسلامية العامة لمشاكل هؤلاء اليهود. ولعل الآيات القرآنية بعدم إشارتها لجغرافية ملكه دليل واضح على أن الملك لدى داود كان ملكاً يستند إلى قوة العقيدة التوحيدية ونشرها وليس إلى قوة التشييد والبناء الحضاري.

ولعل علماء الآثار الذين لم يكتشفوا آثاراً تدل على عصر داود لا يدركون أن ملك الأنبياء ليس شرط إقامة البنيان والحضارة المادية بقدر ما هو نشر دين الوحداية ومحاربة المعتدين والفاستين والذين ينقلبون بين يوم وليلة من عقيدة لعقيدة.

وفي حزيران من عام 1993 طرد البروفسور توماس طومسن أستاذ علم الآثار في جامعة ماركويت في ميلواكي من منصبه لأنه أوضح في كتابه الأخير (التاريخ القديم للإسرائيليين) أن مجموع التاريخ الغربي لإسرائيل وللإسرائيليين يستند إلى قصص من العهد القديم من صنع الخيال. ويرى البروفسور أنه لم يتم العثور على أي أثر لقيام مملكة إسرائيل في القرن العاشر ق.م أو على وجود مستوطنات سكنية في منطقتي القدس والضفة الغربية التي يصر الإسرائيليون على تسميتها

ب يهودا والسامرة. والقدس نفسها لم تكن حتى القرن السابع ق.م سوى مقاطعة إقليمية ولذلك من المستبعد جداً أن يكون هناك أي قوم في منطقة القدس قبل القرن الخامس ق.م ولا وجود لأي صلة (إثنية) في منطقة القدس القديمة وإسرائيل في العصور الحجرية والأقوام التي أعادت بناء القدس في سنة 450 ق.م ذلك أن المنطقة بكاملها كانت مسرحاً للصراع بين الفرس والعراقيين القدماء⁽¹⁾.

وقد اعترف جوناثان توب الذي يعد من أكبر علماء الآثار في تاريخ المنطقة العربية القديم في المتحف البريطاني (بأن طومسُن دقيق جداً في بحثه العلمي الكبير وشجاع في التعبير عما كان كثير منا يفكر فيه حديثاً منذ زمن طويل ولكن فضلوا كتمانهم).

ونستطيع أن نستخلص من آيات القرآن الكريم أن الأكثر عداوة لداود هم اليهود أنفسهم فداود المسلم المؤمن بربه الذي سار على ملة إبراهيم عليه السلام كان عدواً لليهود بسبب استقامته وقمعه لكفرهم وظلمهم.

يقول تعالى: (لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذي أشركوا)

المائدة 82.

فاليهود والذين أشركوا سواسية في العداة للمؤمنين أيا كان زمنهم وأيا كان مكانهم لقد لعنهم داود بسبب ما كانوا يأتون من منكر وقد قال تعالى في ذلك.

(لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون 78 كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون 79) المائدة 78 - 79.

(1) جريدة الحياة التاريخ 1993/6/30.

ويقول تعالى: (لقد أخذنا ميثاق بني إسرائيل وأرسلنا إليهم رسلاً كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم فريقاً كذبوا وفريقاً يقتلون) 70 المائدة.

وعلينا أن نلاحظ هنا أن التسميات التي سمي بها الله سبحانه بني إسرائيل تختلف باختلاف الأزمنة. فبنو إسرائيل واليهود، وأهل الكتاب، تسميات أطلقت في القرآن الكريم حسب التسلسل الزمني التاريخي وحسب الظرف الموضوعي والعقيدي.

ولو عدنا لآيات القرآن الكريم التي تحدثت عن نعم الله التي أنعمها على داود لوجدناها كثيرة، فمنها أن الله منّ على داود بالنبوة والملك والحكمة وجعل ابنه سليمان نبياً وملكاً. وألان له الحديد ليصنع الدروع وسخر له الطير والجبال تسبح معه.

ويستوقفنا قول الله تعالى: (وألنا له الحديد أن اعمل سابغات وقدر في السرد) ص30.

وقوله تعالى: (وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم) ص 31.

وهاتان الآيتان تدلنا على عصر عاش فيه داود عصر عرف الحديد ودخل مجال التصنيع ومن الصناعات الحديدية صنع الدروع والزرذ.

ثم إن آيتين أخريين تفتح أمامنا البحث عن عصر لا يخص اليهود بل يخص داود ومن آمن معه يقول تعالى: (وهل أتاك نبأ الخصم إذ تسوروا المحراب إذ دخلوا على داود ففزع منهم) ص 21 - 22.

إن التوراة التي تتحدث عن بناء داود هيكلًا للرب تكذب وتفترى، فليس هناك ما يدل على وجود هياكل، والآية الكريمة التي تشير إلى المحراب تكشف لنا عن أن داود المسلم كان يعرف المحراب الذي جعله للعبادة، وهذا المحراب كان معروفاً لدى الكنعانيين في فلسطين (إن ذلك مؤشر قوي على انعدام علاقة

داود باليهود الذين كانوا يعيبون على الفلسطينيين هذا النمط من المحاريب
المقامة على المرتفعات⁽¹⁾.

وحين يحكم داود بالعدل بين المتنازعين من الرعاة والمزارعين فإن ذلك
يعني أن عصر داود عصر قضاء وقانون. عصر يحتاج للقضاء وللقانون، وهذا إن
دل فإنه يدل على أن التجمع اليهودي وغيره في ذلك العصر قد كثر فيه الظلم
والاعتداء حتى بلغ أشده وإلا لما منح داود الحكمة والقضاء ودعم بالتأييد الإلهي
حتى يستطيع أن يحل المشاكل الاجتماعية التي انتشرت في بني إسرائيل.

لقد خص الله سبحانه كل نبي بخاصية تختلف عن خاصية الأنبياء
الآخرين. فعصر موسى الذي كان السحر فيه سائداً على ما عداه من المعارف
احتاج فيه موسى لمعجزة تصدت للسحر، وعصر عيسى عليه السلام عصر الطب
والعلوم الكيميائية فمنحه الله قوة شفاء الأمراض المستعصية ولعل عصر داود
عصر الفتن وقوة العدوان فاحتاج هذا العصر لقوة القانون والقضاء حتى يستطيع
داود مجابهة الظلم والاعتداء بشتى أشكاله، ولعله من قبيل المنطق أن نقول إن
مجتمعاً يعيش بسلام وأمن وعدل لا يحتاج لكثير من القوانين أو للقضاة، وهذا
يعيد إلى الأذهان أن خشونة بني إسرائيل ومكرهم واعتداءاتهم على بعضهم من
جهة وعلى غيرهم من الناس بلغ حداً لا يطاق مما يستدعي وجود القوة النبوية
الملكية التي تتمتع بفهم القانون وفهم الحكم بين الناس بالعدل والحق. ولولا
كون داود نبياً وملكاً عادلاً لكان كأي من بني البشر أو كأي من بني إسرائيل
لكن الله الذي اصطفاه نبياً مسلماً يحكم بالحق والعدل اختاره ليكون اليد القوية
والعقل الناضج المليء بالحكمة حتى يحكم هؤلاء اليهود ويخضعهم بالقوة
لسلطانه وقضائه.

(1) عبد الرحيم غنيم روان سر الأسرار ص 186.

وتقول التوراة إن داود حكم أربعين عاماً ولم يحدد القرآن الكريم مدة حكمه إلا أنه أشار إلى قوته وتثبته من قبل رب العالمين.

ماذا يقول الباحثون والآثاريون عن مملكة داود:

مرة أخرى نرى أن الباحثين والآثاريين يختلفون في تصوراتهم وأبحاثهم حول مملكة داود ومدى اتساعها وقوتها وضعفها. فبعضهم ذهب إلى نفي وجود مثل هذه المملكة وارتأى أن ملك داود لم يكن سوى على ولاية صغيرة تارة تخضع للشرق وتارة لمصر وبعضهم الآخر ارتأى حسب رأي التوراة أن داود أقام ملكاً واتسعت بقعة أرضه حتى استطاع احتلال دمشق ووصلت مملكته نهر الفرات.

وبعضهم الثالث رأى رأياً آخر حيث أقر بوجود مملكة لداود ولكنها لم تتجاوز أرض فلسطين أو قسماً منها حيث بقي الساحل بيد الفلسطينيين واختلطت شعوب الكنعانيين باليهود في الداخل حيث شكلوا مملكة بقيادة داود.

يقول المؤرخ المشهور ويلز في كتابه (معالم تاريخ الإنسانية) ولا يستطيع أحد أن يزعم أن أرض الميعاد وقعت يوماً بيد العبرانيين اليهود ويلوح أن داود وضع نفسه في حماية حيرام ملك صور فثبتت هذه المخالفة الفينيقية ملكه⁽¹⁾.

ويقول الدكتور أحمد سوسة: (وهنا تستوقفنا نقطة أساسية لا بد من إثارتها وشرحها. وهي هل كانت هناك في زمن داود وسليمان دولة إسرائيلية بمعنى يهودية حقاً، وهذا يسوقنا إلى أن نسأل ما هي اللغة والثقافة التي كانت سائدة في فلسطين في عصر داود وسليمان في القرن العاشر ق.م. هل كانت لغة داود وسليمان عبرية بمعنى يهودية إذ ذاك؟ إن هذه المسألة محفوفة بالغموض الكثيف لعدم توافر أدلة محسوسة توضح لنا حقيقة الأمر. إذ لم يعثر حتى الآن

(1) معالم تاريخ الإنسانية الترجمة العربية، الكتاب الرابع صفحة 279.

على وثائق من هذا العصر على ما وصل إليه علمنا. إلا أن القرائن كلها تدل بوضوح تام على أن هذه الدويلة التي تشكلت في زمن داود وسليمان لم تكن قد توفرت فيها المقومات القومية والثقافية، إذ لم تكن لها لغة أو ثقافة أو حضارة خاصة بها بل كانت قائمة على تراث كنعاني بحث كما تؤيد لنا ذلك الحقائق التاريخية⁽²⁾.

داود وأبنائه:

تتحدث التوراة عن عدد من أبناء داود فتورد اسم أدونيا ابن حجيث، وحجيث هي أمه وزوجة من زوجات داود وهو أخ لأبشالوم ثم تورد اسم سليمان، وأثناء عرض الكلام عن أبنائه في الإصحاح الأول من الملوك الأول تورد اسم ناثان النبي. فتقول (هوذا ناثان النبي فدخل إلى أمام الملك وسجد للملك على وجهه إلى الأرض).

وكانت التوراة قد أوردت تمرد أبشالوم على أبيه في صموئيل الثاني حتى كاد أن ينتزع من أبيه الملك. وأثناء تمرد أبشالوم تقول التوراة (وأما داود فصعد في مصعد جبل الزيتون كان يصعد باكياً ورأسه مغطى ويمشي حافياً). ويضيق أبشالوم الخناق على أبيه داود ويلاحقه من مكان لمكان ليقتله، ويهرب داود ولا يستقر به قرار حتى دخل الأردن مختبئاً من بطش ابنه. وبعد مقتل أبشالوم يقوم شبع بن بكري وهو من سبط بنيامين بثورة ضد داود وتقول التوراة في ذلك (فصعد كل رجال إسرائيل من وراء داود إلى وراء شبع بن بكري) وأما رجال يهودا فلازموا ملكهم من الأردن إلى أورشليم.

ثم يصبح سليمان ملكاً مكان أبيه ويموت داود بعد أن يوصي ابنه سليمان بوصايا كثيرة منها وصيته بقتل بعض الأعداء الذين عاهد داود نفسه بعدم قتلهم

(2) أحمد سوسة. العرب واليهود في التاريخ صفحة 299.

بيده ومنها وصايا بعدم البعد عن طريق الله...الخ.

أما في القرآن الكريم فترى أن الآيات الكريمة تذكر سليمان وحده كإبن داود ولا يرد أي ذكر لأولاد داود الآخرين وقد ورد ذكر سليمان في القرآن الكريم في ستة عشر موضعاً، تماماً كذكر داود في ستة عشر موضعاً.

وإذا تتبعنا سيرة النبي سليمان من خلال ترتيب آيات القرآن الكريم نجد ما يلي :

يقول تعالى: (ووهبنا لداود سليمان نعم العبد إنه أواب) سورة ص 30.

ويقول تعالى: (وداود وسليمان إذ يحكمان في الحرث إذ نفشت فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شاهدين ففهمناها سليمان وكلا أتينا حكماً وعلماً وسخرنا مع داود الجبال) سورة الأنبياء 78 - 79.

ويقول تعالى: (ولقد أتينا داود وسليمان علماً وقالوا الحمد لله الذي فضلنا على كثير من عباده المؤمنين 15، وورث سليمان داود وقال يا أيها الناس علمنا منطق الطير وأوتينا من كل شيء إن هذا لهو الفضل المبين 16) سورة النمل.

ويقول تعالى: (إذا عرض عليه بالعشي الصافنات الجياد فقال إنني أحببت حب الخير عن ذكر ربي حتى توارت بالحجاب ردها علي فطفق مسحاً بالسوق والأعناق) ص 23.

ويقول تعالى: (ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسداً ثم أناب قال رب اغفر لي وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي إنك أنت الوهاب) ص 35.

(فسخرنا له الريح تجري بأمره رفاء حيث أصاب والشياطين كل بناء وغواص) ص 36 - 37.

ويقول تعالى: (ومن الجن من يعمل بين يديه فأذن ربه ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات) سبأ 12 - 13.

وقال تعالى: (وحشر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير فهم يوزعون) النمل 17.

(حتى إذا أتوا على وادي النمل قالت نملة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون فتبسم ضاحكاً من قولها وقال رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي وأن أعمل صالحاً ترضاه وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين) النمل 18 - 19.

ويقول تعالى: (فلما قضينا عليه الموت ما دلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته فلما خر تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين) سبأ 14.

وقد ذكر القرآن الكريم قصة سليمان وطائر الهدهد ومملكة سبأ في سورة النمل من الآية 120 حتى الآية 44 وسنورد هذه الآيات عند مناقشة هذه القصة وماذا تقول التوراة فيها.

ماذا تقول التوراة في سليمان:

مرّ معنا سابقاً أن بني إسرائيل لفقوا قصة سطو داود على امرأة أوريا الحثي وهذه القصة التوراتية تقول إن (بتشبع) قد انجبت ولداً سفاحاً من داود ثم مات وبعد أن قُتل زوجها أوريا الحثي ضمها داود إلى زوجاته فأنجبت له سليمان، وكان لداود نساء أخريات أنجبن أولاداً ومنهم أبشالوم وأمنون وأدونيا، وفتاة هي شقيقة أبشالوم الذي اغتصبها إمنون أخوها من أبيها وتدعى

ثامار، ويتضح من خلال سياق التوراة أن إمنون وأبشالوم وأدونيا أكبر سنّاً من سليمان والآن لننظر إلى نساء داود اللواتي أنجبن هؤلاء الأولاد والبنت.

فأول زوجة يرد اسمها هي ميكال ابنة شاول.

تقول التوراة في الإصحاح الثالث من صموئيل 2: (وولد لداود بنون في حبرون وكان يكره إمنون من أخينوعم اليزرعيلية، وثانية كيلا يامن أبيجايل امرأة نابال الكرملّي والثالث أبشالوم ابن معكة بنت تلماي ملك جشور والرابع أدونيا ابن حجيث والخامس شفتياً ابن أبيطال والسادس يثرعام من عجلة امرأة داود، هؤلاء ولدوا لداود في حبرون)، وفي السفر نفسه الإصحاح الخامس: (وأخذ داود أيضاً سراري ونساء من أورشليم بعد مجيئه من حبرون فولد أيضاً لداود بنون وبنات وهذه أسماء الذين ولدوا له في أورشليم: شموع وشوباب وناثان وسليمان ويجار وأليشوع ونافج ويافيع وأليشمع وأليداع وأليغلط).

إذاً يكون عدد أبناء داود وبناته سبعة عشر فرداً.

ويقتل إمنون على يد أخيه أبشالوم لأنه اغتصب اخته ثم يقتل أبشالوم ويلحقه أدونيا أما بقية أولاده عذا سليمان فلا يتكرر الحديث عنهم في التوراة.

إن هذا التفصيل عن أولاد داود لم يرد في القرآن الكريم ولم يرد أيضاً شيء عن نسائه ومن خلال حديث التوراة نجد أن نساءه ينتسبن إلى أقوام كثيرة، فمنهم الإسرائيلية ومنهم الحثية، والجتورية.

وكانت أم سليمان هي بتشبع الحثية، ولم تكن من بني إسرائيل وهذا ما صرحت به التوراة نفسها، عندما ذكرت قصة أوريا الحثي وزوجته بتشبع.

فإذا قارنا سليمان بإخوته وجدنا الملاحظات التالية وهي جديدة بالانتباه

والمتابعة:

1 - سليمان من أصغر إخوته حيث يرد قبله إخوته الذين ولدوا في حبرون وهم ستة إخوة كل واحد من أم غير أم الآخر. وقد وُلد قبله في أورشليم حسب زعم التوراة ثلاثة أبناء لم ترد أسماء أمهاتهم.

إذاً فهناك تسعة أبناء سبقوا سليمان فلماذا اختار داود سليمان ليرث ملكه ولم يختَر غيره. لمَ لمَ يختَر داود ابن المرأة اليزرعيلية أو ابنه ملك جشور أو ابنه نابال الكرملّي وهو أيضاً من بني إسرائيل، لماذا اختار صغيراً خلفاً له؟ ثم لماذا اختار ابن امرأة حثية وليست من بني إسرائيل؟ وماذا يترتب على هذا الكلام؟

2 - هناك اختيار رباني يتدخل لاختيار سليمان وريثاً لأبيه ونبيّاً يأخذ بتعاليم الكتاب الحقيقية التي ورثها عن أبيه شفاهاً وقد أوردت التوراة أن سليمان امتاز بالحكمة ولا يصفونه بالنبي غير أن ذلك لا يمتاز به أي من إخوته.

3 - إن عدم اختيار داود لغير سليمان وريثاً لملكه يؤشر إلى أن داود لم يكن يثق بمن كانت أمه إسرائيلية أو وثنية لتجربته مع بني إسرائيل المتقلبين بين لحظة وأخرى من عقيدة لأخرى. وإذا نظرنا إلى تصرف بتشبع أم سليمان وكلامها حتى ذاك المصحح به في التوراة نرى أنها موحّدة مؤمنة بالرب الذي يؤمن به داود وهي غير يهودية ولا وثنية.

وتقول التوراة نفسها عن سليمان في الإصحاح الثالث من الملوك الأول (وأحب سليمان الربّ سائراً في فرائض داود أبيه).

وتقول على لسان الرب: (هو ذا قد فعلت حسب كلامك هوذا أعطيتك قلباً حكيماً ومميزاً حتى أنه لم يكن مثلك قبلك ولا يقوم بعدك نظيرك)، وتتحدث التوراة بشكل مفصل عن حكمة داود وانتشرت حكمته بين الناس

حتى سمع بها القاضي والداني. وهذا ما يتطابق مع قول القرآن الكريم عن حكمته وعدله.

وتكرس التوراة الحديث عن بناء سليمان للهيكل منذ الإصحاح الخامس في الملوك الأول وحتى نهاية الإصحاح السابع. وفي الإصحاح الثامن يدخل سليمان تابوت الرب إلى الهيكل. فتقول (فأدخل الكهنة تابوت عهد الرب إلى مكانه في محراب البيت في قدس الأقداس).

وتقول التوراة: (وبعد نهاية عشرين سنة بعد ما بنى سليمان البيتين بيت الرب وبيت الملك وكان حيرام ملك صور قد ساعد سليمان بخشب أرز وخشب سرو وذهب حسب كل مسرته أعطى حينئذ الملك سليمان حيرام عشرين مدينة في أرض الجليل).

وتقول التوراة في الإصحاح الحادي عشر من الملوك الأول (وأحب الملك سليمان نساء غريبة كثيرة مع بنت فرعون موآبيات وعمونيات وأدوميات وصيدونيات وحثيات) فالتصق سليمان بهؤلاء بالمحبة وكانت له سبع مئة من النساء السيدات وثلاث مئة من السراري فأمالت نساؤه قلبه وراء آلهة أخرى ولم يكن قلبه كاملاً مع الرب إلهه كقلب داود أبيه فذهب سليمان وراء عشتروت إلهة الصيدونيين وملكوم رجس العمونيين وحينئذ بنى سليمان مرتفعه لكموش رجس المؤابيين على الجبل الذي تجاه أورشليم ولمولك رجس بني عمون. وهكذا فعل لجميع نساؤه الغريبات اللواتي كن يوقدن ويذبحن لآلهتهن فغضب الرب على سليمان لأن قلبه مال عن الرب إله إسرائيل الذي تراءى له مرتين وأوصاه في هذا الأمر أن لا يتبع إلهة أخرى فلم يحفظ ما أوصى به الرب).

يتفق القرآن والتوراة على أن سليمان أوتي حكمة منذ صغره وأوتي الملك لكن التوراة لا تصفه بالنبي بينما القرآن الكريم يصرح بأن سليمان نبي مرسل

وتختلف رواية التوراة عما جاء في القرآن الكريم عن سليمان اختلافاً جذرياً في أكثر جوانب حياته.

فالآية القرآنية تصرح بأن الله وهب لداود سليمان. ونحن نعلم أن داود حسب النص التوراتي كان أباً لسبعة عشر ولداً ولم يشر القرآن إليهم بل أشار إلى سليمان على أنه هبة من الله لداود لأنه نبي آوَاب. فكما وهب الله لإبراهيم إسحق وهب لداود سليمان. إذاً فسليمان يقع ضمن دائرة الاختيار الإلهي لأنه سيكون نبياً حسب علم الله المسبق.

وقد لازم سليمان أباه داود ليتعلم منه القضاء والحكم فأوردت الآية قصة غنم القوم التي نفشوا في الزرع ففهم الله سليمان حل المشكلة التي طرأت بين أصحاب الزرع وأصحاب الغنم.

ووهب الله لداود وسليمان علماً خاصاً وشكرا الله على نعمته عليهم.

وقد ورث سليمان داود وعلمه الله منطق الطير واعتبر سليمان ذلك فضلاً من الله.

وقد وردت في القرآن الكريم أحداث تخص النبي سليمان كالصافنات الجياد، ومملكة سبأ وتسخير الجن.

ولا بد لنا أن نتوقف هنا أمام عدة أسئلة.

لماذا ذكر القرآن الكريم المحاريب ولم يذكر الهيكل؟

لماذا تذكر التوراة أن سليمان تزوج ألف امرأة ولم يرد ذلك في القرآن

الكريم؟

لماذا تذكر التوراة أن سليمان بنى لنسائه معابد وثنية وأصناماً لعبادتهم

ولم يذكر القرآن ذلك؟

إذا دققنا قليلاً في آيات القرآن الكريم وجدنا أن الأنبياء جميعاً ينطلقون من منطلق واحد وهو منطلق التوحيد. ولا شك أن العبادة لدى الأنبياء جميعاً هي عبادة واحدة في روحها وعندما يذكر القرآن الكريم المحاريب التي بنيت لسليمان فإن ذلك يدل على أن صلاة هذا النبي كانت تتم في هذه المحاريب. والمحارب بشكل عام معروف في الإسلام فهو التجويف الموجود في جدار المسجد المتجه نحو الكعبة. وقد ورد في العبادات الكنعانية أن المحارب كان معروفاً لدى الشعب الكنعاني. وليس بعيداً أن يكون النبي سليمان قد وجد في هذه المحاريب وسيلة حسنة للتعبد أو الصلاة. ولا شك أن ذكر القرآن الكريم لكلمة محاريب بصيغة الجمع يدل على أن هناك عدة معابد بناها النبي سليمان ووضع فيها المحاريب. بمعنى أنه بنى في كل معبد محراباً.

أما ما قالته التوراة عن بناء سليمان لما يسمى الهيكل فهناك وقفة تاريخية جغرافية أثرية ودينية.

مر معنا كيف ان التوراة وصفت الهيكل وصفاً ووضعت أرقاماً دقيقة لأطواله وارتفاعه وعرضه والساحات المحيطة به.

ترى التوراة أن هيكل سليمان بنى على بقعة سهلية في القدس، وعندما نقارن المساحة التي ذكرتها والتي بنى عليها الهيكل مع المساحة الجغرافية الحقيقية في القدس وجدنا كما وجد كافة علماء الآثار أنه لا توجد أية بقعة سهلية في جبال القدس تسع لهذا الهيكل أي أن المساحة المزعومة في التوراة لا تتطابق البتة مع المساحة الجغرافية لطبيعة القدس الجغرافية وإذا أردنا أن نفصل فهذا هو الإصحاح السادس من سفر الملوك أمامنا. وإذا جمعنا عدد الأذرع التي بنى عليها الهيكل وسرادقاته وجدنا أنها تبلغ مساحة أكبر بكثير مما هو موجود في الواقع عدا مرابط الخيول التي بنيت خارج هذا الهيكل.

ترى التوراة أن الهيكل بني من الحجارة وخشب الأرز المستورد وأن الذين شاركوا في بنائه بلغوا 30 ألف مسخر من العبيد.

ماذا يقول النص التوراتي؟ (والبيت في بنائه بني بحجارة صحيحة مقتلعة ولم يسمع في البيت عند بنائه منحوت ولا معول ولا أداة من حديد) إصحاح 6. الملوك الأول، فالعبيد المسخرون وهم ثلاثون ألف رجل اقتلعوا الحجارة اللازمة وهي صحيحة. ولم يستخدموا في قلعها أداة للنحت أو معول أو أي أداة من حديد.

ما الذي يعنيه النص وماذا يفيدنا إذا ما وضعناه في سياق علم الآثار؟

الواقع يقول لنا إن الحجارة كانت موجودة مسبقاً ولم تأخذها الأيدي من الصخور. ثم هي صحيحة أو منحوتة جاهزة للبناء إذ لم يستعمل لأجلها أي أداة حديدية.

وعلم الآثار يقول بكل بساطة إن مثل هذه الحجارة لا تكون بهذا الشكل إلا إذا كانت حجارة بيوت أو معابد مهدمة حديثاً. وهي بهذه الكثافة تدل على أنها كانت مشيدة في أبنية ضخمة سبق وجودها وجود النبي سليمان وأتباعه والطبقات الصخرية تدل بشكل قاطع على أن الحجارة التي تزعم التوراة أن الهيكل بني بها ليست حجارة بعيدة العهد عن عصر سليمان ومن المسلمات الآثارية أن الأقوام التي تلي أقواماً أخرى رحلت أو غيرت مكان سكنها تستخدم حجارة بيوتها في بناء بيوت جديدة.

والتوراة نفسها تورد أن أهل يبوس ظلوا في مساكنهم وعایشهم بنو إسرائيل وتصاهروا معهم فمن أين جاء العبيد بالحجارة التي بني بها هيكل سليمان؟ أهل القدس ظلوا في مساكنهم ولم تهدم البيوت. والعبيد لم يقتلعوا حجارة جديدة من الصخور ونحتوها. فهل هناك معجزة إلهية أسقطت مئات

الآلاف من الحجارة المنحوتة الجاهزة للبناء؟ أم أن هيكل سليمان بني من خشب ولم تدخل في بنائه الحجارة؟ أم أن الهيكل قصة تخيلها كتبة التوراة وهي ليست حقيقة واقعة؟ وإذا كان الهيكل المفترض قد بني فعلاً حسب زعم التوراة فما علاقة المقدس به. لقد كان من الممكن أن يختار سليمان أي مكان آخر ليبني هيكله عليه طالما أن اختيار المكان هنا هو اختيار إنساني وليس إلهياً. وقد نفترض أن سليمان قد بنى هيكلًا له ولكن ليس في مدينة القدس حتماً لأن كافة المعطيات الأثرية والتاريخية تتناقض تماماً مع ما قالته التوراة عن الهيكل.

إن المقدس الإلهي يخضع للثبات في المكان بينما المقدس البشري قابل للتهدم والإفناء. ولعل أدبيات التوراة وأصحاب التوراة يفتقدون للثبات في المكان. ودلائل التاريخ كثيرة وإذا كانوا الآن يحاولون التشبث بأسنانهم وأظافرهم باستعمار فلسطين فإن ذلك يدل أن الضياع اليهودي عبر آلاف السنين أصبح عقدة نفسية. ردة فعلها التشبث بأي مكان ولو أدى ذلك لاختراق القوانين البشرية كلها ولو أدى أيضاً إلى تدمير العالم تدميراً نهائياً.

إن ما أوردناه من نفي لوجود ما يسمى هيكل سليمان يعني أن سليمان لم يكن يتعبد بما يسمى هيكلًا إنما كان له معابد هي أشبه بالمساجد طالما أنه كان يقيم محاريب. وهذه المحاريب هي أجدر أن تكون أمكنة للتعبد ولاسيما الصلاة.

أما بالنسبة لقول التوراة إن سليمان تزوج نساء كثيرات وبنى لكل منهن معبداً وثنياً فليس ذلك إلا من قبيل تشويه النبي سليمان، وطالما أن التوراة نفسها لا تصفه بالنبي إنما بالملك فهي تجيز لنفسها أن تجعله يسلك سلوك الملوك وليس سلوك الأنبياء، فليس من طبع الأنبياء أن يؤمنوا بالله وحده وهو الذي اصطفاهم لنفسه ليكونوا أنبياءه أن ينحرفوا عن عقيدة التوحيد ويتبعون

أهواءهم فيفسحون المجال لعبادة الأوثان في بلادهم. ولا سيما أنهم بعثوا أيضاً لمحاربة الاشرار بالله.

إن التوراتيين لا يعترفون بنبوّة سليمان ويشوهون شخصيته تشويهاً مقيماً. وهذا يدل كما أسلفنا على عدم علاقتهم عقدياً بسليمان أو داود أو موسى أو حتى بقية الأنبياء.

وتورد التوراة أن سليمان قد تزوج ابنة فرعون مصر وأن هذا الفرعون هاجم إحدى مدن الساحل الفلسطينية واحتلها وأهداها لسليمان مهراً لابنته، وهذا الحديث كله لم يأت القرآن الكريم على ذكره ويبدو أن هذه القصة التي أوردتها التوراة قصة متخيلة ليس لها أساس من الصحة.

والأدلة على ذلك كثيرة.

أولاً: لم يكن سليمان ذا مُلكٍ يضاهاي مُلك الفراعنة المصريين حتى يصاهروه، وإذا كان ولا بد فقد يكون حكام مصر قد أهدوا لسليمان زوجة من الخاصة مكافأة له على ما أبداه من حماية حدود مصر الشمالية أمام أطماع البابليين أو الآشوريين، وهذا افتراض قد يصح وقد لا يصح.

ثانياً: المدة الزمنية بين موت موسى وظهور داود وسليمان ليست طويلة والمصريون كانوا قد غضبوا على بني إسرائيل أثناء خروج بني إسرائيل من مصر فما الذي غير الموقف الفرعوني تجاه أتباع التوراتية حتى وصل بهم الأمر لمصاهرة سليمان؟

فالتوراة لا تعطي أي سبب لذلك، وفجأة نرى سليمان يتزوج بنت فرعون مصر دون أي تعقيب على العلاقة بين سليمان وبين الفراعنة، ودون إيضاح لعلاقة ما حدثت بينهما كتمهيد لهذه المصاهرة.

ثالثاً: إذا كان سليمان قد تزوج ابنة فرعون فما هي عقيدتها التي كانت عليها، فمن المعروف أن الفراعنة كانوا وثنيين والآلهة عندهم متعددة، ولنفترض أن سليمان قد تزوج ابنة فرعون فهل أصبحت عقيدتها كعقيدة سليمان. فالتوراة لا تأتي على أي ذكر للمسألة الدينية في هذه القصة، أما نحن فنرى أن النبي سليمان لن يكون نبياً في الأساس إذا رضي بالزواج من مئات النساء الوثنيات ومنهن ابنة فرعون، وبقيين على عقائدهن.

لقد افترض كتبة التوراة أن سليمان تزوج ابنة فرعون ليبرهنوا على أن سليمان كان ملكاً قوياً تمتد مملكته على أراض واسعة وتهدد جيرانها الأقوياء فلذلك صاهره الملوك طمعاً بتحالفه معهم أو خوفاً من جيوشه، والدراسات التاريخية جميعها تشير إلى أن الفراعنة حتى في أيام ضعف مملكتهم لم يخضعوا لما يسمى مُلك سليمان أو داود، ولم تكن مملكة داود أو سليمان سوى مملكة صغيرة جداً. والقرآن الكريم عندما يتحدث عن مُلك سليمان لم يحدد هذا الملك بجغرافيا أرضية إنما بامتداد معنوي رافق النبوة.

وماذا عن قصة وادي النمل:

فقد أورد القرآن الكريم قوله تعالى: (حتى إذا أتوا على وادي النمل قالت نملة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون فتبسم ضاحكاً من قولها وقال رب أوزعي أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي وأن أعمل صالحاً ترضاه وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين) النمل 18 - 19.

وأورد ياقوت الحموي في معجم البلدان: (قيل أنه بين بيت جبرين وعسقلان) وقال ابن بطوطة الرحالة الشهير (إن بظاهر عسقلان وادي النمل ويقولون إنه المذكور في الكتاب العزيز) وينتشر من الإسرائيليات قولهم إن سليمان كان يمتلك بساط الريح الذي يأمره فيطير به حيثما أراد. والحقيقة أنه

لو كان لسليمان مثل هذا البساط لما قالت النملة إن سليمان وجنوده سيحطمونهم. وهذا يعني أن جيشه كان يمشي على الأرض ولا يطير على بساط الريح.

وقد تعرض القرآن الكريم كما تعرضت التوراة لقصة مملكة سبأ. لكن الاختلاف الكبير الذي يقع هو أن سليمان غضب لسماعه أن قوماً على رأسهم ملكة يعبدون غير الله. فكان قوله إما أن تؤمنوا بالله وحده وإما الحرب. ولم تورد التوراة قصة الصرح ولا قصة الهدهد ولا قصة إيمان ملكة سبأ، وركزت على قيام هذه الملكة بتقديم الهدايا من ذهب وفضة لسليمان تقول التوراة (وأعطت الملك مئة وعشرين وزنة ذهب وأطيباباً كثيرة جداً وحجارة كريمة. لم يأت بعد مثل ذلك الطيب في الكثرة الذي أعطته ملكة سبأ للملك سليمان) ملوك أول إصحاح 10.

ولم تورد التوراة أن سليمان تزوج من ملكة سبأ وكذلك لم يرد مثل هذا في القرآن الكريم وما يقال وما يتناقله بعض المفسرين المسلمين عن زواج سليمان بالملكة لا يستند إلى أساس تاريخي علمي ثابت.

ومن خلال السياق القرآني نرى أن سليمان بما أوتي من نبوة وحكمة جعل ملكة سبأ تؤمن بالله الواحد وتبتعد عن عبادة الشمس والأصنام. ولم يصل سليمان ولا جيشه إلى اليمن إنما الظاهر أن ملكة سبأ آمنت برب سليمان وعادت إلى بلادها دون أن تقع بين الطرفين حروب أو غزو أو احتلال.

يقول تعالى: (إني وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم 23. وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون 24).

ويتابع قوله تعالى: (اذهب بكتابي هذا فألقه إليهم ثم تول عنهم فانظر ماذا يرجعون 28. قالت يا أيها الملأ إني ألقي إلى كتاب كريم 29. إنه من

سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم 30. إلا تعلوا عليّ وأتوني مسلمين (31) سورة النمل.

ويقول تعالى: (فلما جاء سليمان قال أتمدونني بمال فيما آتاني الله خيراً مما آتاكم بل أنتم بهديتكم تفرحون 36. إرجع إليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون) 37 النمل.

وقال تعالى: (قالت رب إنني ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين) 44 النمل.

وهذا هو الفارق الجوهرى بين التوراة والقرآن. فسليمان يغار على إسلامه ودينه التوحيدي فيدعو الملكة للإسلام والتوحيد فتسلم بينما التوراة لا تذكر سوى أن الملكة سمعت بملكه وحكمته فزارته وقدمت له الهدايا من الذهب والفضة، والفرق واضح بين الملكين، فهناك ملك دنيوي بكل ما يحمل من صفات الدنيوية وهناك ملك نبوي توحيدي غابته نشر دين التوحيد. وقد ورد في التوراة شيء من المدح لسليمان على لسان ملكة سبأ حيث تقول: ليكن مباركاً الرب إلهك الذي سرّ بك وجعلك على كرسي إسرائيل) الملوك الأول 9 - 10.

ما بعد سليمان:

بموت سليمان عليه السلام انتهت مرحلة مهمة في ما كتبه التوراة وإذا راجعنا نصوص هذا الكتاب وجدنا أن الأنبياء قد اختلفوا من حياة بني إسرائيل فترة زمنية طويلة فبعد سليمان بدأ التفكك يدب في أوصال بني إسرائيل وانقسمت الملكة إلى مملكتين واحدة في منطقة القدس والأخرى في السامرة، وراحت المملكتان تتحاربان وتضعفان حتى جاء السبي البابلي، وهذا حسب ما جاء في التوراة.

يموت النبي سليمان في نهاية الإصحاح الحادي عشر من سفر الملوك الأول، حيث يرد في آخر هذا الإصحاح أن سليمان طلب قتل يربعام الذي ثار ضد حكم سليمان وليقيم مملكة خاصة به وحسب قول التوراة أن يربعام افرايمي من صردة وكان عبداً لسليمان واسم أمه صروعة وهي امرأة أرملة.

وتورد التوراة أن رحبعام ابن سليمان ذهب إلى شكيم لينصبه بنو إسرائيل ملكاً عليهم ثم تورد أخباراً عن انشقاق المملكة إلى اثنتين إلى أن يصل حديث التوراة إلى آخاب ابن عمري الذي ملك على إسرائيل في السامرة اثنتين وعشرين سنة وتقول التوراة إنه تزوج من إيزابيل ابنة اثبعل ملك الصيدونيين وعبد البعل وسجد له.

وتورد التوراة أن إيليا التشبي من مستوطني جلعاد دعا آخاب إلى العودة للتوحيد وعبادة الله إلا أن آخاب رفض التوحيد وتورد التوراة في الإصحاح الثامن عشر من الملوك الأول أن إيليا تحدى آخاب وانتصر على كهنة البعل وقتلهم ثم لوحق فهرب من وجه آخاب. وتورد التوراة أنه هرب إلى بئر السبع ومن هناك إلى جبل الله حوريب.

وتتفق التوراة مع القرآن الكريم في الخطوط العامة لهذه القصة وهذا النبي، فأيليا هو إلياس حسب كافة المفسرين وقد ورد ذكر دعوته للتوحيد ونبذ عبادة البعل الذي اتخذه آخاب بن عمري إلهاً من دون الله.

يقول تعالى: (وإن إلياس لمن المرسلين. إذا قال لقومه ألا تتقون. أتدعون بعلاً وتذرون أحسن الخالقين. الله ربكم ورب آبائكم الأولين. فكذبوه فإنهم لمحضرون. إلا عباد الله المخلصين) الصافات 123 - 128.

وملخص قصة الصراع بين النبي إلياس وآخاب بن عمري أن إيزابيل زوجة الأخير جمعت كهنة البعل في جبل الكرمل ليتحدوا النبي إلياس. واستطاع بعون ربه أن يغلبهم فحملت إيزابيل على النبي ودبرت له مقتلاً

فهرب إلى بعلبك وتوارى عن أنظار أعدائه حتى تغير الملك أو قُتل فعاد إلى دعوته للتوحيد.

وقد أوردت التوراة نصوصاً كثيرة تتحدث عن عبادة اليهود للبعل، وبعل كان إلهاً رئيسياً لدى الفينيقيين والكنعانيين بعد أن تقلبت عقائدهم.

ومنذ النبي إلياس لم يأت القرآن الكريم على ذكر أي نبي مرسل مرتبط ببني إسرائيل وما ذكرته التوراة عن بعض الأنبياء ورجال الله كما تطلق عليهم لم يكونوا أنبياء مرسلين كبقية الأنبياء المعروفين في القرآن الكريم، وهناك آيات قرآنية كثيرة تشير إلى ما فعل الله سبحانه ببني إسرائيل بعد أن انحازوا كلياً عن ديانة التوحيد.

أما من حيث الزمن الفارق بين إلياس وبين الأحداث التي جرت لبني إسرائيل من سبي وتشريد فإن التوراة تورد أحاديث كثيرة عن ذلك. وتتحدث عن بعض الأنبياء الذين لم يصرح القرآن بالحديث عنهم.

وهناك بعض التقاطعات في الاتفاق بين التوراة والقرآن الكريم كالحديث عن عازر جامع التوراة ومدونها. ونقول بعض التقاطعات لأن اختلافات كثيرة تقع بين النص التوراتي والقرآن الكريم.

ففي التوراة سفر باسم عزرا وهو من عشر إصحاحات وأحداث هذا السفر تقع زمن احتلال الفرس لبلاد الرافدين على يد كورش.

وتقول التوراة إنه في زمن مُلكٍ أرتحشتا لفارس ظهر عزرا الذي ينسبونه إلى هارون وتقول عنه إنه كان كاتباً ماهراً في شريعة موسى التي أعطاها الرب إله إسرائيل.

أما القرآن الكريم فلم يصرح باسم العزيز في قصة موته مئة عام ثم بعثه لكن الرواة المسلمين أجمعوا على أن الآيات الكريمة التي تتحدث عن الرجل

الذي أماته الله مئة عام هو العزيز. وقد صرح الكريم باسم العزيز في سورة التوبة وفي سياق آخر حين قال وقالت اليهود عزيز ابن الله. التوبة 30.

ولاختلاف أحداث القصص المرتبطة بعزرا بين التوراة والقرآن الكريم ولعدم تصريح القرآن باسمه آثرنا عدم الخوض في مقارنات متصوّرة قد تكون خاطئة في أكثر تقويماتها.

أما عن الفترة الزمنية التي فصلت بين ميلاد المسيح عليه السلام وبين النبي سليمان فقد تحدثت عنها التوراة بشكل مفصل لا سيما قصة السبي والتشريد والعودة ثم تدمير الهيكل مرة ثانية وتحدث التوراة في سفر زكريا وهو السفر ما قبل الأخير في التوراة عن حكم داريوس ويقدم زكريا في هذا السفر رؤيته وكلام الرب إليه كما تقول التوراة. فيبشر بخراب أورشليم وسبي نساءها. (واجمع كل الأمم على أورشليم للمحاربة فتؤخذ المدينة وتُنهب البيوت وتفضح النساء ويخرج نصف المدينة إلى السبي وبقية الشعب لا تقطع من المدينة). اصحاح 14 سفر زكريا.

وإذا نظرنا إلى الأسفار منذ سفر الملوك الثاني أي بعد موت سليمان وحتى سفر ملاخي وجدنا أن سمة حياة بني إسرائيل هي الاقتتال الداخلي ومن ثم التعرض لهجوم قوى كثيرة عليهم.

وإذا تفحصنا مضامين الأسفار التي سميت بأسماء أصحابها وهي أشعياء، وإرميا وحزقيال ودانيال وميخا وناحوم وزكريا وملاطي. نرى أن الأنبياء غاضبون على بني إسرائيل. فهي مليئة بالأدعية لأجل أن يُدمر بنو إسرائيل. وتكتنفها جنسية وثنية صريحة خاصة في مراثي إرميا.

وما يمكن أن نقارنه هنا هي تلك الخطوط العامة التي يتعرض لها القرآن الكريم ويتحدث فيها عن إذلال بني إسرائيل وتسليط الأمم عليهم.

يقول تعالى : (وإذ تأذن ربك ليعيثن عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب إن ربك لسريع العقاب وإنه لغفور رحيم. وقطعناهم في الأرض أمماً منهم الصالحون ومنهم دون ذلك وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون) الأعراف 167 - 168.

ويقول تعالى : (وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب لتفسدن في الأرض مرتين ولتعلن علواً كبيراً فإذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عبداً لنا أولي بأس شديد فجاسوا خلال الديار وكان وعداً مفعولاً. ثم رددنا لكم الكرة عليهم وأمددناكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثر نفيراً. إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها فإذا جاء وعد الآخرة ليسئوا وجوهكم وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة وليتبروا ما علوا تتبيرا) الإسراء 4 - 7.

ملحق

يهود الأمس ومتهودو اليوم

يهود الأمس ومتهودو اليوم

يخرج هذا الموضوع عن نطاق بحثنا المخصص للمقارنة بين التوراة والقرآن في مسألة الخلق الكوني والتاريخ الإنساني. غير أن تاريخ اليهود تاريخ متشعب الجوانب. فيه من الغموض أكثر مما فيه من الوضوح وتسلسل التواجد اليهودي في المنطقة يفقد حلقات متعددة تكاد كتب التاريخ لا تذكرها. وقد جاء العصر الحديث ليحمل معه وجود موجة يهودية حديثة تظهر في أوروبا الشرقية وتتمدد لتخرج بالتالي الحركة الصهيونية كحركة سياسية تخلط في مستنداتها بين الانتماء لليهودية التوراتية وبين الانتماء لحركة استعمارية حديثة تحتل فلسطين في ظروف غريبة وتهدد المنطقة العربية بالتوسع الجغرافي والهيمنة الاقتصادية والثقافية على الشرق برمته.

إن هذا الوجود الجديد للذين يدعون اليهودية يضع أمامنا وأمام الباحثين جميعاً تساؤلات كثيرة من شأنها أن تثير مسائل متعددة قد تصعب الإجابة عليها إن لم ندقق بمجريات الأحداث التاريخية ودراسة الواقع العقيدى والاجتماعي والتواجد البشري لهؤلاء الذين ركبوا موجة اليهودية واستطاعوا أن يحققوا قفزة استعمارية خبيثة في المنطقة والأسئلة التي يمكن طرحها:

هل من صلة عرقية بين يهود الأمس ومتهودي اليوم؟

ماذا يقول التاريخ عن اليهود بعد تدوين التوراة؟

ماذا يقول القرآن الكريم عن اليهود وعلاقتهم بالسيد المسيح؟

ماذا يقول القرآن الكريم عن اليهود وعلاقتهم بالنبي محمد صلى الله عليه

وسلم؟

ما الذي جرى مع اليهود بعد ترحيلهم عن الجزيرة العربية في القرن

الهجري الأول؟

أين توزعوا وأين استقروا بعد انتشار الإسلام؟

ما العلاقة بين يهود الشرق ويهود الغرب؟

من المعروف أن ساحل الوطن العربي على البحر المتوسط خضع للاستعمار الروماني منذ القرن الأخير قبل الميلاد واستمر حتى أعاد العرب المسلمون الأرض العربية لأصحابها. والتوراة لم تدوّن الكثير عن هذه الفترة الزمنية. وخضع اليهود على اعتبارهم فئة كانت تعيش في بعض مناطق فلسطين الضيقة مع من خضع من سكان فلسطين لهذا الاحتلال الروماني. وقد تم ذلك سنة 63ق.م حيث استولى القائد الروماني بومبوس، أو بومباي على القدس وفلسطين برمتها واستقر الوضع للرومان حيث حكم فلسطين هيروودس الكبير منذ عام 72 - 4ق.م. ثم دمر الامبراطور الروماني تيطس مدينة القدس وأحرق معابدها. ثم حكم بعده أدريانوس فأزال معالم مدينة القدس سنة 135م إذ حرث الأرض وسواها وزرعها. وعلى إثر ذلك لم يبق يهودي واحد في فلسطين حيث هجروا أو هربوا إلى مصر وشمال أفريقيا وإسبانيا وأوروبا. وأقام أدريانوس معبداً وثنياً باسم جوبيتر رب الآلهة عند الرومان وبقي هذا المعبد حتى قامت المسيحية بشكل رسمي فدمره المسيحيون من أساسه في عهد الإمبراطور قسطنطين.

ويدعي اليهود أن ثورة عارمة أقاموها ضد الحكم الروماني مما حدا بالأباطرة إلى تدمير الهيكل الثاني. والحقيقة أن فلسطين خضعت لسبعة من الحكام الرومانيين في الفترة بين 44 - 66م تذكر كتب التاريخ أنهم جميعاً فاسدو الخلق ومرتشون وظالمون. وقد أرهقوا سكان فلسطين بالضرائب مما جعل أهل فلسطين يقومون بثورة ضد الحكم الروماني وذلك عام 70م وكان غالبية القتلى من أهل فلسطين المسيحيين وقتل بعض اليهود في هذه الثورة وقد ذكر المسعودي في كتابه التنبيه والاشراف صفحة 110 أن عدد القتلى بلغ ثلاثة آلاف ألف.

وقد حوّل الرومان اسم مدينة القدس إلى اسم إيليا كبتولينا. ولم يشكل اليهود في أي عهد من العهود أكثرية في فلسطين.

ودخلت اليهودية كعقيدة إلى مناطق عدة من الوطن العربي لا سيما الجزء الشرقي. أي شمال الجزيرة العربية، وبعض أجزاء من اليمن، ومن هناك دخلت إلى بعض أطراف الحبشة، واعتنق بعض العرب في يثرب العقيدة اليهودية.

وتواجد اليهود أيضاً في بلاد الرافدين، ومن هناك انتشروا في بعض مناطق إيران خاصة أصفهان وقد دلت الآيات القرآنية الكريمة بشكل واضح على مواقف اليهود من البعثة عندما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة (يثرب).

وتذكر كتب السيرة وكتب التاريخ الإسلامي أن اليهود العرب كانوا ضمن قبائل يعايشون الأوس والخزرج وبعض القبائل العربية الأخرى ومن قبائلهم، بنو النضير، وبنو قريظة، وبنو قينقاع، وكانوا أيضاً يسكنون خيبر وفدك وتيماء. ووضح أن اختلافهم مع الإسلام هو اختلاف عقيدي عميق الجذور وليس اختلافاً قومياً. وتذكر كتب السيرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حاول كسبهم إلى صف المسلمين على اعتبارهم أهل كتاب لكنهم ظلوا يكيّدون له وللدولة الإسلامية الفتية حتى ضاق بهم ذرعاً وحاربهم وطردهم طرداً نهائياً

من المدينة وضواحيها ومن ثم تابع خلفاؤه طردهم من الجزيرة كلها فانتشروا في بعض أجزاء بلاد الشام ومنهم من هاجر إلى العراق، ومنهم من حاول التسلل إلى فلسطين، وبعضهم هاجر إلى اليمن، وتؤكد الوقائع أن سبب تشتتهم سبب عقيدي بالدرجة الأولى، فكما تشير آيات القرآن الكريم فإنهم حرفوا التوراة وشنعوا على الأنبياء موسى وداود وسليمان وعلى من سبقهم كإبراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب ويوسف، وشنعوا على السيد المسيح وحاربوا الرسالة الجديدة بالخداع والمكر والخيانة وحاولوا بثتى السبل إيقاع الخلاف بين الأوس والخزرج وحرصوا على قتل النبي صلى الله عليه وسلم.

على أية حال فاليهود الذين تواجدوا في المدينة هم يهود عرب أو أنهم قبائل عربية تبنت العقيدة اليهودية، وعندما اصطدمت تحريفاتهم ومصالحهم مع الرسالة الجديدة اضطر المسلمون لإبعادهم وإبعاد خطرهم عن العقيدة الجديدة والدولة الجديدة، وهذا ما لم يحدث مع من تنصّر من العرب وبقي في أرضه مسالماً أو مقاتلاً مع إخوته العرب لا سيما أثناء الحروب مع الفرس، ولم تشر كتب السيرة أو كتب التاريخ أية إشارة إلى طرد المسيحيين العرب عن الجزيرة، فأهل نجران ظلوا في أراضيهم على الرغم من اختلافهم العقيدي مع المسلمين ونزاعهم أحياناً معهم.

والمدقق بأسماء رجال اليهود وأنسابهم يرى أن هذه الأسماء عربية الأصل والجذر، منهم مثلاً حسب ما أورده ابن هشام في سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم: كنانة بن الربيع ابن أبي الحقيق، وسلام بن أبي الحقيق، والربيع بن الربيع، وعمرو بن جماش وكعب بن الأشرف وهو من قبيلة طيء، الحجاج بن عمرو وهؤلاء من بني النضير.

ومن بني ثعلبة، ابن الفطيون، وعبد الله الأعور، ومخيرق، وكان حبراً كبيراً فيهم وقد أسلم ومن بني قينقاع، زيد بن اللصيت، وسعد بن حنيف،

ومحمود بن سيحان، وعزيز ابن أبي عزيز، وعبد الله بن صيف، وسويد بن الحارث، ورفاعة بن قيس، وشاس بن عدي، وزيد بن الحارث، ونعمان بن عمرو، وعدي بن زيد، ونعمان بن أبي أوفى، ومحمود بن دحية ومالك بن صيف، وكعب بن راشد، ورافع بن أبي رافع، ورافع بن حارثة.

ومن بني قريظة الزبير بن وهب، وكعب بن أسد، وجبل بن عمرو بن سكينه، والنحام بن زيد ووهب بن زيد، ونافع بن أبي نافع، والحارث بن عوف، وأسامه بن حبيب.

ومن بني زريق: لبيد بن أعصم.

ومن يهود بني النجار سلسلة بن برهام، ومن بني عمرو، قردم بن عمرو ومن يهود حارثة، كنانة بن سوريا، وقد أسلم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم منهم عبد الله بن سلام، وكان حبراً عالماً وقد اوردت سيرة ابن هشام خبر إسلامه في الصفحة 516 - 517، في الجزء الثاني من السيرة.

وممن قاتل مع النبي صلى الله عليه وسلم يوم أحد مخيرق، وكان حبراً عالماً وكان غنياً كثير الأموال، وكان يعرف رسول الله بصفته وما يجد في علمه، وقد خاطب قومه يوم أحد وكان يوم سبت يا معشر يهود والله إنكم لتعلمون أن نصر محمد عليكم حق، قالوا إن اليوم يوم سبت، قال لا سبت لكم ثم أخذ سلاحه فخرج حتى أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بأحد وعهد إلى من وراءه من قومه إن قتلت هذا اليوم فأموالي لمحمد يصنع فيها ما يراه، فلما اقتتل الناس قاتل حتى قتل فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول فيما بلغني «مخيريق خير يهود».

وقد أجلي يهود عن أرض الجزيرة نهائياً في زمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه لما تحقق من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يجتمع في الجزيرة دينان.

ولو تفحصنا الإنجيل لوجدنا أن بعض اليهود كانوا متواجدين في فلسطين كقلة زمن العصر الروماني الوثني وقد تحالفوا مع الرومان الوثنيين ضد دعوة السيد المسيح ، ولاحقوه وعذبوا بعض رفاقه ، وعندما تبنى قسطنطين المسيحية لعب اليهود دور التخريب العقيدي في الديانة المسيحية وظل الأمر كذلك حتى جاء التحرير العربي الإسلامي ، ومما يدل على أن تواجد اليهود في فلسطين أيام الفتح العربي الإسلامي زمن الخليفة الثاني عمر بن الخطاب كان نادراً ما جاء في العهدة العمرية لأهل بيت المقدس من العرب المنتصرين حيث كان أحد شروط التسليم ألا يساكن أهل القدس يهود أو رومان ، فأخرج الرومان من القدس ومنع اليهود من الدخول إلى فلسطين قرناً طويلاً ، وظلت فلسطين والقدس أرضاً خالية من التواجد اليهودي حتى القرن التاسع عشر، حيث بدأ التوجه الصهيوني الاستعماري لاحتلال الأرض العربية.

والواضح أن اليهودية بعد انتشار المسيحية والإسلام أصبحت عقيدة مرفوضة منبوذة وذلك بسبب سوء تصرف اتباعها وانحرافها الكلي عن عقيدة موسى التوحيدية، ولهذه الأسباب انحصرت اليهودية وانطفأت حتى بات أتباعها لا يشكلون سوى نسبة ضئيلة بين سكان العالم.

ويمكن أن نلخص اتجاه تواجد اليهود بعد انتشار الدعوة الإسلامية على الشكل التالي :

١ - يهود في اليمن : حيث تبنى بعض الملوك العرب اليمنيين الدين اليهودي بسبب ظرف سياسي حيث التناحر بين الفرس والأحباش لاحتلال اليمن ، وبسبب التأثير الديني الذي مارسه بعض أحبار الجزيرة العربية على الملك اليمني حيث أوغروا صدره ضد المنتصرين الجدد حيث اعتبرهم امتداداً للأحباش الطامعين ببلادهم.

2 - يهود في العراق وبلاد فارس، وهم من بقايا من سبى من اليهود أيام البابليين ومن بقايا من هُجّر من الجزيرة العربية أيام احتدام الصراع بين المسلمين واليهود في يثرب.

3 - يهود في بعض المدن الشامية كدمشق وحلب، وهم من بقايا يهود هجّروا من الجزيرة ومن اليهود الذين رحلتهم الدولة الرومانية إلى مناطق متفرقة من الإمبراطورية الرومانية.

4 - يهود في المغرب العربي، تونس، مراكش، ومن هناك إلى الأندلس وهؤلاء ممن هجّر من اليهود في زمن الرومان.

وعلم الأجناس ومن ثم علم الإنسان يؤكد أن اليهود نشروا عقيدتهم على نطاق محدود. ومع تقادم الزمن تميزت عدة أعراق أو أجناس من الذين تبناوا العقيدة اليهودية، ويلاحظ بشكل قطعي أن هناك يهوداً من أصول عربية وتبدو سحناتهم واضحة، كاليهود السوريين والعراقيين، وكذلك اليهود كاليهود اليمينيين الذين تمتاز بشرتهم باللون الأسمر الزيتوني وهناك أيضاً اليهود الأحباش (الفلأشا) فهم أقرب إلى العرق الزنجي فهم سمر داكنون وأصحاب شعور سوداء جعد.

وقد تحدث بعض علماء الأجناس عن ذلك حيث أكدوا أن من يعتنقون اليهودية ينتسبون إلى سبعة عشر عرقاً أو جنساً لا يتشابه جنس مع الآخر.

أما يهود أوروبا لا سيما الشرقية فإنهم متهودون اعتنقوا اليهودية وأسسوا مملكة الخزر وعندما انكسرت هذه المملكة انتشر متهودوها في أوروبا الشرقية كلها ومنها انطلقوا إلى بقية بلدان أوروبا الغربية.

ويرى عدد كبير من الباحثين أن تحول الخزر إلى العقيدة اليهودية الخالصة يعتبر أمراً فريداً من نوعه في التاريخ.

ويرى آرثر كوستلر، أنه في بداية القرن الثامن الميلادي كان العالم مستقطباً بين القوتين العظميين الممثلتين للمسيحية والإسلام، وكانت إمبراطورية الخزر تمثل قوة ثالثة أثبتت أنها ندد لكل منهما سواء باعتبارها خصماً أو حليفاً، ولكنها كانت تستطيع الاحتفاظ باستقلالها فقط عندما ترفض اعتناق المسيحية أو الإسلام لأن كلاً من الخيارين كان سيؤدي تلقائياً إلى الانسواء تحت سلطة الامبراطورية الرومانية أو خليفة المسلمين.

وقد حدث أن بيزنطة اضطهدت اليهود في امبراطوريتها مما جعلهم يهربون باتجاه بلاد الخزر وقد اطلع الخزريون على العقيدة اليهودية، ولأسباب سياسية تبني الخزر العقيدة اليهودية حتى يظلوا مستقلين سياسياً عن نفوذ بيزنطة وخليفة المسلمين.

ويؤكد المؤرخ السعودي أن ملك الخزر تبني اليهودية في عهد هارون الرشيد، انضم إليه اليهود من كافة أمصار الإسلام ومن بيزنطة، ومملكة الخزر صارت نوعاً من الوطن القومي.

ويورد آرثر كوستلر في كتابه أن البكري صاحب كتاب الممالك والمسالك أورد قصة اعتناق ملك الخزر لليهودية، ويرى أن الباحث بيوري كان قد استنتج من هذه القصة أن النفوذ والتأثير اليهودي في البلاط الخزري كانا لا محالة قويين بالفعل قبل إجراء المناقشة الرسمية بين زعماء الرسائل السماوية الثلاث في المملكة الخزرية.

ويقول كوستلر: قام الخزر قبل الغزو المغولي وبعده بإرسال فروع منهم إلى البلاد السلافية التي لم تقهر وعاونوا بذلك إلى أقصى حد على تشييد المراكز اليهودية الضخمة في أوروبا الشرقية ويقول إن انتماء الأغلبية العديدة والاجتماعية لسكان هنغاريا اليهود في العصور الوسطى إلى الأصل الخزري قد تم تعزيزه بالوثائق بشكل جيد نسبياً.

وعندما يقسم الباحثون اليهود إلى سفارديم وإلى أشكنازيم فإنهم يؤكدون أن السفارديم هم من سلالة اليهود الذين عاشوا في إسبانيا إلى أن طردوا منها في نهاية القرن الحادي عشر واستقروا في حوض المتوسط والبلقان، أما الأشكنازيم فيعودون في أصولهم إلى الخزر الذين انتشروا في بلدان أوروبا الشرقية بعد سقوط دولتهم المتهودة.

ويؤكد الأستاذ جوان توماس أن اليهود ليسوا متجانسين من الناحية السلالية وذلك أن هجراتهم الدائمة وعلاقاتهم الاختيارية أو غيرها بأوسع مجموعة من الأمم والشعوب قد أحدثت فيهم درجة من التهجين.

وقد بلغ اعتناق اليهودية ذروته في عهد الإمبراطورية الرومانية فيما بين سقوط الدولة اليهودية وظهور المسيحية فقد تهودت كثير من العائلات النبيلة في إيطاليا، ويتحدث فيلو عن التحول الضخم إلى اليهودية في اليونان.

ويقول توينبي، هناك أسباب كثيرة تدعونا للاعتقاد بأن أثراً قوياً من دماء هؤلاء اليهود يسري اليوم في العروق الإيبيرية في إسبانيا والبرتغال في الطبقتين الوسطى والعليا. وإن كان من الصعب على أدق المحللين النفسيين اكتشاف الذين ينحدرون من أصول يهودية، فيما لو عرضت عليه نماذج من الإسبان والبرتغاليين الحاليين من الطبقتين العليا والوسطى.

وباختصار نرى كما يرى الباحثون أن الذين أقاموا دولة الكيان الصهيوني المغتصب هم يهود أوروبا الشرقية ذوو الأصول الخزرية، وليس لهم علاقة بالمنطقة التي عاش فيها يهود الأمس، والتركيز على أرض فلسطين واستعمارها لا يشكل بالنسبة لهم أي رابط مقدس بالتوراة حتى تلك النصوص المزيفة التي كتبت أيام السبي البابلي.

فعلى الرغم من أن التوراة يدعو إلى الاستعمار والاعتداء إلا أن استعمار فلسطين جاء نتيجة تحالف قوى الغرب لإقامة ما يسمى وطناً قومياً لليهود في

فلسطين. وبسبب ظروف أخرى مشابهة بظروف العنف الموجهة ضد اليهود في أوروبا الشرقية وألمانيا فقد غدا هؤلاء المتهودون عالة على مجتمعاتهم الأوروبية مما أدى إلى بروز اتفاق ضمني بين اليهود وبين القوى الغربية على تغذية الشعور بالقومية لدى كافة متهودي العالم، وقد جاء الاستعمار البريطاني وكذلك الفرنسي ومن ثم الأمريكي يسعى لتحقيق هذا الهدف دون النظر إلى العواقب المترتبة عليه.

لقد تتبع الباحث آرثر كوستلر شعوب أوروبا ومتهوديها منذ القرن السابع للميلاد وحتى القرن العشرين، ويبين بالأدلة القاطعة أن الخزر المتهودين زرعوا القبائل المجرية التابعة لهم في مواقع جديدة من أوروبا يخدمون منها أهدافهم الاستراتيجية ومن ثم يأتي الاستعمار الغربي ليزرع أحفاد الخزر في فلسطين. وينقض الكاتب كوستلر مقولة أن المتهودين الحاليين هم ساميون أو أنهم من نسل بني إسرائيل القدامى، ويثبت أنهم آريون عامة وقوقازيون خاصة.

ولعل من أبرز أدلته هنا بحوث أستاذ التاريخ اليهودي بولياك الذي يدرس في جامعة تل أبيب في فلسطين المحتلة، ثم ينقض قول المتهودين إنهم من جنس واحد نقي. فهم خليط من أجناس مختلفة، وقامت أحكامه على دراسة علم الشعوب وعلم الأجناس والوراثة وما شابه ذلك وذكر أن الباحثين متفقون على أن هجرة اليهود والخزر قد أسهمت بالتأكيد على نمو اليهودية البولونية. حتى أن البولونيين نصبوا أحد اليهود ملكاً على بلادهم.

إن الفكرة الصهيونية هي فكرة سياسية قبل أي اعتبار آخر، وقد استفادت الحركة الصهيونية من الظروف السياسية التي سادت أوائل هذا القرن واستطاعوا بالتالي التسلل إلى فلسطين وإقامة كيان لهم بعد أن طردوا الشعب العربي الفلسطيني من أرضه.

فهرس موضوعات

الجزء الأول

5

مقدمة: علم مقارنة الأديان ضرورة ملحة في العصر الحالي

7

تمهيد: التوراة، صحتها وتاريخها

19

الفصل الأول: التكوين التوراتي والحقائق القرآنية ويتضمن:

25

خلق الأرض - السموات والحيوان والنبات والإنسان - التكوين التوراتي والخلفية الأسطورية - الملائكة والجن في التوراة والقرآن.

51

الفصل الثاني: من آدم إلى انتهاء الطوفان ويتضمن:

فكرة خلق آدم وسبب خلقه - خلق آدم من تراب - آدم الإنسان الأول، زوجة آدم (حواء) - الجنة - الخطيئة - الحية والشيطان - شجرة المعرفة - الهبوط إلى الأرض - صورة آدم في التوراة والقرآن - ماذا يقول القرآن الكريم في خلق الإنسان - هل آدم هو أول البشر؟ هل حقا لعن الله الأرض؟ - ولدا آدم قابيل وهابيل - نوح، الطوفان، السفينة، أولاد نوح - الطوفان واقعة حقيقية وليس أسطورة - الطوفان في مدونات الشعوب

121

الفصل الثالث: الأنبياء الأولون ويتضمن:

ماذا بعد الطوفان؟ أقوام عاد وثمود وعاد الثانية، هود، صالح - إبراهيم أبو الأنبياء - عصره، هجرته، بلده الأصلي، التوحيد، أولاده، زوجاته، إسماعيل، إسحق، بناء الكعبة، إسحق وأولاده، يعقوب والأسباط، يوسف في مصر.

211

الفصل الرابع: من غياب يوسف إلى موسى والخروج ويتضمن:

الحلقة التوراتية المفقودة - أيوب، شعيب - الخروج التوراتي وحقائق القرآن - موسى وفرعون، سيناء والعجل، بنو إسرائيل في سيناء، ما هي التوراة التي نزلت على موسى؟ من هم الجبارون؟ وما هي الأرض المقدسة المباركة؟ - موسى

والعبد الصالح.

الفصل الخامس: زمن ما بعد موسى ويتضمن:

بين عصر وعصر. يشوع والنبوة، التيه العقيدي.

الفصل السادس: من صموئيل إلى داود وسليمان ويتضمن:

ما قبل داود. داود. شخصيته، عقيدته، حقيقته، ملكه،

لماذا اختار داود جبل الزيتون لبناء قصره؟ ماذا يقول

الباحثون والآثاريون عن مملكة داود، داود وأبناؤه، سليمان

وملكه. الهيكل المزعوم. مملكة سبأ. ما بعد سليمان.

ملحق:

يهود الأمس ومتهودو اليوم. يهود الخزر يحتلون فلسطين

قادمين من أوروبا الشرقية.